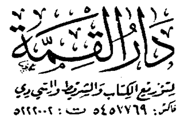
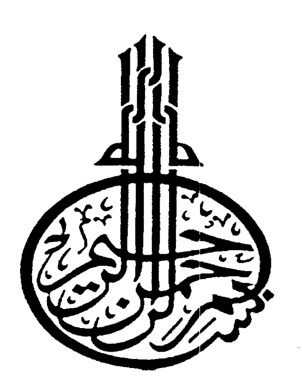


كتبه

سعد سعيد أحمد عبده
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين






بسم الله الرحمن الرحيم


هَلْ أَنْتَ
الْغُلَامُ

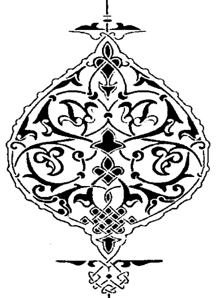


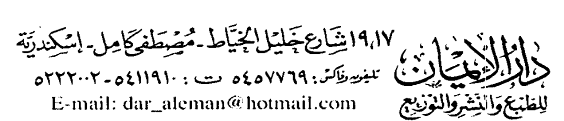
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٨٨٢٥

الترقيم الدولي
977-331-450-2





مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمَّة، وتركنا على المحاجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

لقد أصيبت الأمة الإسلامية في هذه الأيام بأسوأ ما تصاب به الأمم، ألا وهو الهزيمة النفسية، أو الشعور بالهزيمة في أية معركة قبل دخولها، وذلك لأن معظم المنتمين لهذه الأمة بدأ يركن إلى الأسباب المادية، دون النظر إلى ما لله من يد طولى في نصر من نصره؛ مهما كانت إمكانياته المادية متواضعة، وإنزال الذل والبوار والعار والشنار بمن خالف أمره وصد عن سبيله مهما كانت قوته المادية غاية في التطور والفتك بالأعداء، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فها هم الصحابة ومن تبعهم بإحسان قد سطر لهم التاريخ بحروف من نور انتصارات مازالت تدرس في أعظم المدارس العسكرية، بدءاً بموقعة بدر، مروراً باليرموك، وحطين، وعين جالوت، وانتهاءً في العصر الحديث بالعاشر من رمضان.

فهل من نظرة تأمل في ماض تليد مجيد، تجمع شتات النفوس وتبعث فينا الأمل بأن نصر الله قريب، وأنه جل شأنه لا يخذُل من نصره ؟، لذا بحثت فيما ورد عن خير البشر عن مخرج مما نحن فيه، فوجدت أن النَّبيّ ﷺ قد ذكر حديثاً فيه من الدروس والعبر والعظات ما يبعث فينا الأمل، خاصة أنه يحاكي واقعاً

يتشابه إلى حد بعيد مع هذه الأيام الحالكة الظلمة التي نعيشها الآن، وذلك ما ذكره عن قصة أصحاب الأخدود، وحال غلام لا يملك إلا قولة: _ لا إله إلا الله _ يهزم بها أمةً بأسرها، وينصره الله حال حياته من عدوه، وبعد موته على عدوه، ويخلّد بذلك ذكره إلى أن تقوم الساعة.

ولقد وفقني الله - عز وجل - ووجدت في هذه القصة من الدروس ما لم يكن يخطر لي ببال، فنظمتها لك في عقد ثمين، يجدر بك أن تطوّق به عنقك، وتكتب على قلادته: - وقف لله تعالى - .

ورتبتها في هذا الكتاب الذي بين يديك، وقد سميته **[هل أنت الغلام ؟]** ، فإن كنت أنت فبادر إلى ربك ، وليكن شعارك : ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ [طه : ٨٤] .

ولا تتخاذل فيُكتب عليك الذل إلى يوم القيامة.

وقد سِرْتُ مع الحديث كلمة كلمة، وقسمته إلى مراحل، كل مرحلة وقفتُ فيها وقفات، كل وقفة فيها دروس وعبر وعظات، فيها من النفائس ما تقر به عينك، علّي بذلك أكون قد أخرجت لك جوهرك النفيس، وأشرت إلى طريق النصر المنشود ، فهلا اتبعت الإشارة ؟ .

وتجدر الإشارة إلى أني قد وجدت بعض الكتابات لبعض الشيوخ الكرام حول هذا الحديث، وكلٌ أدلى بدلوه لكن من وجهات نظر مختلفة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ / ياسر برهامي في كتاب (قصة أصحاب الأخدود)، والشيخ / سعيد عبد العظيم في كتاب (قصة أصحاب الأخدود)، والأستاذ/رفاعي سرور في كتاب (أصحاب الأخدود)،والشيخ/ محمود المصري في كتاب (قصة أصحاب الأخدود)، ومنهم من بسط في الموضوع ومنهم من اختصر فاستفدت مما كتبوا، وزدت عليه بما فتح الله عليّ .

وهذه بضاعتي مزجاة إليك، وقابعة بين يديك، فمتع فيها ناظريك، واعلم أنها جهد مقل، وعمل بشر يجوز منه الخطأ والنسيان والزلل، فما كان فيها من صواب فهو من توفيق الله -عز وجل- ومنِّه وجوده وكرمه، فتضرع إلى الله -عز وجل- أن يقبله منِّي خالصاً لوجهه الكريم، وما كان فيها من خطأ أو بُعد عن الحق، فهو مني، والله ورسوله ﷺ منه براء، فالجأ معي إلى الله -عز وجل- أن يغفره لي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كتبـــه

سعد سعيد أحمد عبده

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

E.Mail: SaadSaeid@yhoo.com



البَابُ الأَوَّلُ

الباب الأول

قد حاولت في هذا الباب أن أعرض حديث رسول الله ﷺ المروي في صحيح مسلم عن صهيب ثم أُعرِّج بعد ذلك إلى تصور عام حول جو هذا الحديث صفته في قصة على صورة حوار، وإليك:

أولاً : الحديث :

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: " إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر "، فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فأتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: " إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر "، فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: " اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ " فأخذ حجراً فقال: " اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس "، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: " أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى،وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ ".

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: " ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني " فقال: " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك "، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان

يجلس فقال له الملك : " من رد عليك بصرك ؟ " قال : " ربي " ، قال : " أولك رب غيري ؟ " ، قال : " ربي وربك الله " فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام فقال له الملك : " أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ! " فقال : " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى " ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام فقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه " ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : " اللهم اكفينهم بما شئت " ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال الملك : " ما فعل أصحابك ؟ " فقال : " كفانيهم الله تعالى " ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : " اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه " فذهبوا به فقال : " اللهم اكفينهم بما شئت " ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال للملك : " لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به " ، قال : " ما هو ؟ " قال : " تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني " ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال : " بسم الله رب الغلام " ،ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات، فقال الناس : " آمنا برب الغلام " ، فأتى الملك فقيل له : " أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس " ، فأمر بالأخدود بأفواه السكك ، فخُدت وأضرم فيها النيران ، وقال :

" من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها " ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ،فقال لها الغلام : " يا أمه اصبري فإنك على الحق " (١) .

ثانياً: تفاصيل القصة :

إن القارئ لهذا الحديث يجد أن خياله سيصور له أن هذه الأحداث قد وقعت في مدينة كبيرة، أو عدة مدن يحكمها ملك ظالم، قد ادعى الإلوهية من دون الله ، وهذه المدينة محاطة بأسوار ولها مداخل معينة كحال المدن قديماً، وفي نهاية أحد الطرق المؤدية لهذه المدينة يقطن داهية عظيمة وهو ساحر الملك، رجل قد طعن في السن وأصبح قليل الحركة، وعلى أحد جانبي هذا الطريق يوجد راهب في صومعة يتعبد إلى الله ، ولا يعلم بحاله أحد، ويبدو أن هذا الطريق غير حيوي فلا يمر عليه إلا قليل من الناس.

الساحر: لما علم بدنو أجله أرسل إلى الملك فقال له: قد كبر سني ورق عظمي فابعث لي بغلام أعلمه السحر حتى يسيِّر لك شئون دولتك من بعدي.

الملك : وافق مطلب الساحر هوى عنده، فعقد مسابقة بين غلمان المملكة، ليتخير غلاماً ذكياً، نجيباً، أريباً، ووقع الاختيار على غلام متوقد الذكاء، فأرسله إلى الساحر كي يعلمه السحر قائلاً له: يجب أن تتعلم السحر من الساحر لتحل محله إن ألم به مكروه.

بدأ الغلام يتردد على الساحر ليتعلم منه السحر، ولفت انتباه الراهب وهو في صومعته تكرار مرور هذا الغلام من الطريق المؤدية لمقر الساحر ذهاباً وعودة يومياً فأراد أن يستطلع الخبر.

الراهب: حال مرور الغلام على صومعته ذات مرة استوقفه وقال له: إلى أين

(١) رواه الإمام مسلم برقم ٣٧ / ٣٠٠٥ ، وأحمد برقم ٢٣٩٧٦، وابن حبان برقم ٨٧٣ ، ورياض الصالحين برقم ٣٠ ، وكنز العمال برقم ٤٠٤٦٦ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٣١٧ .

تذهب يابني رغم أنه يندر أن يمر أحد من هذا الطريق ؟ .

الغـــلام: إني أذهب إلى الساحر .

الراهب: متعجباً: لما يا بني ؟ .

الغـــلام: فرحاً مسروراً : لأتعلم السحر، حتى إذا مات الساحر أو حدث له ما لا يُحمد عقباه خلفتُه في تسيير أمور المملكة للملك.

الراهب: تنهد في مرارة وأسى ثم قال متسائلاً: فهل لك أن تتعلم ما هو خير لك من السحر؟ .

الغـلام : في استغراب وتعجب وما هو ؟ .

الراهـب: في ثقة ولهفة، أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.

الغـــلام: في استغراب ممزوج بالأسى، وهل هناك إله غير الملك ؟

الراهب: في عز وثقة، نعم الله الذي خلقك، وخلقني، وخلق الملك، وله كل شيء في هذا الكون الفسيح من جمادات وأحياء .

وهنا أُعجِب الغلام بكلام الراهب، واستحوذ على وجدانه؛ فراح يكثر من الاستماع إليه، وسرعان ما تنقضي الأوقات عند الراهب، فإذا ذهب إلى الساحر ضربه لتأخره عنه.

الغـلام: بعد فترة انقطع فيها عن الراهب ذهب إليه في ذعر ورهبة، يتلفت يمنة ويسرة، يكاد أن ينعقد لسانه عن الكلام من الخوف.

الراهب: ما الذي غيبك عني خلال هذه المدة يا بني ؟.

الغـلام: مازال مضطرباً خائفاً: إذا كنتُ عندك أعجبني حديثك فأذهب إلى الساحر متأخراً فيضربني لتأخري عن ميعاده.

الراهب: بعد أن هدَّأ من روعه، واطمأن إلى أن نفسَه قد سكنت، قال له: إن

كنت عندي وسألك الساحر أين كنت ؟ فقل له حبسني أهلي (أخرني أهلي)، وإن سألك أهلك لم تأخرت ؟ فقل حبسني الساحر.

وظل الغلام يتردد على الراهب والساحر فترة من الزمن، حتى شب عن الطوق، وأصبح شاباً ناضجاً؛ يتصارع بداخله الخير والشر، ولكن فطرته السليمة كانت دائماً تميل إلى الخير.

وذات مرة، وهو داخل إلى المدينة، إذ بدابة عظيمة قد وقفت في وسط الطريق، تمنع الناس من المرور، وحاولوا إبعادها بكل وسيلة لكن دون جدوى .

وفي هذه الأثناء، كان الغلام يتمنى أن يخرج من هذا الصراع الرهيب الذي يدور بين جنبيه حتى كاد يمزقه، وفي هذه اللحظة قرر أن يجري اختباراً، فقال لنفسه : اليوم أعلمُ الراهب أفضل، أم الساحر أفضل ؟ .

الغلام: أمسك حجراً ونظر إليه ثم دعا ربه قائلاً : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها.

ففرح الناس بالغلام فرحاً شديداً ومضى كل منهم إلى حال سبيله، وأصبح الغلام حديث المدينة وظن الناس أنه قد بلغ من السحر مداه.

وفي نفس اللحظة تهللت أسارير الغلام، وكاد قلبه أن يرقص بين جنبيه من شدة الفرح، وهنا تيقن أن الراهب على حق، وأن الساحر على باطل، وفي الحال تبرأ من الكفر وأهله، وراح يجري يسابق الريح بساقيه متوجهاً إلى الراهب.

الغلام: يطرق باب صومعة الراهب بعنف أفزع الراهب في الداخل فقام مهرولاً إلى الباب وبمجرد أن فتحه ألقى الغلام رأسه في أحضان الراهب وانخرط في بكاء شديد.

الراهب: في لهفة الأم الحانية على وليدها : ما يبكيك يا بني ؟، أحدث لك مكروه ؟ .

الغلام: إنها دموع الفرح فقد استبان لي الحق وتأكدت من ضلال الساحر.

الراهب: في لهفة، كيف ؟ .

الغلام: وبدأ وجهه يتهلل، وقد استنارت قسماته بابتسامة وضيئة، راح في فرح شديد يقص على الراهب ما حدث مع الدابة، قائلاً له: لقد تأكدت من ضلال الساحر،وأنك على الحق، وأن ما دعوتني إليه وعلمتنيه هو ما يرضى ربنا .

الراهب: الذي عرف أن لله سنناً كونية ومنها أنه من سار في طريق الحق لابد وأن يبتلى، أطرق إلى الأرض وعلت وجهه مسحة من الخوف الفطري المشوب بالقلق والحذر : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ .

ولم يقل الراهب هذا الكلام خوفاً من العذاب، ولكن خشية الفتنة، فقد كبر في السن، وظن أنه لن يحتمل العذاب.

ثم شاع أمر الغلام بين الناس، وأصبح ملاذ كل ملهوف، فكان يبرئ الأكمه، والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء بإذن الله تعالى، وكان أثناء ذلك ينشر دعوته بين الناس، لأنه كان يُعْلِم كل من جاءه باحثاً عن الشفاء أن الشفاء بيد الله إن آمن به.

وكان هناك جليس للملك (وزيراً) ومن خاصته المقربين قد كُف بصره ، فأتى الغلام محوطاً بحاشية من الجند المحملين بهدايا كثيرة، ودخل على الغلام.

جليس الملك: متوجهاً بحديثه لحاشيته: ضعوا ما في أيديكم ثم انصرفوا خارج الدار حتى أخرج إليكم.

جليس الملك: بعدما تأكد من خروج جنده توجه للغلام في استعلاء، وبنبرة فيها من الأمر المحوط بالمن والعطاء، تحفيزاً للغلام للقيام بما سيأمره به على خير وجه، قائلاً: ما هاهنا من الهدايا لك جميعها إن أنت شفيتني .

الغلام: في تواضع العارف بقدر نفسه، الناسب الفضل لربه، إني لا أشفي أحداً.

جليس الملك: انتبه للغلام انتباه المتحير بين ما سمعه من الناس وما يسمعه من الغلام، وقبل أن يتكلم، عاجله الغلام.

الغلام: إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك.

جليس الملك: متعجباً مذهولاً، أهناك إله غير الملك !؟

الغلام: ربي وربك ورب الملك هو الله .

وبعد مناقشات لم تطل آمن جليس الملك فدعا له الغلام فرد الله عليه بصره.

ثم ذهب جليس الملك ليجلس كعادته مع الملك ولكن في هذه المرة دخل على الملك بغير قائد يقوده وبخطى ثابتة دون أن يرتطم بشيء من الأثاث، فتعجب الملك في ذهول ودهشة.

الملك: في دهشة : من رد عليك بصرك ! ؟

جليس الملك: رد في لهجة الواثق في الله قائلاً: ربي.

الملك : بعد أن زادت دهشته، وبدا على وجهه الحنق، أولك رب غيري ؟!.

جليس الملك: في ثقة الواثق بربه :ربي وربك الله.

الملك: قطب جبينه ونادى مزمجراً في أعوانه : خذوه لأعرف مصدر ما يهزي به من كلام.

فأخذوا جليس الملك يجرونه في مهانة بعد أن كان الكبير المطاع فلم يزل الملك يعذبه حتى يعرف منه من الذي أفسده عليه وجعله يؤمن بالله .

جليس الملك: بعد أن خارت قواه من شدة التعذيب اعترف متوجعاً: غلام الساحر هو الذي كان سبباً في رد بصرى، وسبباً في هدايتي إلى ربي .

الملك : في حنق وغيظ أما زلت تقول ربك ؟ .

ثم التفت إلى أعوانه في غضب ائتوني بالغلام فوراً .

فراحت حاشية الملك تفتش عن الغلام في كل مكان حتى عثروا عليه فجاءوا به مكبلاً في قيوده هذا يدفعه وهذا يجره حتى أوقفوه بين يدي الملك .

الملك: للغلام في مكرٍ ودهاء : أي بني قد بلغ من سحرك أنك تستطيع أن تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ! .

الغلام: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى .

وهنا ثارت ثائرة الملك فأخذه الملك فلم يزل يعذبه ليعرف منه من الذي أفسده عليه وجعله يؤمن بالله .

الغلام: مع شدة التعذيب والتنكيل خرجت الكلمات من فمه كطفل يخرج بين أنين مخاض أمه، واعترف الغلام ودل على الراهب .

الملك لأعوانه : أريد هذا الراهب الآن .

فخرج الزبانية يجوبون الأرض شرقاً وغرباً حتى عثروا عليه فأتوا به يجرونه في قيوده حتى أوقفوه بين يدي الملك .

الملك للراهب: آمراً له في غضب : ارجع عن دينك .

الراهب: في إباء وعز : لن أرجع عن ديني .

الملك لأعوانه : خذوه فاحفروا له حفرة في الأرض وأدخلوا فيها قدميه وأهيلوا عليهما التراب وعذبوه حتى يرجع عن دينه ، فحفروا له حفرة وأدخلوا فيها قدميه وقاموا بتعذيبه ، ولكنه ثابت مثل الجبل الأشم .

الملك لأعوانه : وهو يتعجب من ثبات الراهب، مشطوه بأمشاط من حديد تنزع لحمه من عظمه .

فقام أعوان السوء بتنفيذ الأمر خير قيام، ولكنه ما زال لسانه يلهج بذكر الله.

الملك: شقوه بالمنشار من مفرق رأسه حتى يريحنا من هذا الهراء. فوضعوا المنشار في منتصف رأسه ونشروه حتى وقع شقاه وهو يلهج بذكر الله.

الملك لجليسه : آمراً إياه بعد ما فعله بالراهب أمامه، ارجع عن دينك.

جليس الملك : لن أرجع عن ديني مهما فعلت.

الملك أمر أعوانه ففعلوا به مثلما فعلوا بالراهب وما تركوه إلا نصفين، ولسانه أيضاً يلهج بذكر الله .

الملك للغلام: ارجع عن دينك.

الغلام: لن أرجع عن ديني مهما فعلت.

الملك: وهو يقرض على أنيابه يتلمظ غيظاً، متوجهاً لنفر من حاشيته قائلاً لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فاعرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رفض فألقوه من قمة الجبل.

وبالفعل أخذ زبانية الملك الغلام وصعدوا به قمة الجبل يسوقونه كسوق الأنعام يرسف في قيوده، يعرضون عليه أن يرجع عن دينه.

الغلام: في هذه اللحظة يرفع الغلام أكف الضراعة إلى الله - عز وجل - داعياً ومستجيراً قائلاً: اللهم اكفينهم بما شئت.

فارتجف الجبل واهتز هزة عنيفة فسقطوا جميعاً وحُفظ الغلام بعناية الله .

ورغم ذلك ما فكر الغلام أن يهرب من الملك رغم علمه أنه مُصِّر على قتله ولكنه رجع إليه مرة أخرى.

الملك: مندهشاً من عودته وحده: أين رجالي الذين كانوا معك ؟ .

الغلام: في هدوء وثقة، كفانيهم الله تعالى.

الملك يتلمظ غيظاً ويقرض على أنيابه فيأمر نفراً من حاشيته قائلاً لهم: اذهبوا به فاحملوه في سفينة كبيرة فإذا كنتم في وسط البحر اعرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رفض اقذفوه في البحر.

وبالفعل أخذه أعوان الملك وركبوا به سفينة ولم يتعظوا بما فُعل بمن سبقوهم وعندما توسطوا به البحر عرضوا عليه أن يرجع عن دينه.

الغلام: التجأ إلى الله قائلاً: اللهم أكفينهم بما شئت.

وتتجلى عناية رب السماء فتنقلب السفينة ويغرق كل من فيها إلا الغلام جاء يمشي مرة أخرى إلى الملك وحده فدخل عليه.

الملك جُن جنونه، وثار، وأرغى، وأزبد، قائلاً له: سأتولى أمر قتلك بنفسي.

وحاول مرات ولكنه فشل حتى أُسقط في يده.

الغلام للملك: في ثقه وكبرياء المنتصر المحاط بعناية الله: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به.

الملك: في لهفة : ما هو ؟ .

الغلام: اجمع الناس في صعيد واحد، ثم اصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل بأعلى صوتك بسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتني.

الملك: في فرح شديد وما حاول لحظة واحدة أن يفكر في العواقب ولكن كانت كل غايته أن يتخلص من هذا الغلام ليحافظ على ملكه ومملكته فأعد العدة وأمر بالنفير في حاشيته: اجمعوا الناس في أرض واسعة.

ونادى المنادي في الناس: أن اجتمعوا من الصباح في الساحة الكبري في المدينة، لا يتخلف أحدٌ، صغيراً كان أم كبيراً، طفلاً أم شيخاً، رجلاً أم امرأة.

الملك : لما اجتمع الناس صلب الغلام إلى جذع ثم أخذ سهماً من كنانة الغلام ووضع السهم في كبد القوس وجأر بأعلى صوته قائلاً : بسم الله رب الغلام. وطاش السهم من شدة ارتباكه فجاء في صدغ الغلام ، وعجباً قد مات الغلام !

وما يلبث أن تتهلل أسارير الملك لموت الغلام حتى يسمع صيحات الناس من خلفه : آمنا برب الغلام، فدارت الدنيا من حوله، وجاءه رؤوس الشر من أعوانه وقالوا له : وقع ما كنت تحذر فقد آمن الناس.

الملك : هاج وماج وقال لحاشيته احفروا حفراً عظيمة في الطرق الرئيسية وأضرموا فيها ناراً، ومن لم يرجع عن دينه اجعلوه يقتحم النيران فإن أبى فأقحموه فيها.

وقام أعوان الملك بالأمر خير قيام، فشقوا الأخاديد في الأرض وأشعلوا فيها ناراً عظيمة، وأخرجوا الناس من بيوتهم، وكلما علموا أن واحداً منهم آمن بالله قالوا له : ارجع عن دينك، فإن أبى، قالوا له ألق بنفسك في النار، فإن تراجع عن دينه تركوه وإن تمسك بدينه ألقوه فيها، حتى جاءت امرأة ومعها طفل رضيع، فراحت لتُلقي بنفسها في النار فأخذتها الشفقة على وليدها عندما لفحها حر النار فتراجعت قليلاً، فإذا بالطفل ينطق : يا أمه اصبري فإنك على الحق.

فألقت بنفسها في النار هي وطفلها فكانت برداً وسلاماً على من أُلقى فيها بإذن الله ـ عز وجل ـ .



البَابُ الثَّانِي

المرحلـة الأولـى

البداية



الوقفة الأولى

[كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر] .

الدرس الأول: ترك فضول الكلام :

فضول الكلام هو الزيادة في الكلام التي لا فائدة منها .

يقول الشيخ وحيد عبد السلام:

وهو الزيادة التي لا فائدة من ورائها، فإذا أدى مقصوده بكلمة فذكر كلمتين فالثانية فضول، قال تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[النساء : ١١٤] .

وعن ركب المصري مرفوعاً: " طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله " رواه البيهقي، وحسنه ابن عبد البر. وركب فيه خلاف، قال البغوى: " لا أدري أسمع من النَّبيّ ﷺ أم لا " .

وقال ابن مسعود: " أنذركم فضول كلامكم، حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته "

وقال مجاهد: "إن الكلام ليُكتب، حتى إن الرجل ليُسكِت ابنه فيقول له : سأشتري لك كذا وكذا، فيكتب كذباً" .

وقال إبراهيم التيمى: " إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر، فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً" (١) .

قال ابن القيم: وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها

(١) وقاية الإنسان من الجن والشيطان ص ٢٦٢ .

مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة (١).

وها هو النَّبيّ ﷺ يضرب هنا أروع الأمثلة في التورع عن فضول الكلام.

فقد ذكر الفائدة دون التعرض لتفاصيل العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر، فقال كان ملك فيمن كان قبلكم، ولم يذكر اسم هذا الملك، ولا في أي زمان كان، ولا في أي البلاد وقعت هذه القصة، ولكنه عمد إلى سرد الوقائع الهامة ذات الدلالة في القصة، وأعرض عن التفاصيل التي لا يترتب على معرفتها عمل.

وفي ذلك درس للمتكلم والمستمع :

فعلى المتكلم ألا يكثر من الثرثرة بما لا يفيد، وعليه أن يذكر ما يدل على المطلوب بأقل لفظ، وأوضح عبارة، فمن الناس من إذا سألته أين كنت ؟ سرد لك قصة طويلة، فقد خرج من البيت ساعة كذا، وقابله فلان، وركب سيارة كذا، وكان سائقها يفعل كذا وكذا، ووصل إلى مكان كذا، ويظل يسرد تفاصيلاً لا طائل من سردها، ثم يختتم كلامه ببيت القصيد قائلاً: وكنت ذاهباً لمقابلة فلان ولم أجده، وفي النهاية ينتبه إلى أن السائل قد نام أثناء الكلام ! .

وعلى المستمع أن لا يسأل عما لا يفيد، ولا يترتب عليه عمل، أو جزاء أو عقاب، فمن الناس من يسأل حال الكلام عن قصة نوح و ما اسم زوجته ؟ ، ومنهم من إذا ذكرت قصة أهل الكهف سألك عن اسم الكلب ! والأمثلة تنأى عن الحصر. وهذا من المراء المنهي عنه.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان**

(١) بدائع الفوائد ٣ / ٥٠٣ .

مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » (١) .

قال الإمام الغزالي - رحمه الله - : وحد المراء هو : كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم (٢) .

فالمراء هو صرف المتحدث عن أصل حديثه بما لا يفيد، وهذا ما حدث مع النبيّ ﷺ عندما ذكر قصة أهل الكهف سأله المشركون عن عددهم، هو يذكرها لهم ليعتبروا بما حدث لهم، وببعثهم ونشورهم بعد نوم طال زمناً حتى صار كالموت، ولكنهم ما اقشعر جلدهم من عظم آيات الله ، وراحوا يسألون عن عددهم فحذره ربه من الانسياق وراءهم فقال : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)** ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فما أجاب على سؤالهم تصريحاً ولكن ألمح لهم بالإجابة عسى أن يهتدي إليها منهم أحد (٣) .

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود برقم ٤٨٠٠ ، والطبراني في الكبير برقم ٧٤٨٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٨٠١٧ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٤٦٤ ، وصححه النووي في رياض الصالحين ٣٦٥ .

(٢) الإحياء ٣ / ٧٥ ، ووقاية الإنسان ص ٢٦٥ .

(٣) إن المدقق في ألفاظ هذه الآية يجد أن الله قد ذكر عددهم تلميحاً بغير تصريح فقد عرض - عز وجل - أقوالهم في عدد أصحاب الكهف بأسلوب رفيع، وأتبع كل قول بتعليق دقيق ، فمن فهم هذا العرض وهذه التعليقات اهتدى لعددهم، وإليك البيان فقد قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾ فهو جل شأنه يتكلم عن أهل الكهف وهم أولياؤه وأصفياؤه، وفي هذا الذي قالوه تنقيص لهم، لأن إضافة الكلب للعدد في المرتين تنقيص، لأنهم لما جعلوا الكلب في جملة عددهم، جعلوهم والكلب في منزلة واحدة، ولما كان هذا الكلام لا يليق بأوليائه عقب قائلاً : ﴿ **رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾ ومعنى ذلك أن عددهم لم يكن ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة، ثم قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ فذكروا عددهم، وعطفوا الكلب عليهم بحرف الواو التي يقول عنها بعض العلماء : هي واو الثمانية، وهنا استخدمت هذه الواو للفصل بين جنس أولياء الله ، وجنس الكلب تنزيهاً لهم، ورفعة للكلب لما صحبهم، ولذلك عقب جل شأنه على هذا الكلام بقوله : ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ وفي هذا التعقيب إشعار ضمني بالرضا بهذا القول، وبهذا يعلم الفطن اللبيب أن عددهم سبعة، وليسوا بثمانية .

همسة:

أهمس في أذن كل داعية إلى الله - عز وجل - ألا ينساق حال كلامه خلف الممارين، فإذا اعترضه أحدهم بسؤال، فمن الوجاهة ألا يدع صلب كلامه وينعطف خلفه في منعطفات مظلمة، ومنها أيضاً ألا يرد عليه بإجابة صريحة، ولكن يُعرِّض له بكلام فيه الإجابة، ويدعه يفكر فيها، عل ذهنه الخامل أن يتوقد، لعل سطحيته أن تتحول إلى النظر في دقيق العلم، والله الموفق.

لطيفة:

معظم العلماء فسر المراء بالجدال والجدال بالمراء في مواطن كثيرة، ولكن هناك فارقاً بينهما ألا وهو: المراء كما سبق تعريفه هو صرف المتحدث عن أصل حديثه بما لا يفيد.

أما الجدال فقد عرفه الإمام ابن الأثير فقال: الجدَل: مُقابَلة الحُجَّة بالحجَّة. والمُجَادَلَةُ: المُناظَرَةُ والمخاصَمة (١).

فالجدل يكون بين اثنين لكل منهما حجته، وكل منهما متمسك بما لديه، ولا يقبل وجهة نظر الآخر، وحال تقارعهما بالحجة كحال من يفتل حبلاً له طرفان، كل منهما يلتف حول الآخر ليحتويه؛ ولذلك قال ابن منظور في لسان العرب: الجَدْل: شِدَّة الفَتْل. وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلاً إذا شددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلاً مُحْكَماً؛ ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل (٢).

والجدال نوعان:

الأول: يكون بين اثنين كلاهما على باطل، أو فيما لا يفيد، كالجدل في أهل الفن، واللعب، أو في القيل والقال، وما لا طائل من الكلام فيه، وهذا لا

(١) النهاية في غريب الحديث ١ / ٧٠٧.
(٢) لسان العرب ١١ / ١٠٣.

يجوز وقد يحرم بحسب موضوع الجدال، وأسلوبه، والألفاظ المستخدمة.

الثاني: يكون بين اثنين أحدهما على حق والآخر على باطل، فمن كان على الحق إن رأى أن الآخر يقبل الحق جادله وأقام له الحجة والبرهان لقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإن كان ممن لا يقبل الحق فترك الكلام معه أولى.

والمراء أيضاً على درجتين:

الأولى: أن يكون المعترض غرضه إحراج المتكلم، ومنعه من مواصلة حديثه، فهذا لا يُلتفت إليه، ولا يجوز الرد على سؤاله، وترك الكلام معه أولى كما في الحديث، لأن الرد سيكون انتصاراً للنفس.

والثانية: أن يكون عن ضعف علم، وقلة إدراك، وهذا يُتَّبع معه ما سبق بيانه، وهذا هو المراء الظاهر الذي دل الله ـ عز وجل ـ عليه النَّبيّ ﷺ حيث قال له: ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ [الكهف: ٢٢]. والله أعلم.

الدرس الثاني: البطانة:

ما من أحد يتولى أمراً من أمور السلطان؛ في أي مكان أو زمان إلا قيض الله له بطانة، هم وزراؤه ومستشاروه، الذين يرجع إليهم ليستشيرهم في تسيير شئون سلطانه.

وسماهم الله ـ عز وجل ـ: (الملأ).

يقول ابن منظور: والمَلأُ: الرُّؤَساءُ، سُمُّوا بذلك لأَنهم مِلاءٌ بما يُحتاج إليه، والمَلأُ، مهموز مقصور: الجماعة، وقيل أَشْرافُ القوم ووجُوهُهم (أي: وجهاؤهم) ورؤَساؤهم ومُقَدَّمُوهم، الذين يُرْجَع إلى قولهم (١).

(١) لسان العرب ١ / ١٦٠.

ويقول الراغب الأصفهاني : الملأ : جماعة يجتمعون على رأي ، فملؤون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾[البقرة : ٢٤٦] (١) .

وهذه البطانة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: يحضه على الخير ومرضاة الله - عز وجل - .

والثاني: يدفعه إلى الشر ومعصية الله - عز وجل - .

والسعيد من وفقه الله لمشورة القسم الأول، ووقاه شر القسم الثاني ، والشقي من وكله الله إلى القسم الثاني ، وبغض إليه القسم الأول، ليذوق وبال أمره.

فقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال : «**إن الله لم يبعث نبيًا ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً ومن يوق بطانة السوء فقد وُقي** » (٢) .

وهذا التوفيق إلى إحدى البطانيتين متوقف على طريقة وصوله إلى سلطانه فإن وصل إليه بصالح عمله وتزكية غيره له وبدون طلبه ، أو السعي إليه وفقه الله إلى البطانة الأولى وأعانه على تسيير سلطانه إلى ما يحبه ويرضاه.

أما إن سعى إلى الحصول على السلطان وخطط ودبر للحصول على هذا المنصب وكَّله الله - عز وجل - إلى ما سعى إليه وسلط عليه بطانة السوء وذلك لما ورد عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال: قال لي النَّبيّ ﷺ : «**يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها**

(١) مفردات القرآن ١ / ٦١٢ .

(٢) الترمذي برقم ٢٣٦٩ وقال حديث حسن صحيح غريب، والنسائي برقم ٤٢٠٣ ، وأحمد برقم ٧٢٣٨ وقال الأرنؤوط صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان برقم ٦١٩١ ، والطبراني في الأوسط برقم ٢٩٦٧ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٠١٠٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٦٤١ ، وفي صحيح الجامع برقم ١٨٠٥

خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأت الذي هو خير » (١) .

فتوفيق الله له أو إيكاله إياه مترتب على إجابة سؤال مهم ألا وهو: هل سعى إلى السلطة أم سعت هي إليه ؟ .

والسعي إلى السلطة يكون بالتخطيط، والتدبير، والعمل، أو حتى بالتمني، فالأماني قد تدفع الإنسان إلى ما لا يُحمد عقباه.

شبهة وردها :

يحتج البعض على طلب السلطان بقول يوسف عليه السلام لملك مصر: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (٥٥) ﴾ [يوسف: ٥٥] . وقالوا: لقد طلب يوسف عليه السلام السلطان.

وإن الناظر بعين الاعتبار ليجد أن الأمر خلاف ما توهموا فقد قال الله على لسان الملك: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** (٥٤) ﴾ [يوسف: ٥٤] .

أي أن الملك لما رأى من شدة أمانته استدعاه لاصطفائه فلما حضر عليه السلام عرض الملك الوزارة عليه وفتح أمامه الباب على مصراعيه وقال له: ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾، ومعنى ذلك أن الوزارة قد جاءت ليوسف عليه السلام وهي راغمة وما خطر بباله لحظة أن الملك يستدعيه ليجعله وزيراً، ومن أمانة يوسف عليه السلام أنه عرض على الملك أن يجعله وزيراً للخزانة لأنه متصف بالحفظ والعلم وهاتان صفتان تؤهلانه لشغل هذا المنصب دون غيره: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (٥٥) ﴾ [يوسف: ٥٥] .

ونخلص من ذلك إلى أن السلطة سعت ليوسف عليه السلام ولم يسع هو إليها

---

(١) البخاري برقم ٦٢٤٨، ٦٣٤٣، ٦٧٢٧، ٦٧٢٨، ومسلم برقم ١٩ / ١٦٥٢، والترمذي برقم ١٥٢٩، والنسائي برقم ٥٣٨٤، وأحمد برقم ٢٠٦٣٧، وابن حبان برقم ٤٣٤٨، ورياض الصالحين برقم ٦٧٤.

ولكنه أرشد الملك إلى ما فيه مصلحة البلاد والعباد وكان أن وفقه الله وعبر بالبلاد إلى بر الرشاد حين حلت الأزمة طوال سبع سنين عجاف ، والله تعالى أعلم.

والبطانة الصالحة ليس لها هدف إلا تعبيد الناس لله وتحكيم شرع الله في رقاب الرعية فهم يريدون صلاح الأمة في الدنيا والآخرة.

أما بطانة السوء فيهمها في المقام الأول المصلحة الشخصية وإبعاد الناس عن دين الله ، فبالدين ينمو العقل ويتبين للناس الفاضل والمفضول لأن الحق أبلج أوضح من شمس النهار ، فهم دائماً يحاولون إبعاد الناس عن دين الله - عز وجل - بشتى السبل ومن ثم تستقر بهم الكراسي ، فكراسيهم أحب إليهم من الله ورسوله ﷺ .

وتسلك بطانة السوء في كل زمان ومكان أساليب شتى للوصول لأغراضها الخبيثة، من أهم مسالكهم مسلكين ذكرهما الله - عز وجل - يصف بطانة فرعون - عليه من الله - عز وجل - ما يستحق - وهم السحرة فقال فيهم جل في علاه: ﴿ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف : ١١٦] .

ففي هذه الآية يوضح الله - عز وجل - هذين المسلكين وهما: الأول : قلب الحقائق ، والثاني: إرهاب الرعية، وإليك تفصيل هذين المسلكين في ضوء الكتاب والسُّنَّة المطهرة.

المسلك الأول : قلب الحقائق :

يقول الله - عز وجل - في هذا الشأن : ﴿ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** ﴾ .

أي أنهم ملكوا حواسهم وقلبوا لهم الحق باطلاً والباطل حقاً، وفي ذلك الزمان الغابر استخدموا السحر الحقيقي في تضليل الناس، أما في هذا الزمان فاستُخدِم نوعٌ آخر من السحر ألا وهو سحر البيان، فللكلام ونظمه ورونقه ورصانته في النفوس تأثير لا يقل بحال عن تأثير السحر في الأجساد؛ ولذلك

ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ :«**إن من البيان لسحراً ـ أو ـ إن بعض البيان لسحر**» (١) .

المسلك الثاني : إرهاب الرعية :

هذا المسلك أشار إليه رب العزة في الآية السابقة حين قال :﴿ **وَاسْتَرْهَبُوهُمْ** ﴾ ويلجأون إليه حال تيقنهم أن المسلك الأول عديم الجدوى، ولا يستخدمونه مع كل الناس، ولكن يستخدمونه مع فئة معينة منهم؛ ألا وهم الدعاة إلى الحق، وفيه يتبعون أساليب شتى؛ للوصول إلى غايتهم المنشودة؛ بأن ينساق الناس خلفهم، مذعنين، طائعين، خائفين،لا يلوون على شيء، ومن أهم هذه الأساليب ما يلي :

[١] الاحتواء :

حتى لا يقوم الدعاة بتأليب الناس على مناهج البطانة العفنة، تحاول بطانة السوء في أول الأمر أن تحتوي الدعاة والمصلحين لينضموا تحت رايتهم، ولهم في ذلك طريقتين :

الأولى: الإيثار بالجميل :

في بداية الأمر تلطف فرعون مع موسى عليه السلام قائلاً له ممتناً عليه : ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)**﴾ [العشراء : ١٨ ـ ١٩] ، وهذا من باب الإيثار بالجميل، فلسان حاله يقول : هل ترد الإحسان بالإساءة ؟ ، فقد ربيتك في بيتي عمراً مديداً، تنعمت فيه بشتى أنواع النعيم ، بل الأكثر من ذلك أنك قتلت نفساً ثم رجعت إلينا فلم نقتص منك وأبقيناك حياً ، ثم تأتي الآن لتطعنني في ظهري وتُقيِّض ملكي بدلاً من أن تعترف بجميل صنعي إليك .

(١) البخاري برقم ٤٨٥١ ، ٥٤٣٤ ، ومسلم برقم ٤٧ / ١٦٩ ، والترمذي برقم ٢٠٩٧ وأبو داود برقم ٥٠٠٧ .

فمن كانت دعوته لله ـ عز وجل ـ لا تنطلي عليه مثل تلك الحيل، ويمضي في طريقه لا يهزه اللعب بالمشاعر والأحاسيس، أما من كانت دعوته لغرض دنيوي ينساق وراءهم حتى يُهلكوه في الدنيا ويقحموه في نار جهنم في الآخرة.

الثانية : إضفاء الشرعية :

فإن لم تفلح الطريقة الأولى يصفون طريقته بأنها نفس طريقتهم؛ حتى يشككوه في نفسه أولاً، ويشككوا الناس فيه ثانياً، فها هو الملك يقول للغلام: "أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل !" ، رغم أن الملك يعلم جيداً أن ما جاء به الغلام ليس بسحر، إلا أنه يريد أن يوهم الغلام بأن الطريق واحد، وقد يكون الاختلاف ظاهرياً، فلا داعي لتأليب الناس، وإفساد المملكة، وتهييج الرعية، فإن أقر الغلام ضاع، وضاعت الرعية، وإن تمسك بالحق انتقل أهل الضلال إلى المسلك التالي :

[٢] الاتهــام :

لما لم تفلح الطرق السلمية في رد الدعاة والمصلحين إلى حظيرة الفساد؛ تبدأ بطانة السوء في الكشف عن وجهها القبيح، فتعمل على تلويث سمعتهم؛ بأن يتهمونهم بأشنع تهم، ويصفونهم بأسوأ صفات،ويسبونهم بأقذع سباب،حتى ينفض الناس من حولهم،ومن أهم الاتهامات التي كانوا يتهمون بها أهل الحق ما يلي:

﴿ أ ﴾ السحر :

غريب أمر أهل الباطل في كل زمان ومكان، فرغم أن فرعون يسيِّر ملكه بالسحر ، إلا أنه يصف من يقف على الجهة المقابلة له بالسحر ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)**﴾ [الشعراء : ٣٤] ، وفي هذا دلالة على شناعة السحر حتى بالنسبة للذين يتعاطونه، والعجيب أن بطانته تردد نفس الكلام: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)** ﴾ [الأعراف : ١٠٩] ، وفي ذلك

تنزيه لأنفسهم عن القيام بأعمال السحر، واتهام موسى عليه السلام به، لعلمهم أن النفوس تقبِّح السحر وتبغض السحرة، ولكن لما علموا أن الناس قد فطنوا إلى أن موسى عليه السلام ليس بساحر بدأوا يتهمونه بما هو أعظم من السحر ألا وهو:

﴿ ب ﴾ الجنون :

فتوجه فرعون إلى الرعية: ﴿ **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** (٢٧) ﴾ [الشعراء : ٢٧] ، ويا لها من تهمة، فليس بعد ذهاب العقل بقاء للإنسان، فبه كرمَّه الله ـ عز وجل ـ وفضَّله على العالمين، فسلبه فرعون أعز ما يملك أمام العامة حتى لا يتبعوه، ولكن لما رأى أن الناس لا تنطلي عليهم تلك التهمة السمجة تحول إلى تهمة أخرى ألا وهي:

﴿ جـ ﴾ المقارنة التنقيصية :

ذكر أهل التفسير أن موسى عليه السلام في بداية حياته تناول جمرة في فمه فأثرت على طلاقة لسانه؛ ولذلك طلب من ربه ـ عز وجل ـ أن يرسل معه أخاه هارون قائلاً: ﴿ **وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** (٣٤) ﴾ [القصص: ٣٤] ، فاستغل فرعون هذا العيب ـ من وجهة نظره ـ وبدأ يعقد مقارنة بينه وبين موسى عليه السلام للعامة حتى يتخيروا من يتبعون فقال لهم: ﴿ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ** (٥٢) ﴾ [الزخرف : ٥٢] ، فالسذج آثروا فرعون وما له من صفات كريمة على موسى عليه السلام وما به من صفات مهينة ـ من وجهة نظرهم ـ فوقعوا في شراك فرعون وكانوا من حزبه .

وما أكثر التُهم التي يُتهم بها أهل الحق في كل زمان ومكان، فلكل زمان ما يناسبه من تهم تتماشى مع طبيعة العصر، وأهواء أهل الباطل، ووعي العامة، فوصفوا في زماننا بأنهم إرهابيون متطرفون متزمتون رجعيون ظلاميون.

وأما ذوو العقول الراجحة اتبعوا موسى عليه السلام فانتقلوا بهم إلى المسلك التالي:

[٣] التهييـــج :

هناك حكمة عند أهل الباطل تقول : " من لم تستطع أن تقتله وهو يقظ ، انتظره حتى ينام، ومن لم تستطع أن تضربه بعصاك فاضربه بعصا غيرك" وهذا ما فعله فرعون مع موسى عليه السلام وأتباعه، فرغم كل ما فعله مما سقته إليك إلا أن أتباع موسى عليه السلام يزيدون، فحاول أن يزرع الفتنة بينه وبين الناس ﴿ **قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)** ﴾ [الشعراء : ٣٤ ـ ٣٥] ، فالناس بطبعهم يحبون الاستقرار والسكينة، ورغد العيش، ويكرهون من يحاول أن يمس استقرارهم، ويضيق عليهم معايشهم، فلعب فرعون على هذا الوتر، وقال لهم : إن موسى عليه السلام يريد أن يخرجكم من أرضكم، ويشرد أبناءكم، فهو عدوكم الأول، ولابد من الخلاص منه، فماذا تأمروني أن أفعل به ؟ .

وهذه المشورة يستفيد منها فرعون بجملة أمور هي:

- يُشعر الناس بأن موسى عليه السلام عدوهم الأول فهو ساحر يخطط لإخراجهم من ديارهم.
- بهذه المقدمة يريد فرعون أن يستخلص منهم أقسى أنواع العقاب لموسى عليه السلام ومن معه.
- يُشعر الناس بأنه لا يفعل إلا ما يرضيهم، وفي هذا رفعة لشأنهم واستمالة لقلوبهم.
- أنه لن يجد له معارض إذا تخلص من موسى عليه السلام .

ولابد أنه قد استمال السذج من الناس؛ الذين هم في حقيقة الأمر همج رعاع ؛ يتبعون كل ناعق، ولكن نبرة الحوار قد ازدادت سخونة، فبعدما كانت مجرد استمالة، ثم تقبيح، دخلت مرحلةً جديدةً؛ ألا وهي التلويح بالعنف واستخدامه لحسم الموقف.

[٤] التهديـــد :

بدأ فرعون يخرج من عباءة الوقار، وبدأ يرغى، ويزبد، ويتوعد كل من اتبع موسى عليه السلام بالويل والثبور، وعظائم الأمور، فبعدما آمن السحرة قال لهم على سبيل التهديد :﴿ **لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)** ﴾ [الأعراف : ١٢٤] .

وذلك ليتراجعوا عن دينهم، فهناك نفوس ضعيفة قد تتراجع لمظنة وقوع التهديد؛ وهذا من سوء الظن بالله ، ولكن السحرة لما علموا الحقيقة تمسكوا بربهم؛ وما رضوا بغيره بديلاً فـ : ﴿ **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)** ﴾ [طه : ٧٢ ـ ٧٣] .

[٥] السجـــن :

بدأ فرعون يصعِّد من لهجة التهديد مع موسى عليه السلام ، ويظهر خبث ما يدعو إليه فـ﴿ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)** ﴾ [الشعراء : ٢٩] وأظهر ما كان يخفيه في بادىء الأمر؛ من اختلاف في المنهج، وصرح بأن موسى عليه السلام ، يدعو إلى اتخاذ إله غيره ولو تمادى في ذلك فسيكون مآله السجن.

[٦] التعذيب :

وهو أمر واضح على مر العصور والدهور، فما من داعية يدعو إلى الله على بصيرة إلا وتفنن أهل الباطل في أن يذيقوه صنوفاً من ألوان العذاب حتى يردوه إلى باطلهم، والقصة التي بين أيدينا أوضح مثال على ذلك فها هو جليس الملك يحفر له الحفرة ويدفن إلى منتصفه فيها ثم يمشط بأمشاط من حديد ويُشق بالمنشار نصفين، وكذلك فُعل بالراهب ولكن الإيمان كان في قلبيهما أثبت من

الجبال الرواسي فنالا بذلك رضى الله ـ عز وجل ـ في الدنيا والآخرة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد عُذِّب أشد العذاب وأُوذي هو وأصحابه ولو تتبعنا ما جرى لهم مع أهل الضلال لما وسعنا مجلدات، وكذلك في سير التابعين وتابعيهم بإحسان مواقف حافلة بين أهل الحق وأهل الباطل بذل فيها أهل الحق النفس والنفيس ثمناً زهيداً لإعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ فنصرهم الله على عدوه وعدوهم في الدنيا والآخرة.

[٧] التحطيم النفسي :

ويكون ذلك بإذلال أهل الداعية إلى الله وتعذيبهم؛ حتى يصل الأمر في بعض الأحيان إلى قتلهم أمام عينيه ليرجع عن دينه شفقة عليهم من التعذيب والقتل، وها هو فرعون يلجأ هو وبطانته إلى هذه الطريقة حيث يقول الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** (١٢٧) ﴾ [الأعراف : ١٢٧] .

وقال أيضاً: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** (٢٥) ﴾ [غافر :٢٥] .

وفي هذه الطريقة فوائد لأهل الباطل من أهمها:

[١] ألا يحاول أحد من أهل الداعية أن يتمثل به أو يفعل مثله.

[٢] عل هذه الطريقة أن تثني الداعية عن وجهته خوفاً على ذويه وقرابته.

[٣] قطع الصلة بين الدعاة ومن لم تثبت قدمه على الحق لأنه يخشى أن يحصل له ما حصل للداعية وأهله.

[٨] التصفية الجسدية :

وهذه لا يلجأ إليها أهل الطغيان إلا بعد استفراغ الجهد فيما سبق من وسائل

ليس حرصاً منهم على حياة الدعاة ولكن لأمرين ،الأول : خوفهم من هياج أتباع الدعاة عليهم فيقع ما لا يُحمد عقباه، والثاني : في اثناء الداعية عن دعوته مكسب عظيم أعظم من موته على دعوته فرجوعه وتخاذله موت لدعوته واندثار لأتباعه أما في موته على ما دعا إليه حياة لأتباعه،ومن ثم دعوته من بعده، ولذلك لم يُصرح فرعون بقتل موسى عليه السلام ولكنه لوح بذلك ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ [غافر :٢٥] .

فإن لم يرتدع الداعية ومضى في طريقه اضطروا آسفين إلى إنهاء حياته والأمثلة على ذلك كثيرة فقد نُشر زكريا عليه السلام بالمنشار، واهديت رأس يحيى عليه السلام لبغي من بغايا بني إسرائيل، وكان عيسى عليه السلام في طريقه إلى الصلب لولا أن نجاه الله ورفعه إليه، وفي قصتنا هذه قُتل جليس الملك وكذلك الراهب والغلام على يد أهل الضلال ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ⑧ ﴾ .
[البروج :٨] .

الدرس الثالث : رؤوس الطواغيت :

يقول الشيخ / ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

نرى هنا التعاون بين رؤوس الطواغيت على نشر الفساد في الأرض فالذي يحكم بغير ما أنزل الله،ويدَّعي لنفسه صفة الحكم من دون الله طاغوت ـ وكلهم يدعي الربوبية لمن تحته من الناس بعضهم بلسان المقال كهذا الملك وفرعون والنمرود ـ وأكثرهم يدعيها بلسان الحال حين يفرض على الناس طاعته في تشريع يخالف شرع الله ،كأكثر طواغيت اليوم، وما أكثر من يستجيب لهم.

والساحر الذي يدعي ملك الضر والنفع أو يقلب الأمور ويغير الخلق أو تقليب القلوب على الحب والبغض وفق ما يريد هو أيضاً من الطواغيت ولقد

ثبت في الصحيح ـ اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله والسحر .... ـ الحديث [١] وثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم واختلف العلماء في كفر الساحر فمنهم من كفره مطلقاً كمالك وأبي حنيفة وأحمد ومنهم من فصل كالشافعي فمن كان سحره متضمناً بكفر كُفِّر وإلا فلا يكفر إلا أن يستحله [٢] .

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري برقم ٢٦١٥ ، ٥٤٣١ ، ٦٤٦٥ ، مسلم برقم ١٤٥ / ٨٩ ، وأبو داود برقم ٢٨٧٤ ، والنسائي برقم ٣٦٧١ ، وابن حبان برقم ٥٥٦١ والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٢٨٤ ، ورياض الصالحين برقم ١٦١٤ .

(٢) قصة أصحاب الأخدود ص ٨ ، ٩ وعلق الشيخ على الجملة الأخيرة بقوله: "وهذا التفصيل هو الراجح" أقول: "لمعرفة القول الفصل في مسألة هل يكفر الساحر أم لا ؟ وما يترتب عليه من وجوب قتله من عدمه ارجع، إلى كتاب لمؤلفه بعنوان « مرض السحر » بسطت فيه القول في هذه المسألة ، وهذا الكتاب من مطبوعات دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع بالإسكندرية .

الوقفة الثانية

[فلما كبر قال للملك: " إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر "] :

الدرس الأول: حرص أهل الشر على نشر شرهم :

هنا نجد حرصاً غريباً من الساحر على نشر سحره رغم علمه بأنه شر كله ، فلما أحس بدنو أجله عز عليه أن يفارق الدنيا دون أن يحمل الرسالة من بعده غيره ، فطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً ليعلمه السحر، ولك أن تتخيل رجلاً بلغ من العمر أرذله يتحامل على نفسه ليُعلِّم السحر لذلك الغلام، فأين أهل الحق من هذا المثال العجيب ؟ وهل حرص أهل الحق على توريث الحق لمن بعدهم كما حرص هذا الساحر على توريث باطله ؟ ، وأين شباب الصحوة الكسالي من هذا العجوز المتهالك الهالك النشيط؟ .

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

عجباً لأمر هؤلاء الطواغيت، لا يؤمنون بآخرة ولا ببعث ولا يرجون حياة بعد الموت ولا أجراً ولا ثواباً ومع ذلك يحرصون على استمرار الشر من بعدهم ويخافون من ضياعه بعد مماتهم، فلحساب من يعملون ؟ ولماذا يسعون إلى تنشئة الأجيال الجديدة على مثل باطلهم ؟ إن اتباع الشهوات والرغبة العاجلة في التلذذ بها في الدنيا يفسر لنا ما يقومون به في حياتهم ولكنه لا يفسر لنا رغبتهم في بقاء الشقاء على البشر بعد وفاتهم، والحق أنهم يعملون في الحقيقة لحساب عدو الإنسان الأول ورأس الطواغيت كلها ـ الشيطان ـ الذي يوحي إليهم بتلقين الضلال للأجيال القادمة ليحصل له غرضه الخبيث الذي بينه لنا رب

العالمين بقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر: ٦] (١).

وبالإضافة إلى هذا السبب هناك سبب آخر غاية في الأهمية ألا وهو أن أهل الشر يحقدون على أهل الحق ولا يريدون لهم الخير مطلقاً فها هو أستاذهم إبليس عليه من الله - عز وجل - ما يستحق من اللعنات عندما علم أن الله قبل توبة آدم لم يتأس به ويبتهل إلى الله - عز وجل - كي يغفر له ذنبه بل سعى لشقاء نفسه وشقاء من هم على شاكلته فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾[ص ٧٩ - ٨٣].

فلم يطلب من الله - عز وجل - أن يُنظره ليتوب ويعود إلى رشده، ولكن ليفسد على آدم عليه السلام وذريته علاقاتهم بربهم حتى يتساوى الجميع في معصية الله - عز وجل - وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) ﴾ [النساء: ٨٨ - ٨٩].

وكما قيل:" ودت الزانية لو أن كل النساء زنين" وذلك حتى لا يتمايز عليها أحد في الدنيا ولا يتفاضل عليها أحد في الآخرة.

الدرس الثاني: فائدة التعلم في الصغر :

طلب الساحر من الملك أن يبعث له غلاماً حدثاً صغيراً ولم يطلب منه رجلاً

---

(١) قصة أصحاب الأخدود، ص ١١.

يافعاً وذلك لأن التعلم في الصغر أثبت وأرسخ وذلك لأن عقل الطفل مازال ناصعاً كورقة بيضاء وما يُكتب فيها أولاً يكون أكثر ثباتاً.

وفي ذلك روى ابن عبد البر بسنده عن الحسن أنه قال: طلب الحديث في الصغر كالنقش على الحجر.

وروى بسنده عن علقمة أنه قال: " ما حفظت وأنا شاب كأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة "

وروى بسنده عن الحسن بن عليّ قال لبنيه وبني أخيه: تعلموا العلم، فإنكم صغار قوم وتكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب.

وأورد عن سابق البربري ـ رحمه الله ـ أنه قال:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ... وليس ينفع عند الكبرة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قومته الخشب

وعن أبي عبد الله نفطويه قوله:

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر ... ولست بناسٍ ما تعلمتُ في الصغر
وما العلم إلا بالتعلم في الصبا ... وما الحلم إلا بالتحلم في الكبر
ولو فلق القلبَ المعلمُ في الصبيِّ ... لألفي فيه العلم كالنقش في الحجر

وبسنده عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: " يا بني ابتغ العلم صغيراً، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير " (١).

وفي ذلك يقول الحسن البصرى: " قدِّموا إلينا أحداثكم (أي صبيانكم)، فإنهم أفرع (أى: أنقى) قلوباً وأحفظ لما سمعوا " .

وقديماً قالوا: " الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر والحفظ في الكبر كالرقم على الماء (أي الكتابة على الماء) " (٢).

(١) جامع بيان العلم ص ١١٥ وما بعدها.
(٢) الوسائل المعينة على حفظ القرآن الكريم ص ١٧ .

فلذا على كل أب يرجو الله واليوم الآخر أن يعلم ابنه منذ نعومة أظفاره ما يقربه من ربه ويغرس ذلك في نفسه بأن يكون كل همه مرضاة الله ـ عز وجل ـ وطاعة نبيه ﷺ ، وعلى الدعاة إلى الله أن يأخذوا بيد من بانت فطنته في صغره ، ويصقلوا موهبته عسى أن يكون الخلاص على يديه .

الدرس الثالث : التربية التربية :

يقول الإمام الغزالي: " والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، خالية من كل نقش فإن عُوِّد الخير نشأ عليه، وإن عُوِّد الشر وأهمل شقي وهلك " (١).

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

وتأمل قول الساحر (فابعث لي غلاماً) لتعرف كيف يهتم الأعداء بالأبناء، ولماذا يحرصون على إفسادهم منذ نعومة أظفارهم ؟ ، فهو لم يطلب رجلاً كبيراً ـ بل طلب غلاماً ـ فإن من شبَّ على شيء شاب عليه، لذا نرى دائماً أعوان الشيطان يُركِّزون على أمر التعليم خاصة في الصغر، وعلمنا من التاريخ كيف يختارون الأذكياء من أبناء الأمة وشبابها الصغار، وينقلونهم إلى بلادهم ليتربوا على أعينهم، وليكونوا صنيعة لهم إذا عادوا وليقودوا الناس لهم بالسحر الحديث كقطيع غنم بلا حديد ولا نار، فأين المسلمون من مسئولية تعليم أبنائهم دين الله وقد علموا ما أراده أعداؤهم وما قد وضعوه لهؤلاء الأبناء من مناهج تعليم الفساد والمنكر وقلب الحقائق، وبغض الخير وتمييع الدين لينشأوا على الكفر والنفاق ؟ أين المسلمون من هذه المسئولية وقد علموا قول نبيهم ﷺ : « **مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر** » (٢) ؟ ، لابد لنا هنا من دور

---

(١) الوسائل المعينة على حفظ القرآن الكريم ص ١٦ .

(٢) **صحيح** : رواه أبو داود برقم ٤٩٤ ،والترمذي برقم ٤٠٥ وقال حديث حسن ، ورياض الصالحين برقم ٣٠٢ وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم ٢ / ٢٩٨ .

هائل وعظيم يرتكز على قلع أشجار الباطل وحماية الأبناء منها وغرس أشجار الحق في قلوب طلائع أمتنا وصغارها،ولا يظن أحد الأمر مستحيلاً أمام إمكانيات الباطل الهائلة فإن شجرة الباطل سهلة الاجتثاث وشجرة الحق تقيها فطرة الإنسان فترسخ في قلبه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾[إبراهيم :٢٤ ـ ٢٥] ، وهذه القصة التي بين أيدينا من أوضح الأدلة على ما نقصد إليه فإن إمكانيات الملك ودولته وساحره وأعوانه كانت مجندة لإعداد هذا الغلام لوظيفة (ساحر الملك) والأجواء مهيأة لذلك أعظم تهيئة ولكن صوت الحق الذي كان خافتاً خائفاً كان أعلى وأعمق أثراً بل كان سبباً في نقل أمة بأكملها من الظلمات إلى النور فيا أيها المسلمون أبناءكم وغلمانكم أنقذوهم من أيدي سحرة العصر الحديث (١) .

الدرس الرابع: السحر علم :

السحر علم له أصول وضوابط وقواعد وأسس قائمة على الكفر بالله ونعمه وامتهان آياته وتحديه ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ وهناك من الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على أن السحر علم ومن أهمها ما يلي :

[١] يقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) ﴾[البقرة : ١٠٢] .

---

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ١١ ـ ١٣ .

فما من عملية تعليمية إلا وتقوم على أربعة أسس هى : المعلم، والمتعلم، والمنهج المراد تعليمه، والهدف من هذا العلم، وهذه الأسس قد ذكرها الله في هذه الآية وتفصيلها كما يلى :

﴿ أ ﴾ المعلم والمتعلم والمنهج ،ذكرها الله - عز وجل - في قوله : ﴿ **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ فالمعلم : الشياطين ، والمتعلم : الناس (السحرة)، والمنهج : السحر.

﴿ ب ﴾ والمعلم هو أعلم الناس بما يقوم بتعليمه ولما كان السحر كفراً يحذِّر (المعلم) من تعلمه (التلميذ) من مغبة تنفيذه، وما يقول له ذلك إلا بعد أن يتشرب السحر في قلبه وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ** ﴾ .

﴿ جـ ﴾ وقد ضرب الله مثالاً لما يتحقق بهذا العلم، وهو هدف من جملة أهدافه، ألا وهو التفريق بين المرء وزوجه في قوله تعالى : ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ .

﴿ د ﴾ ثم يبين الله - عز وجل - مآل من يتعلم هذا العلم في الدنيا والآخرة فيقول تعالى : ﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ** ﴾ .

[٢] في القصة التي بين أيدينا يطلب الساحر من الملك أن يرسل له غلاماً يعلمه السحر وينفذ الملك ذلك ويمكث الغلام فترة من الزمن يتردد على الساحر يتلقى منه علوم السحر.

وفي هذه القصة أيضاً تتضح أسس العملية التعليمية مما يدل أوضح دلالة على أن السحر علم له أصول وضوابط وقواعد، وليس بالخيال كما يدعي بعض من يهرف بما لا يعرف.

الوقفة الثالثة

[فبعث إليه غلاماً يعلمه السحر] .

الدرس الأول: التعاون :

قال المولى عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

أمرنا الله - عز وجل - في هذه الآية الكريمة أن نتعاون على ما فيه مصلحة العباد والبلاد ونهانا عما فيه فساد وإفساد للعباد والبلاد وحذر من خالف أمره بالعقاب الشديد ورغم ذلك تجد أهل الباطل يتعاونون فيما بينهم غير مبالين من عذاب الله - عز وجل - ولهم همة عالية وعزيمة لا تفل ونشاط لا يهدأ في نشر باطلهم وطمس الحق حتى يصلوا إلى غايتهم المنشودة وهي تعبيد الناس لغير الله - عز وجل - فها هو الساحر في النزع الأخير من حياته يخاطب الملك بمكنون نفسه فيجده أذن صاغية فما يلبث الملك أن يطوف البلاد ويبحث بين العباد عن ضالته المنشودة حتى يعثر على غلام حدث نجيب أريب ويبعث به إلى الساحر كي يعلمه السحر .

أما أهل الحق في هذه الأيام فقد تفرقوا إلى فرق وجماعات وأحزاب شتى كل منهم يدَّعي أنه على الحق المبين، ويجب أن يكون الناس كلهم معه، فيُخَطِّىء غيره ويقدح فيه، ويظن أنه بذلك ينصر الحق، بل بذلك تقر أعين الجبناء، لأنهم يريدوننا هكذا لا نجتمع على كلمة سواء، وصدق فيهم قول رب البرية ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون : ٥٢-٥٣] ، ونسوا تحذير الله - عز وجل - لهم عندما قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ

الله مع الصابرين (٤٦) ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، فأصروا على التنازع والتصارع وبدأت كل فرقة توالي وتعادي غيرها على فروع ما أنزل الله - عز وجل - بها من سلطان فانعقد الولاء والبراء للجماعات ولم ينعقد لله فانتشر التعصب المقيت الذي نهى عنه النَّبيّ ﷺ حين دب الخلاف بين واحد من الأنصار وأحد المهاجرين، فقال الأنصارى: يا للأنصار! ، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين! ، فقال رسول الله ﷺ : "**ما بال دعوى الجاهلية ؟**" .... "**دعوها ، فإنها مُنتنة**" [١].

نعم والله إنها منتنة تزكم الأنوف ، فهل رأيتم رائحة نتنة يجتمع عليها أحد ؟! كلا، فالكل يهرول مبتعداً عنها، وكل واحد يجري في اتجاه، فصدق فينا وعد الله - عز وجل - لما تنازعنا فشلنا فشلاً ذريعاً وذهبت ريحنا فتداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فبعدما كنا أعزة بالتعاون والترابط صرنا أذلة بالتفرق والتناحر، فحُق للنبي ﷺ أن يتبرأ من أمثالنا كما جاء عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: " **ليس منَّا من دعا إلى عصبيةٍ، وليس منَّا من قاتل على عصبيةٍ، وليس منَّا من مات على عصبيةٍ** " [٢].

فلابد من توحيد الصف ونبذ العصبية والخلاف المقيت، فقد كتب عَبْدُ الله العُمَرِيُّ العَابِدُ إلى الإمام مالك - رحمه الله - ينكر عليه اشتغاله بالعلم ويدعوه إلى التفرغ للعبادة، فكتب له مالك - رحمه الله - : " إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الجهاد، وآخر فُتح له في الجهاد ولم يُفتح له في الصدقة، ونشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر " [٣] .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه برقم ٦٣ / ٢٥٨٤ ، والبخاري برقم ٤٦٢٤ .

(٢) رواه أبو داود برقم ٥١٢١ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٧٦٨٤ وضعفه الألباني في بلوغ المرام برقم ٣٠٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ٧ / ٤٢٤ .

فقد تختلف أساليب العاملين وتتنوع طرقهم في سبيل إحياء الأمة وإيقاظها وتغيير حالها، فمنهم من يرى أن الجهل قد تفشى في الأمة وأن إحياءها بإزالة غشاوة الجهل عنها، فُعني بالعلم وسلك طريقه تعلماً وتعليماً ودعوةً إليه.

وثانٍ: رأى أن هذه الأمة إنما كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فسخر وقته وجهده لإنكار المنكرات الظاهرة، العامة والخاصة، فاستغرق عليه ذلك جهده ووقته، ورأى أن هذا هو الطريق الذي ينبغي أن يسلك لإنقاذ الأمة، وأنه بمثل هذا العمل يدفع الله به العذاب عن الناس.

وثالث: قد تألم لحال من استهواهم الشيطان، فوقعوا في الانحراف والرذيلة، فسخر وقته وجهده لدعوة هؤلاء وإنقاذهم.

ورابع: قد رق قلبه للأكباد الجائعة والبطون الخاوية، فصار ينفق من نفيس ماله، ويجمع المال من هنا وهناك ومن هذا وذاك، فينفقها في وجوه الخير على الأرامل والمحتاجين وغيرهم.

وخامس: رأى أن هذه الأمة أمة جهاد، وأنه لا سبيل لرفع الذل عنها إلا به، فاستهوته حياة الجهاد وحمل روحه على كفه، وامتطى صهوة جواده، فهو كما قال الرسول ﷺ : " **مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ،** "[١] فيوماً تراه في المشرق ويوماً تراه في المغرب، وما بين هنا وهناك يسعى للجهاد في سبيل الله ، وأصبح لا يطرب أذنه ولا يشنفها إلا أزيز الرصاص وصوت السلاح.

وسادس: رأى أن هذا الدين دين الناس جميعاً، فسخر جهده لدعوة غير المسلمين وراح ينشر دعوة الله في ربوع الدنيا غير عابىء بجنس أو لون.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ١٢٥ / ١٨٨٩ ، وابن ماجة برقم ٣٩٧٧ ، وكنز العمال برقم ١٠٥٧٠ ، ومجمع الزوائد برقم ٩٤٣٨ ، ورياض الصالحين برقم ٦٠١، ١٢٩٩ .

وسابع: سخر قلمه لخوض المعارك الفكرية دفاعاً عن الإسلام ومصاولة لأعدائه، والمتحدثين زوراً باسمه كتابةً وتأليفاً، فصار يتحدث عن مشكلات الأمة وعن قضاياها، وقد لزم هذا الثغر يواجه به أعداء الله .

وآخر هؤلاء من رأى أن عدة الأمة وأملها في شبابها وجيلها الناشيء، فسخر وقته لتربية الشباب وإعدادهم وتنشئتهم على طاعة الله ، ورأى أن هذا الطريق هو الذي يخرج العاملين والمجاهدين وينقذ الأمة.

وهكذا ترى أبواباً من الخير وألواناً من نصرة الدين والدعوة إليه، وهي أبواب واسعة شتى تسع الجميع على اختلاف طاقاتهم وعقولهم وعلومهم ومداركهم وأفكارهم.

وهنا نتساءل: هل يلزمنا أن نستخدم وسيلة واحدة لإنقاذ الأمة، لأن الحق لا يتعدد ، وصراط الله المستقيم إنما هو واحد؟.

حين نرجع إلى عبارة الإمام مالك - رحمه الله - (وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر) نصل إلى هذه الإجابة: إن الوسائل كلها مطلوبة، بل لابد من القيام بها جميعاً، فلابد أن تقوم طائفة بهذا العمل، وأخرى بذاك، وثالثة بغيرهما وهكذا لندخل جميعاً من أبواب متفرقة، ونسد جميعاً هذه الثغور، ونقف على تلك الحصون، ولا يعيب بعضنا بعضاً، بل لسان حال كل طائفة يقول: (وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر) .

فيا عباد الله لم التناحر والتنابز والتشاجر والتباغض والتدابر والاختلاف؟، لم لا نتعاون؟ ، لم لا نوحد الصف؟ ، وتوحيد الصف لا يتأتى إلا بتوحيد الكلمة، وتوحيد الكلمة لن نصل إليه إلا عن طريق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ) ، ومعناها لا معبود بحق إلا الله وتطبيقها أن لا يطاع إلا الله في كل ما أمر أو نهى عنه وزجر فيما ورد في الوحيين الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف

الأمة فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فكل من هو مخلوق لا تجب طاعته إلا فيما يوافق الشرع المطهر، فمن أطاع هواه أو نفسه أو شيطانه أو عقله المحدود أو نزواته في مخالفة الشرع فقد ناقض كلمة التوحيد، وفي النهاية كلمة أقولها دائماً (أخلصوا تُخلَّصوا لأنه لا خلاص إلا بالإخلاص)[1].

---

(١) ليست هذه دعوة للتقريب بين الجماعات، ولكن دعوة إلى توحيد المنهج، ولن يتأتى ذلك إلا بأمرين:

الأول: توحيد مصدر التلقي و ليس هناك ما هو أفضل من الكتاب والسنة يمكن لعاقل أن يتخذه مصدراً لتلقي الهدى الإلهي وهذا ما بينه الرسول ﷺ فعن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله ، وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض** » رواه الحاكم في المستدرك برقم ٣٢ / ٣١٩ ، وكنز العمال برقم ٨٧٥ ، وحسنه الألباني في منزلة السُّنَّة في الإسلام.

الثاني: منهج التلقي وهنا يكمن الخطر ويصعب الخطب ويطول الدرب ، فما من أحد ينتمي إلى جماعة من الجماعات التي على الساحة إلا وهو يدعي أنه يعمل بالكتاب والسُّنَّة ، ولكن ما منهجه حيال هذا التلقي ؟ هناك منهجان لا ثالث لهما : الأول هو العمل بالكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة ، الثاني هو العمل بالكتاب والسُّنَّة بفهم مؤسس الجماعة أو الطائفة وقد أمرنا الله ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ بالأول ونهى الله ورسوله ﷺ عن الثاني فقال جل ثناؤه مخاطباً نبيه وصحابته قائلاً : ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٣٧) ﴾ [سورة البقرة: ١٣٧] فقد علق الله ـ عز وجل ـ الهداية على مطابقة المنهج لمنهج النبي ﷺ وأصحابه ومن تولى عن هذا المنهج وانتهج نهجاً غيره لا يناله إلا الفرقة والشتات والاختلاف في بادىء الأمر وبعد أن يظن أنه وصل إلى ما يريد يتولى الله ـ عز وجل ـ بنفسه استئصال شأفته ولم يُسند ذلك لغيره لأنه سميع عليم ولقد أكد النبي ﷺ على التمسك بهذا المنهج فقد ورد عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: « **إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » رواه الحاكم في مستدركه برقم ١٥٥ / ٤٤٤ وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم ٢٦٤١ ومعنى ذلك أن من كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الفرقة الناجية ومن خالف هذا الأصل فعليه أن ينتظر وعد الله ـ عز وجل ـ باستئصال شأفته ولا يركب الأماني فإنه لن يصل إلى نهايته التي رسمها لنفسه.

وبذا يتضح أنه لا خيار في أن ننتهج النهج الأول وهو العمل بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فإن انتهجنا هذا النهج وفتح الله ـ عز وجل ـ على أحدنا بسابقة فضل فليُفرِغ وسعه فيها وليجتهد أن لا يؤتي الإسلام من جانبه ولا يعيب على غيره فيما فتح الله عليه فيما يوافق الحق وليكن شعاره معه وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر وبالله التوفيق.

المرحلة الثانية

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

الوقفة الرابعة

[وكان في طريقه إذا سلك راهب] .

وفيها درس : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ :

قضت حكمة الله ـ عز وجل ـ ألا يظهر الباطل في مكان إلا ويغرس فيه من الحق ما يدمغ به الباطل ويُزهِق روحه وهذا من سُنن الله الكونية التي تبعث فينا الأمل فقد يستولى اليأس على بعض النفوس حينما ينتشر الباطل ويظنون أن الحق إلى اندثار ونسوا أو تناسوا أن أشد ساعات الليل ظلمة ما يسبق الفجر فمن كمال حكمة الله ألا يأخذ الباطل إلا وهو في عنفوان قوته فيرسل الله ـ عز وجل ـ من الحق ما يدمغ به هذا الباطل فلا تقوم له قائمة ولا يستقيم له عود لأن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** (١٨) ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

ويُفهم من الآية أن الباطل كان أسبق من الحق في الوجود ثم يجيء الحق فيدمغه أي يصيبه في دماغه (في أم رأسه) ومن أصيب في أم رأسه هلك فلا تقوم له قائمة بعد ذلك، وأيضاً يكون القذف بالحق على أعلى نقطة في الباطل، فكلما تمكن الباطل واستفحل خطره كان ذلك إيذاناً بقرب زواله، فأقول لليائسين اعلموا أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، وأبشروا بظهور الباطل ولا تفرحوا به، وادعوا الله ـ عز وجل ـ أن تكونوا ممن يقذف الله به على الباطل، لأنه في هذه اللحظة إما أن تكون مقذوفاً أو مقذوفاً به، فهنيئاً لك إن كنت من الصنف الثاني، ويا ويله من كان من الصنف الأول، لأن الأول هم أهل

الباطل، والثاني هم أهل الحق.

واعلم أنه ما استفحل الشر في مكان إلا ويُظهر الله ـ عز وجل ـ فيه من الخير ما يُزيل به هذا الشر والأمثلة على ذلك كثيرة منذ بدء الخليقة وحتى اليوم، فما خلق الله آدم ﷺ إلا بعدما أفسد الجن في الأرض وسفكوا الدماء واستطار شرهم (١).

ولما استفحل أمر السحر في بني إسرائيل وظنوا أن الساحر على كل شيء قدير أرسل الله ـ عز وجل ـ موسى ﷺ بعصاه ليبطل هذا الاعتقاد وينصر الحق ويبطل سحر السحرة، وكان من كمال حكمته أن يُخرجوا أعظم سحر عندهم فألقوا حبالهم وعصيهم فتحولت إلى حيات صغيره، فإذا بعصى موسى تتحول إلى حية عظيمة، لا لتتشاجر مع حياتهم وتتركها صرعى، ولكن قامت بالتهامها جميعاً فلم تُبْقِ من وسائل الباطل شيئاً.

وفي زمان عيسى ﷺ برعوا في الطب حتى ظنوا أن الحياة والموت بأيديهم فبعث الله ـ عز وجل ـ عيسى بن مريم ﷺ وأقدره على أن يشفي من الأمراض ما عجز الطب عن شفائه كإبراء الأكمه وهو من ولد أعمى وهذا يصعب شفاؤه بل قد يستحيل في معظم الأحيان ولكن الله ـ عز وجل ـ أقدر عيسى ﷺ على شفائه إمعاناً في التحدي وترسيخاً للحق في النفوس.

وقبل مبعث النَّبيّ محمد ﷺ نظر الله ـ عز وجل ـ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب (٢) وما مقتهم الله ـ عز وجل ـ إلا لشدة ضلالهم واستفحال باطلهم، ولما كان العرب أهل لغة وبيان وفصاحة ينصرون بها الباطل ويمجدون بها الأوثان لدرجة أنهم يعبدونها من دون الله أرسل الله ـ عز وجل ـ الحبيب محمد ﷺ خير من نطق بالضادية بجوامع الكلم فانزوى أهل

---

(١) راجع فى ذلك كتاب « مرض السحر » فقد بسطت القول هناك . من مطبوعات دار الإيمان الإسكندرية .

(٢) قطعة من حديث طويل رواه مسلم عن عياض بن حماد رضي الله عنه برقم ٦٣ / ٢٨٦٥ ، وابن حبان برقم٦٥٣ ، وسنن النسائي الكبري برقم ٨٠٧٠ ، وكنز العمال برقم ١١٣٠٦ ، والسيوطي في زيادة الجامع الصغير برقم ١٨٨٠ ، و أحمد برقم ١٧٥١٩ ، والطبراني في الكبير برقم ٩٨٧ .

الفصاحة في الحنايا واعتنق الناس توحيد رب العالمين.

حتى في زماننا هذا أمثلة عديدة نكتفي منها بهذا المثال ففي زمن الطرب الأصيل - كما يسميه أهل العفن الفني - تغنت أم كلثوم وعبد الحليم وغيرهم من أهل الفساد بكلمات الفجور والمجون ، فإذا برب البرية يمتعنا بالمنشاوي والحصري والبنا وعبد الباسط يقرأون القرآن غضاً كما أُنزل ، حتى قال قائلهم عجبت لأهل مصر عندهم المنشاوي ويسمعون أم كلثوم، وقال آخر: نزل القرآن في الحجاز وقُرىء في مصر.

وإن المتصفح لصفحات التاريخ يجد أنه ما من نومة للإسلام إلا وتلاها قومة، وفي أيامنا هذه أما آن للمارد أن يخرج من قمقمه، فقد طال الرقاد، فنسأل الله أن تكون قومته ونهوضه عما قريب، وأن يجعلنا لبنة في بناء صرحه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



الوقفة الخامسة

[فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه]

وفيها درس: الفطرة السليمة ودورها في توجه الأفراد :

(الإسلام دين الفطرة)[١]، والفطرة هي بداية الخلقة، وهي أمر كوني قدري جبلي يغرسه الله في نفس كل إنسان، وبمقتضاه يستدل الإنسان على أن له رباً، خالقاً تجب عبادته، فإن غُيرت فطرته أو شُوهت فسد هذا الاستدلال، وإنما يكون هذا التغيير من قبل الأشخاص المقربين من الطفل وبخاصة والديه ولذلك ورد أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**» . ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [الروم : ٣٠] [٢].

فما من مولود إلا ويولد على فطرة سليمة، نقية كاملة غير منقوصة، مثله في ذلك كمثل البهيمة تلد مولودها كاملاً له أعضاؤه كما خلقه الله - عز وجل - ، ولكن صاحبه قد يقطع أذنه أو أنفه أو ذيله فيشوه تركيبه الذي خلقه الله - عز وجل - عليه، وكذلك الطفل لو تُرك لحال سبيله لاستدل بفطرته السليمة على أن له رباً يجب أن يُعبد، وبذلك يكون مسلماً، لأن الإسلام دين الفطرة، ولكن إذا دُنست فطرته من قِبل المقربين منه عن طريق أفكار مغلوطة، وعقائد فاسدة،

---

(١) قالها البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة النحل الآية رقم ١٢٠ في معنى كلمة حنيفاً « مائلاً عن الشرك إلى التوحيد والإسلام دين الفطرة » .

(٢) رواه البخاري برقم (١٢٩٢، ١٢٩٣ ، ١٣١٩ ، ٤٤٩٧، ٦٢٢٦) ، ومسلم برقم ٢٢ /٢٦٥٨ ، وأبو داود برقم ٤٧١٤ ، والترمذي برقم ٢٢٢٣ .

وأهواء متضاربة، قد لا ينحرف في إسلامه فقط، بل قد يعتنق ملة أخرى غير الإسلام كاليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، ولذلك اهتم الإسلام باختيار الزوجة الصالحة لأنها هي التي سترعاه في سني عمره الأولى، ومنها يتشرب ما تستقر به فطرته على ما فطره الله عليه، أو تُدنس وتُشوه بباطل لا يعلم مداه إلا الله ، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** »[1]. لأن ذات الدين سترضع ابنها دينها مع لبنها، أما غير الدَيِّنة فسيرث منها كل رذيلة.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن فإن للبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة[2]. ولذا قيل :

وليس النبت ينبت في جنان   كمثل النبت ينبت في الفلاة
وهل يرجى لأطفال كمال   إذا ارتضعوا ثدى الناقصات[3]

ومن أدل الأدلة على أهمية دور المرأة في تربية الأبناء أن مفاخر الرجال على مر العصور ربتهم أمهاتهم، فهؤلاء رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين بعضهم ربتهم أمهاتهم، فقد تربى إسماعيل عليه السلام في حجر أمه هاجر عليها السلام، وربت موسى عليه السلام أمه في بيت فرعون بعدما حُرِّمت عليه المراضع، وتربى عيسى عليه السلام بيدى أمه مريم ابنة عمران، وها هو الرسول ﷺ ربته حليمة السعدية وهي أمه من الرضاع ثم أمه آمنة، ولو دققت النظر في أولئك الرسل لوجدت أن منهم ثلاث من أولي العزم من الرسل.

---

(١) رواه البخاري برقم ٨٤٠٢ ، ومسلم برقم ٥٣ / ١٤٦٦ ، والنووي في رياض الصالحين برقم ٣٦٤ ، وابن ماجة برقم ١٨٥٨ ، وأبو داود برقم ٢٠٤٧ ، وابن حبان برقم ٤٠٣٦ ، والدارقطني برقم ٢١٢ ، وسُنن النسائي الكبرى برقم ٥٣٣٧ ،والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٣٣٧٢ .

(٢) الفوائد ص ٢٣٢ .

(٣) أستاذ المرأة ص ١٣٢ بتصرف ، نقلاً من عودة الحجاب ص ٢٤١ .

يقول الشيخ محمد بن أحمد إسماعيل المقدم - حفظه الله - :

إذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامى، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبَّق ذكرهم الخافقين، إلا وهو ينزع بِعرْقه وخُلُقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها؟ ، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخُلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم :

فالزبير بن العوام رضي الله عنه :فارس رسول الله ﷺ ،الذي بلغ من بسالته وبطولته، أن عدل به الفاروق رضي الله عنه ، ألفاً من الرجال، حين أمد به جيش المسلمين في مصر، وكتب إلى قائدهم عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول : أما بعد : فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف : رجل منهم مقام الألف : الزبير بن العوام، والمقداد ابن عمر، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد - رضي الله عنهم - .

وقد صدقت فراسة الفاروق رضي الله عنه ،وسجل التاريخ في صفحاته أن الزبير لا يعدل ألفاً فحسب، بل يعدل أُمَّة بأسرها، فقد تسلل إلى الحصن الذي كان يعترض طريق المسلمين، وصعد فوق أسواره وألقى بنفسه بين جنود العدو، وهو يصيح صيحة الإيمان : "الله أكبر" ... ثم اندفع إلى باب الحصن، ففتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون، فاقتحموا الحصن، وقضوا على العدو قبل أن يفيق من ذهوله. هذا البطل العظيم إنما قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النَّبيّ ﷺ ، وأخت حمزة أسد الله ، فقد شب في كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها.

والكملة العظماء : عبد الله، والمنذر، وعروة أبناء الزبير :كانو ثمرات أمهم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وما منهم إلا له الأثر الخالد، والمقام المحمود.

وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : تنقل في تربيته بين صدرين من أملأ صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال، فكان مغداه على أمه فاطمة

بنت أسد، ومراحه على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ .

وعبد الله بن جعفر: سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، تركه أبوه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عميس، ولها من الفضل ما لها .

وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: أريب العرب وألمعيُّها، ورث عن هند بنت عتبة همة تجاوز الثريا، وهي القائلة -وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: « إن عاش معاوية ساد قومه » : « ثكلته إن لم يسد إلا قومه » ، ولما نعي إليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف منه ، فقالت: « أوَ مثلُ معاوية يكون خلفاً من أحد ؟ ، والله لو جمعت العرب من أقطارها، ثم رُمِيَ به فيها، لخرج من أيها شاء » .

وكان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأى، انتسب إلى أمه فصدع أسماع خصمه بقوله : « أنا ابن هند » [1] .

وعبد الله بن زيد المازنى: الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ، والذي قتل مسيلمة الكذاب بسيفه[2]، وقُتل هو يوم الحرة .

وأخوه حبيب بن زيد بن عاصم المازني:الذي أخذه مسيلمة فقطَّعه،قطعة قطعة .

كلاهما كان ثمرة أم فاضلة مجاهدة هي أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها ،كان أخوها عبد الله بن كعب من البكائين، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أُحداً،والحديبية، ويوم حنين،ويوم اليمامة،وجاهدت،وفعلت الأفاعيل .

وعبد الملك بن مروان: أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وكان لها من مضاء العزم، وذكاء القلب، ونفاذ الرأي ما لم يكن بعض الرجال في شيء منه .

---

(١) عودة الحجاب ٢ / ٢٠٠ وعزاه إلى المرأة العربية ٢ / ١٣٣ - ١٣٤ بتصرف، وقال : انظر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لمنير الغضبان ص ٣١ .

(٢) قال الشيخ / محمد بن أحمد بن إسماعيل - حفظه الله - : هكذا ذكره الحافظ الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٨١ - ٢٨٢ ، وهو يخالف ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله في قصة مقتل مسيلمة الكذاب في البداية والنهاية ٦ / ٣٤١ ، ٦ / ٢٦٨ من أن الكذاب قتله وحشي بن حرب ، وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى .

وأبو حفص عمر بن عبد العزيز : أورع الملوك وأعدلهم وأجلهم، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، أكمل أهل دهرها كمالاً، وأكرمهن خلالاً، وأمها تلك التي اتخذها عمر لابنه عاصم، وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب، إلا ما جرى على لسانها قول الصدق في نصيحتها لأمها وهي التي نزعت به إلى أخلاق جده الفاروق .

وأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر : الذي ولي الأندلس وهي ولاية تميد بالفتن، وتَشْرَقُ بالدماء، فما لبث أن قرت له، وسكنت لخشيته، ثم خرج في طليعة جنده، فافتتح سبعين حصناً في غزوة واحدة، ثم أمعن بعد ذلك في قلب فرنسا، وتغلغل في أحشاء سويسرا، وضم أطراف إيطاليا، حتى ريض كل أولئك له، ورجف لبأسه، فكان أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، حكم مدة خمسين سنة وستة أشهر، وبعدما كانت قرطبة إمارة، أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوربة وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها .

أتدري ما سر هذه الهمة، وما مهبط وحيها؟ ، إنها المرأة وحدها! فقد نشأ عبد الرحمن يتيماً قتل عمُّه أباه وعمره واحد وعشرون يوماً، فتفردت أمه بتربيته وإيداع سر الكمال وروح السمو في ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت .

وسفيان الثوري : وما أدراك ما سفيان الثوري ؟ .

إنه فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، إنه أمير المؤمنين في الحديث الذي قال فيه زائدة: "الثوري يد المسلمين "، وقال الأوزاعى: " ولم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان"، وما كان ذلك الإمام الجليل، والعَلَم الشامخ، إلا ثمرة أم صالحة، حفظ التاريخ لنا مآثرها، وفضائلها، ومكانتها، وإن كان ضن علينا باسمها .

روى الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بسنده عن وكيع قال: " قالت أم سفيان لسفيان: " يا بنى! اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي" فكانت ـ رحمها الله ـ

تعمل، وتقدم له، ليتفرغ للعلم، وكانت تتخوله بالموعظة والنصيحة، قالت له ذات مرة - فيما يرويه الإمام أحمد أيضاً - : " يا بني إذا كُتبت عشرة أحرف، فانظر: هل تري في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك، ولا تنفعك " .

فهل من غرابة بعد هذا أن نرى سفيان يتبوأ منصب الإمامة في الدين، كيف وهو قد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الرحيمة، وتغذى بلبان تلك الأم الناصحة التقية ؟!.

والإمام الثبت إمام أهل الشام وفقيههم، أبو عمرو الأوزاعى :يقول فيه أبو إسحاق الفزارى: " ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعى، والثورى، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، والثوري كان رجل خاصة، ولو خُيِّرْت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعى، لأنه كان أكثر توسعاً، وكان والله إماماً، إذ لا نُصيبُ اليوم إماماً، ولو أن الأمة أصابتها شدة، والأوزاعي فيهم، لرأيت لهم أن يفزعوا إليه " ، وقال الخريبى: " كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه " .

وقال بقية بن الوليد: " إنا لنمتحن الناس بالأوزاعى، فمن ذكره بخير، عرفنا أنه صاحب سُنَّة " ، وقال العجلى: " شامي ثقة من خيار المسلمين " ، وقال الشافعى: " ما رأيت أحداً أشبه فقهه بحديثه من الأوزاعي " .

قال النووي - رحمه الله - :"وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي ، وجلالته، وعلو مرتبته، وكمال فضله، وأقاويل السلف - رحمهم الله - كثيرة مشهورة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسُّنَّة ، وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته" .

وعن سفيان الثورى: " أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر

بجماعة قال: " الطريق للشيخ ".

وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات أن الأوزاعي سُئل يعني الفقه - يعني استُفْتِي - وله ثلاث عشرة سنة ".

ذلك الحبر البحر كان أيضاً ثمرة أم عظيمة: قال الذهبي رحمه الله: " قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبي يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول: " سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر أمه، تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلَّغته حيث رأيته، يا بني! عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمة قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه ولقد كان إذا أخذ في ذكر الميعاد أقول في نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك؟".

قال أبو مسهر: " وكان الأوزاعي رحمه الله يحيي الليل صلاةً وقرأناً وبكاءً، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت، أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي، وتتفقد موضع مصلاه فتجده رطباً من دموعه في الليل".

وهذه أم ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلَّفها زوجها عندها، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فأحمد الرجل صنيعها وأربح تجارتها في قصة طلية [1] ساقها ابن خلكان، قال: " وكان فروخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً، وفي يده رمح، فنزل، ودفع الباب برمحه، فخرج ربيعة وقال يا عدو الله أتهجم على منزلي؟"، فقال فروخ: " يا عدو الله أنت دخلت على حرمي؟"، فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس، فأتوا يعينون

(١) الصغيرة العجيبة.

ربيعة، وكثر الضجيج، وكل منهما يقول: "لا فارقتك"، فلما بصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: " أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار"، فقال الشيخ: " هذه داري وأنا فروخ "، فسمعت امرأته كلامه، فخرجت، وقالت: " هذا زوجى، وهذا ابني الذي خلَّفه، وأنا حامل به" فاعتنقا جميعاً وبكيا، ودخل فروخ المنزل، وقال: " هذا ابنى؟"، فقالت: " نعم"، قال: " أخرجي المال الذي عندك"، قالت ـ تُعَرِّضُ ـ : "قد دفنته وأنا أخرجه"،ثم خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به، فقالت أمه لزوجها فروخ: " اخرج فصل في مسجد رسول الله ﷺ "، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: " من هذا الرجل؟"، فقيل: " هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن"، فقال: " لقد رفع الله ابنى"، ورجع إلى منزله، فقال: " لوالدته: لقد رأيت ولدك في حالة ما رأيت من أهل العلم والفقه عليها"، فقالت أمه: "فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟"، فقال: " لا والله، بل هذا"، فقالت: " أنفقت المال كله عليه"، قال: " فوالله ما ضَيَّعْته" .

إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ : قال مطرف: " قال مالك: قلت لأمي: " أذهب، فأكتب العلم ؟" فقالت: " تعال، فالبس ثياب العلم"، فألبستني مسمرة(١)، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: " اذهب، فاكتب الآن"، وكانت تقول: " اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه" .

ثم إذا نشرنا صفحة العهد العباسى، بل صفحة العهد الإسلامي لا نجد في تضاعيفها امرءاً دنت له قطوف العلم والحكمة، ودانت له نواصي البلاغة والفصاحة كمحمد بن إدريس الشافعى فهو الشهاب الثاقب الذي انتظم حواشي الأرض، فملأ أقطارها علماً وفقهاً، ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة.

(١) ثياب لونها بين الأسود والأبيض « رمادي » .

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها، وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد[١] وهي التي تنقلت به من غزة مهبطه إلى مكة مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك. وكانت أم الشافعي رحمها الله ـ باتفاق النقلة ـ من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة.

ثم قال: فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية: مهبط الشرف الحر، والعز المؤثل[٢]، والمجد المكين، وصدق الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأُلى ... شَغَلتْ مآثرهم مدى الآفاق[٣]

فهؤلاء الصفوة ربتهم أمهاتهم منذ نعومة أظفارهم على طاعة الله ـ عز وجل ـ ومرضاته، فتوافقت فطرة نقية، وتربية سوية، فنما الغرس واشتد عوده، ويأبى الغرس إلا أن يأتي ثمره، ومن ثم فعلى الرجل أن يتخير أماً صالحة لولده ولن يتثنى له ذلك إلا إذا اتسم هو بالصلاح أولاً، فالمجتمع لن يتأتى إلا من أسر تعرف ربها، ولن تقوم هذه الأسر إلا على آباء صالحين وأبناء ذوي فطر سوية، لأن الفطرة لها دورها في توجه الأفراد.

يقول الشيخ ياسر برهامي: قد كان هناك بقايا من الموحدين في ذلك العهد أمثال هذا الراهب في قصتنا فقعد إليه الغلام أثناء ذهابه لتعلم السحر فسمع كلامه فأعجبه، وهنا نرى أن الغلام رغم أنه يتلقى تعليماً مزدوجاً ويسمع كلاماً متناقضاً فالساحر يعلمه أن الملك ربه ولا رب غيره والراهب يعلمه أن الله

(١) العقيلة: السيدة المخدَّرة والزوجة الكريمة المعجم الوسيط ص ٦١٧، والأزد: تجمع قبائل عريقة باليمن، لسان العرب ٣ / ٧١.
(٢) مؤثل: مجموع ذو أصل، أو أي شيء جُمع له أصل، انظر لسان العرب ١١ / ٩.
(٣) عودة الحجاب ٢ / ١٩٩ – ٢١٢ باختصار طفيف.

ربه ولا رب سواه إلا أنه قد مال وأُعجب بكلام الراهب، ذلك أن الحق له رصيد عظيم في داخل النفس البشرية رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [الروم : ٣٠] .

ثم قال : وهذا الرصيد أعظم من وسائل الإعلام والإفساد والتوجيه والبث المباشر وأعتى القوى العسكرية وأسلحة الإرهاب، ولا تصح مقولة من يقول : "إن ما يبنيه الدعاة في سنة يهدمه أهل الباطل في ساعة بما عندهم من وسائل هائلة " يقصد بذلك اليأس من أثر التربية في التغيير وأن العلاج لا يكون إلا بتغيير قمة المجتمع ومركز القوة فيه، دون السعي الحثيث البطيء - فيما يظن - للتغيير من خلال تنشئة الأفراد وتربيتهم واحداً واحداً، مع أن الناظر في سيرة الأنبياء جميعاً وأتباعهم أيضاً يرى أن التغيير دائماً لا يكون بتغيير قمة المجتمع وإنما كان دائماً بتربية الأفراد وإيجاد الطائفة المؤمنة التي ينصر الله - عز وجل - بها دينه بالقرآن أو السُّنن،فهذه المقولة خطأ بلا شك لمخالفتها سُنَّة الأنبياء والصالحين، إن ما يهدمه أهل الباطل في ساعة إنما هو البناء الهش الذي لا حقيقة له وإنما هو عيب البنائين وتقصيرهم في البناء، إن الحق لا يُهدم في نفوس المؤمنين الصادقين ولو ظل أهل الباطل يسعون لهدمه مدة الدنيا بأسرها، فلا تيأسوا يا دعاة الإسلام ولرُب غلام ممن تعلمونهم الدين ترونه يجلس بين أيديكم اليوم يكون به غداً نجاة الأمة وإنقاذها من الهلاك - بل ذلك الحاصل إن شاء الله - فاستمروا في الدعوة والبيان ولا ترهبوا أسلحة أهل الباطل وإن كثرت فـ ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦][١] .وتخيروا ذوي الفطر السليمة ليستقيم لكم البنيان .

---

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ١١٥- ١٧ ، باختصار .



الوقفة السادسة

[وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فأتى الساحر ضربه] .

وفيها درسان :

الدرس الأول : إن للإيمان لحلاوة :

ها هو الغلام رغم أن الراهب لم يُغْرِه بأي مغريات يقعد إليه ويُقبل عليه رغم أن الساحر يضربه فما السر وراء ذلك ؟، إنها بشاشة الإيمان التي إذا خالطت القلوب فإنها تفعل فيها الأفاعيل.

لذا يجب على الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ في كل زمان ومكان أن ينتبهوا إلى أن المجتمعات تنقسم إلى قسمين بحسب أساس التربية : مجتمعات عقدية ومجتمعات عاطفية وكذا الدعوات عقدية وعاطفية فالمجتمعات والدعوات العقدية هي التي تربى أبناءها على معتقدات ثابتة حتى وإن كانت غير صحيحة (١)، وهذه المجتمعات والدعوات مجتمعات متماسكة متينة يضحِّي فيها الفرد بكل ما يملك فداءً لمعتقده لأنه وصل إلى الإيمان بما يعتقد، وهذه المجتمعات أو الدعوات أعدادها صغيرة ولكن تأثيرها خطير؛ وبخاصة إذا كانت تؤمن بثوابت دينية صحيحة لأن الدين الصحيح يتوافق مع الفطر السليمة.

أما المجتمعات أو الدعوات العاطفية فهي دائماً تلعب على عاطفة أتباعها وتثيرهم بلحن القول إلى غايات مرسومة وأهداف مدروسة معلومة، فتجد الفرد فيها لا يحكم على الأمور بضوابط الشرع؛ ولكن بما يستحسنه ويميل إليه، وهذا

(١) كالمجتمع الإسرائيلي يقوم على معتقد غير صحيح وهو أن أرض الميعاد من النيل إلى الفرات، وأن الأقصى بني على أنقاض هيكل سليمان، ولابد من هدم الأقصى لبناء الهيكل، وذلك شرط لنزول المسيح بزعمهم، ويسعون جاهدين لتحقيق ذلك.

المسلك يدمر هذه الدعوة والمحيطين بها، وأتباع هذه الدعوات كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، يثورون لمشاهدة فيلم عن محنة للمسلمين، ويفرِّغون هذه الثورة بمظاهرة تنديد، أو توزيع ملصقات، أو بمرور الوقت تخبو هذه الثورة.

فلم لا نربي مجتمعاتنا على أصفي وأنصع عقيدة عرفتها البشرية ألا وهي عقيدة السلف محمد ﷺ وصحابته الكرام ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان؟، أليس ذلك أولى من أن نربي مجتمعاتنا على عقائد إنما هي حثالات أفكار من ينسبون أنفسهم للإسلام والإسلام منهم براء؟ وكذلك أولى من أن نربي مجتمعاتنا تربية عاطفية أصولها الأحاسيس والمشاعر، التي ما تلبث أن تخبو وتضمحل، وتتحول في معظم الأحيان إلى شجب، واستنكار، وتنديد، ورثاء بأشعار، ما أخافت عدواً، ولا حُررت بها الديار.

واعلم أن دعوة النَّبيّ ﷺ كانت عقائدية لا عاطفية؛ ولذلك كان الرجل يؤمن في أول النهار ويطلب الشهادة في آخره.

الدرس الثاني: وقتك حياتك:

تُرى لم كان الساحر يضرب الغلام؟، إنه لم يكن يدري أنه يجالس الراهب، بل كان يضربه لتضييعه للوقت، فالساحر حريص كل الحرص ألا يُضيِّع وقته، فمعنى أنه يضرب للغلام ميعاداً محدداً وينتظره فيه ويعاقبه إن تأخر عنه أنه كان ضنيناً بوقته أن يضيع، ويُستفاد منه أنه كان منظَّماً في حاله فلا يدع وقته يضيع بغير فائدة، فهذا حال ساحر كافر بالله ينظم وقته ولا يهدره، ولا يضيعه فيما لا يفيد، حتى وهو في آخر عمره، ومعظم أهل الكفر في أيامنا هذه لهم نفس الحال حتى صاروا مضرب المثل في الحفاظ على الوقت، فتجد الواحد منا إذا عاتب أخاه على ميعاد ضربه فضيعه، رد عليه قائلاً: (هل أنت خواجه؟) [١].

هذا حال من لا يعرفون الله، وإنما حرصوا على أوقاتهم طلباً لدنيا زائلة، أما

---

(١) وذلك لما نرى من حرص الإفرنج وأهل الغرب عموماً على أوقاتهم.

من ادعوا معرفة الله والإيمان به من أمة الإسلام وطلبوا جنات عدن - زعموا - فحالهم لا يرضى به إنسان، فأوقاتهم ضاعت هباءً منثوراً ما استفادوا منها في دنيا ولا آخرة، فهم محترفون في تضييع الأوقات، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً.

أخيَّ: إن العمر عزيز نفيس وقد بلغ من شأنه أن الله أقسم به جملة وتفصيلاً فأقسم بالعصر الذي هو الدهر، وأقسم بالليل والنهار وأقسم بالفجر والضحى، وفي تنوع القسم به من رب العالمين لفت الانتباه لعظيم شأنه، وجلال قدره، وسوء عاقبة من أهدره.

أخيَّ: إنك لن تعي مدي خطورة الوقت إلا إذا نظرت إليه من جهتين:

الأولى: وقتُك أنت !!!.

عمرك ووقتك قرينان، فأنت ووقتك وجهان لعملة واحدة ظاهرها أنت وباطنها وقتك . فما أنت إلا أيامٌ معدودة وليال محدودة فكلما مضى من عمرك يوم فقد انقضى بعضك، فعجباً ممن لا يتفطن لذلك؛ ويفرح لزيادة سنِّه عام تلو عام، ويقيم لذلك احتفالاً وراء احتفال، وما جال بخاطره أنه يقترب من أجله وموعد موته عاماً من قبله عام، ولو انتبه لذلك لضاقت عليه الأرض بما رحبت.

قال ابن رجب: قيل لمحمد بن واسع كيف أصبحت ؟ ، قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.

وقال الحسن: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره،كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله،وتقوده حياته إلى موته.

وقال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك ؟، قال ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل، ﴿ **إنَا للهِ وإنَّا إليه راجعُونَ** ﴾ ، فقال الفضيل :أتعرف تفسيره؟،تقول: ﴿ **إنَا للهِ وإنَّا إليه راجعُون** ﴾

فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليُعدَّ للسؤال جواباً ، فقال الرجل: فما الحيلة ؟ ، قال: يسيرة، قال: ما هي؟ ، قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي.

قال الحسن: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار وتقريب الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين لم يبلهما ما مرا به، مستعدَيْن لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى.

وقال: ابن آدم إنما أنت بين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل؛ حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطراً.

وقال: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوي من ورائكم.

قال داود الطائي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تُقدِّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك.

وكتب بعض السلف إلى أخ له: يا أخي يخيل لك أنك مقيم بل أنت دائب السير تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك، والدنيا تُطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍّ عليك [١].

ومن وصايا لقمان: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراع يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج منها [٢].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٢٨، ٤٢٩ باختصار وتصرف.
(٢) الزهد لابن المبارك برقم ١٠٦٠، حلية الأولياء ٦ / ٣٢٠، وذم الدنيا برقم ٧٣.

وقال ابن القيم: العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جُعلت الأيام والليالي مراحل سفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر [١].

ولذلك لما فهم السلف هذه الحقيقة كانوا أحرص ما يكونون على أوقاتهم.

قال ابن الجوزي: رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل: أعْرِفُ من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة. ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك؟ فقال: أصدقكم؟ كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وجاء رجل من المتعبدين إلى سرى السقطي فرأى عنده جماعة فقال: صرت مناخ البطالين ثم مضى ولم يجلس.

وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال: إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام؟.

وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس قال له رجل: قف أكلمك، قال: فأمسك الشمس.

وكان داود الطائي يستف الفتيت [٢] ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

وكان عثمان الباقلاني دائم الذكر لله تعالى، فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر، وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم [٣].

---

(١) طريق الهجرتين ص ١٧٦.
(٢) أي يطحن الخبز ويستفه حتى لا يمضغه.
(٣) صيد الخاطر ص ٤٩٦، ٤٩٧، باختصار.

الثانية: الوقت أبٌ للعلم والعمل، وجدٌ للمال فمن فرط فيه حُرم ذريته:

فمن ملك وقته أمكنه أن يتصرف فيه كيفما شاء، فمن استغله في طلب العلم أنتج علماً، وكان العلم من بنى الوقت، وإن استغله في عمل فإن كان من عمل الآخرة كان من العاملين وعمله أيضاً من أبناء الوقت، وإن استغله في عمل من أعمال الدنيا تصرف في نتاجه فعاد عليه بالمال، وبذا يُعلم أن المال حفيد للوقت، ولذا قيل من أنفق بعض وقته كان كمن أنفق بعض ماله لأن التضحية بالأصل تضحية بكل فرع نشأ عنه.

فإن علمت أن وقتك هو بعضك، وأنه أصل كل ما ينشأ عنك من خير أو شر، فاعلم أن إضاعته إضاعتك، وحفظه حفظك.

ولما كان حفظ الوقت عسيراً لأنه إن مر فلن يعود كما يقول الحسن البصرى: ما من يوم ينشق فجره إلا ينادي يا ابن آدم: أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

وقال الهروى: إن الوقت وحيُّ التقضِّي (سريع الانقضاء)، أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع [١].

وجب حفظه في ذريته من علم أو عمل أو مال، فمن لم يستفد من وقته في تحصيل واحد أو أكثر من هذه الثلاث ما حفظ وقته.

وانتبه إلى أن لكل واحد منها وجهين، وجه حميد، ووجه قبيح، فمن التزم حصول الحميد فقد حافظ على وقته، ونال ما يريد، ومن التزم حصول القبيح فقد أهدر عمره فيما لا يفيد، ونال حسرة في العاجل والآجل عندما يصبح الخبر عياناً.

وإليك البيان:

فالعلم علمان: علم بالله وشرعه وما يفيد الناس في صلاح دينهم ودنياهم،

(١) مدارج السالكين ٣ / ٥٤.

وهذا صاحبه مأجور في الدنيا؛ لأنه سيعلم ما به يصلح دينه ودنياه، وفي الآخرة له من الله ـ عز وجل ـ الأجر الجزيل، ويكفيك في ذلك ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)** [١] وقس على ذلك كل علم يقربك من ربك فإن لك به نعمة في الدنيا وأجر جزيل في الآخرة.

وعلم ساقط مرذول يباعدك عن ربك كالعلم بأخبار الفن والكُرة وغيرها مما تفنى فيه الأعمار، وتخرب بسببه الديار، فمن الناس من يعلم عن بعض الفنانين والمتهتكين ما لا يعلمه عن أبيه من النسب، فعالم هذا والمنشغل به قد أهدر عمره بدداً، وضاعت أوقاته سدىً.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إذا مر يوم لم أقتبس هدى ولم أستفد علماً فما ذاك من عمري.

لذا كان للسلف حال عجيب في تحصيل العلم نكتفي هنا بمثال:

قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: (كيف شهوتك للعلم؟)، قال: أسمع بالحرف ــ أي بالكلمة ــ مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به ما تنعمت به الأذنان، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟، قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره [٢].

والعمل أيضاً عملان: عمل في مرضاة الله من صلاة وصيام وزكاة وحج وبر والدين وسعي على الرزق لكف النفس وجمع للمال من حله لإنفاقه في طاعة.

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٩١٠، وقال حديث حسن صحيح غريب، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٩٨٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٤٦٩، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣٣٢٦.

(٢) علو الهمة ص ١٤٧. وانظر من ص ١٤١ــ ٢٠٧ لتعرف مدى حرص السلف على أوقاتهم في طلب العلم ومدى علو همتهم في ذلك.

وعمل في معصية الله من لهو ولعب ومزاح وتحصيل للمال من حرام وبعثرته في عربدة ومجون.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما ندمت على شيء كندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

وإليك طرفاً مما كان عليه السلف في الحفاظ على وقتهم في الطاعة:

كان أبو بكر بن عياش يقول: لو سقط من أحدكم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي،وهو يذهب عمره ولا يقول : ذهب عمري، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات، ويحفظون الساعات، ويلازمونها بالطاعات (١).

قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره .وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل، وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني : ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبَّدت نظيرها وزدت عليه. وقال أحد العباد : لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غمّاً، ما كان ذلك بكثير، وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله ؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما (٢).

قال ابن الجوزي : رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما يَنْفَق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الأخبار بالنافق(٣)

---

(١) الياقوتة لابن الجوزي ص ٥٧ .

(٢) علو الهمة ص ٢٠٩ . وانظر ص ٢٠٩- ٢١٦ لتعرف مدى تقصيرنا.

(٣) أي الذي يكثر فيه البيع والشراء.

هناك فيستكثرون منه فيزيد ربحهم، والغافلون منهم يحملون ما اتفق(١) وربما خرجوا لا مع خفير(٢)، فكم ممن قد قُطعَت عليه الطريق فبقى مفلساً، فالله الله في مواسم العمر، والبدار قبل الفوات، واستشهدوا العلم، واستدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد (٣).

والمال أيضا على ضربين: غاية ووسيلة فمن اتخذه غاية سلك لجمعه كل طريق، وباع في تحصيله الغالي والنفيس، وانشغل بذلك جمعاً، وعدًّا، وخوفاً على الفراق وهلعاً، حتى صار له عبداً، فتعس عبد الدرهم والدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.

ومن علم أنه وسليه احترز في جمعه بما يحل وأنفقه فيما يرضى ربه بغير بذخ ولا إسراف ولا مخيلة، فهان في نفسه، لأنه يريد منه البُلغة، وما زاد فهو نافلة، لا يفرح إن بقيت، ولا يحزن إن فُقدت، وتلمح ذلك في سير من سلف فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة وهو فرح مسرور، وتحلل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من ماله ست مرات لما علم أنه سيدخل الجنة حبواً بسبب ماله.

فإن أردت أن تحفظ وقتك فلا سبيل إلى حفظه إلا في علم نافع ، أو عمل صالح ، أو مال ، هو وسيلة لا غاية.

قال ابن القيم: السَنة شجرة والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل، وإنما يكون الجداد (٤) يوم المعاد فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها (٥).

---

(١) ما استطاعوا حمله وإن لم يكن فيه فائدة.
(٢) أي بغير حراسة في مكان موحش.
(٣) صيد الخاطر ص ١٥٥، ١٦٦ .
(٤) الجداد: الحصاد .
(٥) الفوائد ص ٢٢٥ .

قال أحمد شوقي :

دقـات قلب المرء قـائلة لـه : إن الحـيـاة دقـائـق وثـوان
فـارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فـالذكـر للإنسـان عـمـرٌ ثان

قال ابن الجوزي: من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما في أيدينا، مع العلم بقصر العمر، وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل ههنا. فيا قصير العمر اغتنم يومي مني وانتظر ساعة النفر وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خُلق له، واحمل نفسك على المرِّ، واقمعها إذا أبت، ولا تُسرِّح لها في الطول، فما أنت إلا في مرعى. وقبيح بمن كان بين الصفين أن يتشاغل بغير ما هو فيه (١)

وقال ابن القيم: فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر (أى: الحياة)، فالكَيِّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالماً غانماً، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه،ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه،ويمتد أمله، ويُحصر بالتسويف، والوعد والتأخير والمطل، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته؛ فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزويد، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها، فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذ يحمد سراه، وينجاب عنه كراه، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه(٢).

ولن يستقيم لك ذلك إلا إذا انصرفت عن صحبة البطالين، فإن لم تقدر فعوِّد نفسك التغافل عنهم حال وجودهم بما يفيدك، وليكن حالك معهم كحال ابن

(١) صيد الخاطر ص ٤١٣- ٤١٤ .
(٢) طريق الهجرتين ص ١٧٦ .

الجوزي إذ يقول: أعوذ بالله من صحبة البطالين لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة؛ ويُسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني وما يتخلله غِيبَة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوَّق إليه واستوحش من الوحدة وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد؛ فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت منهم بين أمرين:

إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان فصرت أدافع اللقاء جهدي فإذا غلب قصرتُ في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً فجعلتُ من المستعد للقائهم قطع الكاغد (الورق)، وبرى الأقلام، وحزم الدفاتر فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم (حتى لا) يضيع شيء من وقتي، نسأل الله - عز وجل - أن يعرفنا أوقات العمر وأن يوفقنا لاغتنامه ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله؛ فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث (أي الحديث في الحوادث الجارية) من السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك، فعلمتُ أن الله تعالى لم يُطْلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [فصلت: ٣٥] (١).

وقال: فكم يُضيِّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل وهذه الأيام

(١) صيد الخاطر ص ٢٤٠.

مثل المزرعة فكأنه قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر ويتوانى ؟ .

والذي يعين على اغتنام الزمان الإنفراد والعزلة مهما أمكن والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يَلْقى وقلة الأكل فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل، ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته (١).

ساق أبو نعيم في الحلية بسنده عن إبراهيم بن أدهم قال: بلغني أن الحسن البصري رأى النَّبيّ ﷺ في منامه ، فقال: يا رسول الله عظنى، قال: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له (٢).

(١) السابق ص ٤٩٧ .
(٢) حلية الأولياء ٨ / ٣٥ .

الوقفة السابعة

[فشكا ذلك إلى الراهب فقال: "إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل:حبسني الساحر "] .

وفيها درسان:

الدرس الأول: وجوب طلب العلم الشرعي :

يقول الشيخ ياسر برهامي: ليتأمل طلاب العلم هذا الحرص من الغلام على طلب العلم؛ رغم الضرر الذي يتعرض له من أهله،ومن الساحر، ويحضر الدرس ويواظب عليه ولو ضُرب، فأين طلاب العلم من هذا؟، أتى علينا وقت تُتهم فيه الدعوة بأنها ليست إلا طلب علم، فإذا نحن الآن لا نجد طلاب علم صادقين في الطلب ! لماذا يُعرِض الكثير عن الدرس؟؛ رغم أنه لا يضربهم أحد ولا يؤذيهم، وإنما هو الانشغال بالدنيا، فاحذر يا أخي من ذلك،فإن الإعراض عن طلب العلم يستجلب إعراض الرب سبحانه عنك، فقد ورد عن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رَسُول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رَسُول الله ﷺ وذهب واحد فوقفا على رَسُول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها،وأما الآخر فجلس خلفهم،وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رَسُول الله ﷺ قال :« **ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه** » [١]، فالثالث أعرض عن مجلس العلم ، فأعرض الله عنه .

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٦، ٤٦٢ ، ومسلم برقم ٢٦ / ٢١٧٦ ، والترمذي برقم ٢٧٢٤ ، وابن حبان برقم ٨٦ ، وأحمد برقم ٢١٩٥٧ ، والبيهقي في سُننه الكبرى برقم ٥٦٨٣ ، ورياض الصالحين برقم ١٤٤٩ ، وما قبله من قصة أصحاب الأخدود ص ١٨ .

الدرس الثاني: قد يجوز الكذب أحياناً :

جعل الله - عز وجل - الصدق من شيم الأنبياء فقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) ﴾[مريم : ٤١] ، وقال واصفاً إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) ﴾[مريم : ٥٤] ،وقال عن إدريس عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) ﴾[مريم : ٥٦] ، وكان النَّبيّ ﷺ موصوفاً بين بني قومه حتى قبل مبعثه بالصادق الأمين ، وطالبنا الله - عز وجل - به ، فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾[التوبة : ١١٩] .

وحض النَّبيّ ﷺ على الصدق وأعلى من شأن أهله ونفَّر من الكذب وحقَّر من شأن أهله في أكثر من حديث، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :قال رَسُول الله ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً ؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً** » (١) .

وعن أبي سفيان صخر بن حرب في حديثه الطويل في قصة هرقل، قال هرقل: فماذا يأمركم (يعني النَّبيّ ﷺ)، قال أبو سفيان: قلت يقول: « **اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة** » (٢) .

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٧٤٣ ،ومسلم برقم ١٠٣ / ٢٦٠٧ ، وأبو داود برقم ٤٩٨٩ ، والترمذي برقم ١٩٧١ ، وابن حبان برقم ٢٧٤ ، والطبراني في الكبير برقم ٨٥١٨ ، ووالسيوطي في الجامع الصغير برقم ٢٠٤٤ ، وكنز العمال برقم ٦٨٥٩ ، ورياض الصالحين برقم ٥٤، ١٥٤٢ .

(٢) قطعة من حديث طويل رواه البخاري برقم ٧ ، ومسلم برقم ٧٤ / ١٧٧٣ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٨٣٨٨ ، وأحمد برقم ٢٣٧٠ ، والنسائي في الكبرى برقم ١١٠٦٤ ، وابن أبي شيبة برقم ٣٣٧٩٢ ، ورياض الصالحين برقم ٥٦، ٣٢٧ .

وعن أبي محمد الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما قال حفظت مِنْ رَسُول الله ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ؛ فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة** » (١).

عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنه أنه قَالَ : قيلَ لِرَسُول الله ﷺ : أيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ قَالَ : « **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْب، صَدُوق اللِّسَان** » . قَالُوا : صَدُوقُ اللِّسَان، نَعْرِفُهُ. فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ ، قَالَ « **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ ، لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَد** » (٢).

وجعل النَّبيّ ﷺ الكذب من علامات النفاق العملي فقد ورد عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** »(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُول الله ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان** » (٤).

وجعل عقوبة من يكذب بغير حاجة أن يمقته الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٣٧ وصححه ، والحاكم برقم ٤٤ / ٧٠٤٦ وصححه، والنسائي برقم ٥٧١٠ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٤٢١٣ وصححه، وكنز العمال برقم ٧٢٩٦ ، ورياض الصالحين برقم ٥٥ ، وصححه الألباني في سُنن الترمذي برقم ٢٥١٨ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٧٨ ، وفي مشكاة المصابيح برقم ١٥ / ٢٧٧٣ .

(٢) رواه ابن ماجة برقم ٤٢١٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٦٠٤ ، وكنز العمال برقم ٧٨٣ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٩٢٨ ، وفي سُنن ابن ماجة برقم ٤٢١٦ .

(٣) رواه البخاري برقم ٣٤، ٢٣٢٧، ٣٠٠٧ ، ومسلم برقم ١٠٦ / ٥٨ ، وأبو داود برقم ٤٦٨٨ ، والنسائي برقم ٥٠١٨ ، والترمذي برقم ٢٧٦٦ ، والجامع الصغير برقم ٩١٦ ، وكنز العمال برقم ٨٤٨ ، ورياض الصالحين برقم ٦٩٠، ١٥٤٣ .

(٤) رواه البخاري برقم ٣٣، ٢٥٣٦، ٢٥٩٨، ٢٧٤٤ ، ومسلم برقم ١٠٧ / ٥٩ ، والترمذي برقم ٢٧٦٦ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٢٥ ، ورياض الصالحين برقم ١٩٩، ٦٨٩ .

رسول الله ﷺ قال: « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم** (قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم) **ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر** »[١].

وحذر النَّبيّ ﷺ من الكذب حتى في المزاح فعن بهز بن حكيم قال: حدثني أبي، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يحدِّث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له** »[٢].

بل نهى النَّبيّ ﷺ عن الكذب فيما هو أدق من ذلك في الرؤى و الأحلام وجعله من أعظم الافتراء فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال: «**أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا** »[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال: «**من تحلَّم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون، أو يفرُّون منه، صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صوَّر صورة عُذِّب، وكُلِّف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ** »[٤].

ولكن قد يجوز الكذب أحياناً لمصلحة شرعية راجحة وهذا ما أوضحه الإمام النووي حين قال: وأما المستثنى منه (أي الكذب) فقد روينا في صحيحي البخاري ومسلم، عن أُمّ كلثوم رضي الله عنها ؛ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لَيْسَ**

---

(١)رواه مسلم برقم ١٧٢/ ١٠٧ ، وأحمد برقم ١٠٢٣٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٤٩٢ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٥٤٠٥ ، وسنن النسائي الكبرى برقم ٧١٣٨ ، والجامع الصغير برقم ٣٥٤١ ، وكشف الخفاء برقم ١٠٤٠ ، وكنز العمال برقم ٤٣٩٣٥ ، ورياض الصالحين برقم ٦١٧، ١٨٥٢ .

(٢)رواه أبو داود برقم ٤٩٩٠ ، والترمذي برقم ٢٤١٧ وحسنه، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٩٦٤٨ وصححه، وكشف الخفاء برقم ٢٩٧٥ ، وكنز العمال برقم ٨٢١٥ ، وحسنه الألباني في سنن أبي داود برقم ٤٩٩٠ ، وفي سنن الترمذي برقم ٢٣١٥ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٧١٣٦ .

(٣)رواه البخاري برقم ٦٦٣٦ ، والجامع الصغير برقم ٢٤٧٩ ، ورياض الصالحين برقم ١٥٤٥ .

(٤)رواه البخاري برقم ٦٦٣٥ ، والترمذي برقم ٢٣٨٥ ، وابن ماجة برقم ٣٩١٦ ، وكنز العمال برقم ٤١٤٥٧ ، ورياض الصالحين برقم ١٥٤٤ .

الكَذَّابُ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمي خَيْراً أوْ يَقُولُ خَيْراً »[١] ، هذا القدر في صحيحيهما. وزاد مسلم في رواية له: قالت أُمّ كلثوم: ولم أسمعه يُرخِّصُ في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث ـ يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها. فهذا حديث صريح في إباحة بعض الكذب للمصلحة، وقد ضبط العلماءُ ما يُباح منه، وأحسنُ ما رأيتُه في ضبطه، ما ذكرَه الإمامُ أبو حامد الغزالي فقال: الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصد، فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكن التوصلُ إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذبُ فيه حرامٌ لعدم الحاجة إليه، وإن أمكنَ التوصل إليه بالكذب ولم يمكن بالصدق فالكذبُ فيه مباحٌ إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً، وواجبٌ إن كان المقصود واجباً، فإذا اختفي مسلم من ظالم وسأل عنه: وجبَ الكذبُ بإخفائه، وكذا لو كان عندَه أو عندَ غيره وديعة وسأل عنها ظالمٌ يُريدُ أخذَها وجبَ عليه الكذب بإخفائها، حتى لو أخبرَه بوديعةٍ عندَه فأخذَها الظالمُ قهراً، وجبَ ضمانُها على المُودَع المُخبِر، ولو استحلفَه عليها لزمَه أن يَحلفَ ويورِّي في يمينه، فإن حلفَ ولم يورّ، حنثَ على الأصحّ، وقيل لا يحنثُ، وكذلك لو كان مقصودُ حَرْبٍ أو إصلاحِ ذاتِ البين أو استمالة قلب المجني عليه في العفو عن الجناية لا يحصل إلا بكذب، فالكذبُ ليس بحرام، وهذا إذا لم يحصل الغرضُ إلا بالكذب، والاحتياطُ في هذا كلّه أن يورّى؛ ومعنى التورية أن يقصدَ بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ، ولو لم يقصد هذا بل أطلق عبارةَ الكذب فليس بحرام في هذا الموضع.

قال أبو حامد الغزالي: وكذلك كل ما ارتبط به غرضٌ مقصودٌ صحيح له أو

(١) رواه البخاري برقم ٢٥٤٦ ، ومسلم برقم ١٠١ / ٢٦٠٥ ، وأحمد برقم ٢٧٣١٣ ، وابن حبان برقم ٥٧٣٣ ، والطبراني في الكبير برقم ١٨٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١١٠٩٦ ، والنسائي في سُننه الكبرى برقم ٨٦٤ ، والجامع الصغير برقم ٧٥٨١ ، وكنز العمال برقم ٨٢٥٢ ، ورياض الصالحين برقم ٢٤٩ .

لغيره، فالذي له مثلُ أن يأخذَه ظالمٌ ويسألَه عن ماله ليأخذَه فله أن ينكرَه، أو يسألَه السلطانُ عن فاحشةٍ بينَه وبينَ الله تعالى ارتكبَها فله أن ينكرَها ويقول ما زنيتُ، أو ما شربتُ مثلاً، وقد اشتهرتِ الأحاديث بتلقين الذين أقرّوا بالحدود الرجوع عن الإقرار.

وأما غرضُ غيره، فمثل أن يُسأَلَ عن سرّ أخيه فينكرَهُ ونحو ذلك.

وينبغي أن يُقابِلَ بين مَفسدةِ الكذب والمفسدة المترتبة على الصدق؛ فإن كانت المفسدةُ في الصدق أشدّ ضرراً فله الكذبُ، وإن كان عكسُه، أو شكّ، حَرُمَ عليه الكذبُ؛ ومتى جازَ الكذبُ فإن كان المبيحُ غرضاً يتعلّقُ بنفسه فيستحبّ أن لا يكذبَ، ومتى كان متعلقاً بغيره لم تجز المسامحةُ بحقّ غيره؛ والحزمُ تركه في كل موضعٍ أُبيحَ إلا إذا كان واجباً.

واعلم أن مذهبَ أهل السُّنَّة أن الكذبَ هو الإخبار عن الشيء، بخلاف ما هو، سواء تعمدتَ ذلك أم جهلته، لكن لا يأثمُ في الجهل وإنما يأثمُ في العمد، ودليلُ أصحابنا تقييد النَّبيّ ﷺ **"مَنْ كَذَبَ عَليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"** (١).

ويستفاد من ذلك: جواز الكذب لتحصيل العلم الشرعي؛ الذي به يستقيم الدين، ويتعرف الإنسان به على رب العالمين، فإن حال بين المرء وبين تحصيل هذا العلم أحد، حُق له أن يكذب عليه في سبيل تحصيله لذلك العلم، وفي قصتنا رخَّص الراهب للغلام بالكذب لأجل مصلحتين: الأولى : تفادي الأذى الواقع عليه من جراء الضرب ، الثانية: تحصيل العلم الشرعي.

وإن استخدم التعريض والتورية من غير كذب كان أولى كما قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.

(١) رواه البخاري برقم ١٢٢٩ ومسلم برقم ٣ / ٣ ، وأبو داود برقم ٣٦٥١ ، والترمذي برقم ٢٧٩٦ ، وابن ماجة برقم ٣٧ ، وما قبله من الأذكار للنووي ص ٥١٥، ٥١٦ .



الوقفة الثامنة

[فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال : " اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ "] .

وفيها درس : وجوب التمييز بين الحق والباطل:

إذا عُرض على الإنسان حق وباطل وجب عليه أن يستفرغ جهده في التمييز بينهما ليتعرف على الحق فيتبعه والباطل فيجتنبه، وها هو غلامنا يريد أن يستبين أمر الراهب والساحر فكل منهما يؤكد له أن الحق معه، وكلاهما له حجته ولكن أيهما على صواب ؟ ، فلما سنحت له الفرصة أراد أن يميز بين الغث والثمين فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فبدا له أن يحكّم الواقع فيما حاك في صدره وهذا المسلك قد يكون صحيحاً عند اندثار العلم وانعدام أهله، فلما صدقت نيته بلغه الله ـ عز وجل ـ ما أراد، وحكم له حكماً فصلاً ميز به بين الحق والباطل، أما في حال وفرة العلم ووجود أهل العلم الثقات فيجب الرجوع إليهم في التمييز بين ما اشتبه على الناس، ويجب أن يصدر الواحد منا عن رأيهم طالما أنه يوافق الكتاب والسُّنَّة وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .



الوقفة التاسعة

[فأخذ حجراً فقال: " اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس " ،فرماها فقتلها ومضى الناس] .

وفيها درسان :

الدرس الأول: اللسان ينطق بما يستقر في القلب :

قيل: "القلوب أوعية والألسنة مغارفها" فاللسان ينطق بما يستقر في القلب، وكل إناء بما فيه ينضح، ولذا تجد الغلام رغم تحيره بين الراهب والساحر، لكنه عندما أراد معرفة الحق؛ بدأ بدعاء الله وهذا مما تعلمه من الراهب، ثم قدم الراهب في الذكر وهذا دليل على أن قلبه كان مائلاً إلى حال الراهب أكثر من ميله إلى الساحر.

وفي ذلك يقول الشيخ ياسر برهامي: في هذا الجزء من القصة نرى أثر الازدواج في منهج التلقي عند الغلام وهذا هو الذي أحدث له نوعاً من الاضطراب والتردد بين المنهجين وإن كان واضحاً ميله للمنهج الحق من عدة نقاط :

أولها : أنه فزع إلى الدعاء والتضرع إلى الله متوسلاً إليه بإلوهيته ليبين له أيُ الأمرين أفضل ولا شك أن هذا الأمر إنما تعلمه من الراهب لا من الساحر.

والدعاء سلاح من أسلحة المؤمنين ومن أعظم أسباب نصرهم وفوق أنه مأمور به شرعاً كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

فهو يوافق حاجة فطرية ضرورية وهي شعوره بالفقر والحاجة والعجز عن المعرفة وعن القدرة معاً إلا ما هُدي إليه وأُعين عليه وهو بالضرورة يلجأ في دعائه

إلى « فوق » وهذا من أوضح الأدلة الفطرية على علو الله وفوقيته على خلقه.

ثانيها: أنه في دعائه طلب ما يحبه الله « اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك » فهو إذن يبحث عما يحبه الله - عز وجل - وهذا أيضاً بلا شك مما تعلمه من الراهب لا من الساحر.

وهذا ينبهنا إلى أمر عظيم الشأن في التربية وهي أنه يلزم أن يُربي الأبناء على الحب: حب الله - عز وجل - وحب رسوله ﷺ وحب طاعته وأن تكون همة الإنسان مصروفة إلى البحث عن ذلك وأن يكون هو الميزان الذي توزن به الأمور.

والحب روح العبادة وبه يجد الإنسان أعظم نعيم في هذه الدنيا، وهذا الأمر يسد فاقة القلب وضرورته التي لا يسدها سواه فإن القلوب فطرت على الميل إلى الله، فالحنيف هو المائل إلى الله المعرض عن غيره كما قال: ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم : ٣٠] ، فالقلوب لا تستقر ولا تستريح إلا بحب الله وحب من يحبه وحب ما يحبه من الطاعات والأعمال.

ثالثها: أنه قدم في كلامه أمر الراهب على أمر الساحر فقال: « إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر» وهذا يدل دلالة واضحة على ميله إلى أمر الراهب.

رابعها: أنه سعى لمصلحة الناس وخيرهم فهو يدعو الله ليزول عنهم خطر ذلك الحيوان الذي أفزعهم وسد عليهم طريقهم، وهذا الأمر إنما حصل له من الراهب لا من الساحر فإن الساحر إنما يعلمه كيف يكيد وكيف يفرق بين المرء وزوجه ويعلمه ما يضر ولا ينفع كما أخبر الله عنهم :﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، فلا نفع في السحر مطلقاً أما الإسلام فهو يعلم أتباعه حب الخير للخلق في دينهم ودنياهم كيف لا ؟ ، والرسل هم أنصح الخلق للخلق وقولهم دائماً﴿ **وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ [الأعراف : ٦٨] ، وأتباعهم هم خير الناس للناس.

وهذا الأمر أوضح ما يكون في أُمَّة محمد ﷺ الذي قال : أنتم خير الناس للناس تدخلونهم الجنة في السلاسل »[١] حديث صحيح فأمر الجهاد الذي قد يظنه البعض شدة وقسوة هو في الحقيقة رحمة وشفقة بالبشرية، فهم يزيحون عنهم الطواغيت التي تعبدهم لغير الله وتسلمهم لعدوهم اللدود الشيطان الرجيم فقد يكونون في أول الأمر أسرى للمسلمين في السلاسل فلا يمسي أحدهم بعد تعلمه الإسلام إلا والإسلام أحب إليه من أهله بل ونفسه التي بين جنبيه.

ومن هنا فإن حب الخير للناس صفة أساسية في الدعاة إلى الله تفتح لهم القلوب وتقربهم من الخلق وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وهذه السمة لابد أن تظهر في الداعي من أول مقابلة ، ألم تسمع إلى قول الله تعالى عن صاحبي يوسف في السجن أنهما قالا له ولم يكن لهما به معرفة من قبل: ﴿ **نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف : ٣٦] .

فالإحسان إلى الناس وحب الخير لهم يظهر في الكلمة والبسمة ونبرة الصوت ورقة العبارة والرفق في الحديث والنصح الدائم.

ولا ينافي هذا أبداً بغض الكافرين وعداوتهم حال كفرهم فإنك إنما ترجو إخراجهم من هذا الذي تكرهه وتبغضهم من أجله إلى ما تحبه وتحبهم لو فعلوه.

والقول اللين لا ينافي بغض الكافر على كفره قال تعالى: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** (٤٤) ﴾ [طه : ٤٤] .

والبعض يظن أن غرض الداعي في إقامة الحجة أن يجعل الناس يستحقون العذاب وهذا يظهر في طريقته في الدعوة والبيان والاهتمام بإصدار الأحكام حتى قبل الدعوة والبلاغ وهذا دائماً يكثر في أهل البدع ولا شك أن الإحسان

---

(١) من قول أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه البخاري برقم ٤٢٨١ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام.

يأسر الإنسان وتأمل قصة إسلام ثمامة بن أثال لتعرف أثر الإحسان في الدعوة إلى الله فلا ريب أن سبيل السُّنَّة في البذل والعطاء وحب الخير العاجل والآجل لبني البشر.

خامسها: أنه أيقن بقدرة الله الذي لا يعجزه شيء على قتل هذه الدابة العظيمة برميه حجر من غلام مثله وهذا مما لا يقتل حيواناً صغيراً فضلاً عن دابة كبيرة عظيمة ولكنها الثقة بالله وقدرته وحسن التوكل عليه من محب صادق المحبة يبحث عنها بجهده ويتحمل في سبيلها الألم والضرر ويتضرع إلى ربه ومولاه متوسلاً داعياً .

فبهذا كله قويت تلك الرمية على قتل الدابة كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ [الأنفال : ١٧] ، وبهذا الإخلاص والصدق صار الغلام في عداد الصالحين الأولياء [١].

فلما عمُر قلب الغلام بالإيمان كان لسانه موافقاً لقلبه وما تخلف عنه، فالمرء مخبوء تحت لسانه متى تكلم بانت خلاله، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ [محمد : ٣٠] .

قال ابن كثير: أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه [٢].

قال السعدي: أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر [٣].

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٢١ – ٢٦ .
(٢) عمدة التفسير ٣ / ٢٨٦ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٨ .

الدرس الثاني: كرامات الأولياء :

من هم الأولياء ؟ :

يظن معظم الناس أن كل من ظهرت على يديه خوارق العادات(١) أنه ولي، بل زعموا أن المعتوهين والمجانين هم أولياء لله، فكل من ظهرت عليه علامات البله والجنون فهو ولي من أولياء الله، ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ فتعالوا نتحاكم إلى كلام الله لنعرف من هو الولي بحق، يقول جل في علاه: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)** ﴾ [يونس: ٦٢ـ ٦٤]. ففي هذه الآيات يحدد الله ـ عز وجل ـ صفات أوليائه بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فالولي هو كل مؤمن تقي .

وصفات المؤمنين مبثوثة في طول القرآن وعرضه ومن أهمها ما ورد في أول سورة المؤمنون وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)** ﴾ [المؤمنون :١-٩] .

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ**

---

(١) **تنقسم خوارق العادات إلى أربعة أقسام:**

[١] **معجزة**: وهي مقترنة بدعوى النبوة .

[٢] **إرهاصة**: وهي ما يظهر من الخوارق قبل ظهور النبوة، وهذه والتي قبلها قد انتهيتا بختم النبوة بالحبيب محمد ﷺ .

[٣] **كرامة**: وهي ما يظهر على يد شخص ظاهره الصلاح غير مدعٍ للنبوة أو الرسالة.

[٤] **استدراج**: وهي ما يظهر من خوارق على يد الفاسق أو الكافر. وهذه والتي قبلها باقيتان إلى قيام الساعة.

آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

[الأنفال : ٢-٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة : ١٥-١٧] .

أما صفات المتقين فقد ذكرها الله ـ عز وجل ـ في أكثر من موضع من كتابه ومنها على سبيل المثال قوله عز وجل : ﴿ الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [البقرة : ١-٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران : ١٣٣-١٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبَات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فمن استجمع هذه الصفات فهو مؤمن تقي، ومن كان مؤمناً تقياً فقد صار لله ولياً، وليس من لوازم الولاية أن تظهر على يديه خوارق العادات، ولكن من ظهرت على يديه خوارق العادات يجب أن يُعرض أمره على الكتاب والسُّنَّة فإن وافقهما فهو من أولياء الله ومن خالفها فهو من أولياء الشيطان .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشي على الماء لم يُغتر به حتى يُنظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه(١) .

فليس كل من ظهرت على يديه خوارق العادات ولياً لله بل الولي الذي يجده ربه - عز وجل - حيث أمره ويفتقده حيث نهاه، فهو مخلص، صوام، قوام، آمر بمعروف، ناه عن منكر، يتقرب إلى الله - عز وجل - بما فرضه عليه، ويزداد منه قرباً باستنانه بسُنَّة الحبيب محمد ﷺ ، وفي ذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي**

(١) التوضيحات الحسان ص ١٠٤ .

يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته » [١].

واعلم أن أولياء الله على الحقيقة لا يحبون أن تظهر على أيديهم كرامات، أو خوارق عادات، وذلك لأنهم يخافون أن تكون قد عُجِّلت لهم حسناتهم ومن هؤلاء التابعي الجليل أويس القرني،فقد ورد عن الحسن أنه قال :قال رسول الله ﷺ :« **يدخل بشفاعة رجل من أمتي الجنة أكثر من ربيعة ومضر، أما أسمى لكم ذلك الرجل؟** ، قالوا: بلى، **قال: ذاك أويس القرني**، ثم قال: **يا عمر! إن أدركته فاقرئه مني السلام وقل له حتى يدعو لك** » ، **وأعلم أنه كان به وضح** [٢]، **فدعا الله فرفع عنه ثم دعاه فرد عليه بعضه**، فلما كان في خلافة عمر قال عمر وهو بالموسم: ليجلس كل رجل منكم إلا من كان من قرن، فجلسوا إلا رجلاً، فدعاه فقال له: هل تعرف فيكم رجلاً اسمه أويس؟ ، قال: وما تريد منه؟ ، فإنه رجلٌ لا يُعرف يأوي الخربات لا يخالط الناس، فقال: اقرئه منِّي السلام وقل له حتى يلقاني ، فأبلغه الرجل رسالة عمر فقدم عليه، فقال له عمر: أنت أويس؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين! فقال: صدق الله ورسوله هل كان بك وضح فدعوت الله فرفعه عنك ثم دعوته فرد عليك بعضه ؟ فقال: نعم، من أخبرك به ؟ فوالله ما أطلع عليه غير الله ! ، قال: أخبرني به رسول الله ﷺ وأمرني أن أسألك حتى تدعو لي وقال: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أُمَّتي أكثر من ربيعة ومضر ثم سماك، فدعا لعمر ثم قال له: حاجتي إليك يا أمير المؤمنين أن تكتمها علي وتأذن لي في الانصراف، ففعل، فلم يزل مستخفياً من الناس حتى قتل يوم نهاوند فيمن استشهد » [٣].

---

(١) رواه البخاري برقم ١٣٧ ، والجامع الصغير برقم ١٧٥٢ ، وكنز العمال برقم ٢١٣٢٧ ، ورياض الصالحين برقم ٩٥ .

(٢) مرض يصيب الجلد «البرص» وينشأ عن غياب المادة الملونة من بعض أجزاء الجلد .

(٣) كنز العمال برقم ٣٧٨٢٨ .

فانظر إليه رحمه الله يكتم حاله فيحتقره واحد من قومه ويقول: (إنه لا يُعرف يأوي الخربات لا يخالط الناس) ولم يفرح بظهور حاله، ولكنه طلب من الفاروق عمر رضي الله عنه أن يكتم أمره، ثم استخفي بين الناس حتى لا يُعلم حاله.

أما أولياء الشيطان فيُظهرون ما يظهر لهم من خوارق العادات لكي يكثِّروا مريديهم ويلبِّسوا على خفاف العقول ومعظم ما يظهر على أيديهم من قبيل السحر والشعوذة.

واعلم أنه ما من ولي لله على الحقيقة صرح أنه ولي لله ، أما أولياء الشيطان فيدَّعون ذلك رغم أنهم ليسوا كذلك، وهذا من جرأتهم على الله وحلمه عليهم، وذلك لأن وصف النفس أو الغير بالولاية نوع من التزكية التي نهى الله عنها فقال: ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٢] .وقد نهى النَّبيّ ﷺ عنها كذلك، فقد نهى إحدى الصحابيات عن تزكية عثمان بن مظعون رضي الله عنه رغم أنه من صحابته رضي الله عنه فقد ورد عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء، امرأة من الأنصار بايعت النَّبيّ ﷺ ، أخبرته: أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي تُوفي فيه، فلما تُوفي وغُسل وكُفن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله . فقال النَّبيّ ﷺ : « **وما يدريك أن الله أكرمه** » ، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال: «**أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدرى، وأنا رسول الله ، ما يُفعل بى**» . قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً » (١) .

ثم إنهم أولياء من ؟ أولياء الله ، فالله - عز وجل - أعلم بهم من غيره لأنهم أولياؤه، فوصف أحد الناس بالولاية أو سلبها عنه من التألي على الله ، والدخول فيما لا يعنى، فمن علمنا عليه الصلاح شهدنا له بالخير ولا نزكيه على الله سواء

(١) رواه البخاري برقم ١١٨٦، ٢٥٤١، ٣٧١٤٠، وأحمد برقم ٢٧٤٩٧ ، والحاكم في مستدركه برقم ١٤٠١ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٦٥٠٢ ، والنسائي في سُننه الكبرى برقم ٧٦٣٤ .

ظهرت عليه خوارق عادات أم لم تظهر، ومن لم تظهر على يديه خوارق العادات لا نقدح فيه وأمره إلى الله.

ولما كانت خوارق العادات عملة ذات وجهين وجه طيب (الكرامة) يظهر على يد أهل التقى، ووجه قبيح (استدراج) يظهر على يد أهل الضلال سعى أهل الضلال في كل واد تحصيلاً لها ومن هذه المسالك تعلم السحر والعمل به، وما حصلوها إلا بشق الأنفس، وبعد أن ارتهنوا النفس والنفيس في يد الشيطان، ولو أنهم التزموا شروطها من الإيمان والتقوى لأتت إليهم راغمة وإلى ذلك أشار ربنا في محكم كتابه فقال : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾ .

[البقرة : ١٠٢ - ١٠٣] .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - تعقيباً على هذه الآيات:

فبين سبحانه أن طلاب السحر يعلمون أن صاحبه ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب و لكن يطلبون به الدنيا من الرئاسة والمال ولو أنهم آمنوا و اتقوا لحصل لهم من ثواب الله في الدنيا والآخرة ، ما هو خير لهم مما يطلبونه (١).

---

(١) مجموع الفتاوي ٢٩ / ٢٢٣ .

المرحلة الثالثة

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾

الوقفة العاشرة

[فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : " أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ "].

وفيها خمسة دروس

الدرس الأول: معرفة قدر النفس :

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم، فبعه وأطعم منه ألف جائع، واشترِ خاتماً من حديد بدرهم، واكتب عليه "**رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه**" (١) .

فمن الإنصاف معرفة قدر النفس ووضعها في مكانها الصحيح، ولن يتأتى ذلك إلا بأن يعرف الإنسان كمالاته ونواقصه فهو أبصر بذلك من غيره، وأعلم بعيبه فضلاً عن مميزاته عما سواه، فمن رزقه الله ـ عز وجل ـ الإنصاف من نفسه لن يدعي لها فضلاً ليس فيها، ولن يسلبها نقيصة لازمتها، ولكن يدعو الله ـ عز وجل ـ أن تزيد حسناته ويجتهد مستعيناً به أن يتخلى عن مثالبه.

ومن كان هذا منهجه ألزم نفسه التواضع، وشعر أن كل الناس أفضل منه لأنه لا يرى إلا مميزاتهم ولا يرى لهم عيباً، أما هو فيرى مميزاته وعيوبه فينتقص نفسه كلما رأى عيبها، ولذا فهو يشعر دائماً بالتقصير وهذا قمة الإحسان فقد ورد أن عبد الله بن الزبير قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يا خاله متى يكون الرجل محسناً ؟ قالت : إذا شعر أنه مسيء. فقال سبحان الله ومتى يكون مسيئاً ؟ قالت : إن ظن أنه محسن.

---
(١) القرطبي ١٠ / ٥٩ .

فالشعور بالنقص دافع لتمام العمل، أما الشعور بالإحسان فهو أول النقصان، فالمنصف مع نفسه من عرف قدرها، وأنها أخس من أن يحسن الظن بها، فيكون دائماً في ازدياد.

وعلامة معرفة قدر النفس ألا يتطاول على غيره من أهل الفضل، وألا يزدري أهل الابتلاء، وأن يقر لأهل الفضل بفضلهم، وألا ينسب لنفسه ما ليس فيها، وأن يُحسن الظن فيمن أساء ويلتمس له عذر، وأن يقبل الحق من كل إنسان، فإذا جلس مع الصغير قال ما أعظمه اجتباه ربه في صغره فحسناته أكثر وسيئاته أقل، وإذا جلس مع الكبير قال ما أكرمه كان له سبق وفضل علم وعمل وكبير خبرة، وإن جلس مع رفيقه قال لعل له في الخفاء أعمالاً تربو على ما ظهر منه، فيزدري نفسه ويضعها دائماً في موقعها الصحيح.

ولما عرف الراهب قدر نفسه ما تحرج لحظة أن يقول لتلميذه أنت اليوم أفضل مني فإنه بذلك وصل إلى قمة شامخة لن يصل إليها إلا من عرف قدر نفسه حق المعرفة.

وفي ذلك يقول الشيخ ياسر برهامي: نرى هنا مثالاً عظيماً لكل مربٍ وداعية وأستاذ، فعندما علم هذا الراهب بما كان من الغلام من علامات الولاية من صدق المحبة وتحقيق الإخلاص لله - عز وجل - وما كان منه من دلائل الكرامة صرح له بأنه اليوم أفضل منه، ولم يدخله كبر، ولا عجب، ولا حسد، ولا نظر إلى سبقه، وطول عبادته، ولا نظر إلى سنه وصغر سن الغلام، ولا إلى أنه الأستاذ والغلام التلميذ، ولا وقع في نفسه خطيئة إبليس ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ [الأعراف : ١٢] التي هي أصل أخطر أمراض القلوب ومن أعظم أسباب الكفر والعناد، والعياذ بالله [١].

كما نلمح مدى معرفة الراهب بقدر نفسه من قوله أيضاً: "فإن ابتليت فلا تدل عليَّ" فليس ذلك هروباً من المواجهة، ولا تخاذلاً عن دين الله، ولكنه

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ٣٢ .

استشعر ضعفه البدني، وخشي على نفسه الفتنة إذا عُذِّب، وتواضع وما نسب نفسه إلى الوضاعة، وهذا من كمال معرفته بقدر نفسه في العلم والجسم، فلله دره، فمثل هذا حقيق أن يكون أستاذاً لمنقذ أمة.

الدرس الثاني: الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم :

وهذه مترتبة على سابقتها، وثمرة من ثمارها، فمن عرف قدر نفسه أقر لغيره من أهل الفضل بفضلهم، وما جال بخاطره أن يترفع على من يفضله، وعلى هذا تربى صحابة رسول الله ﷺ فكان الواحد منهم رغم ما له من فضل لا يعُد نفسه من الفضلاء، ويعترف لغيره من أولي الفضل بفضله عليه، فعن جبير ابن نُفير أن نفراً قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط ولا أقول بالحق منك يا أمير المؤمنين ! فأنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ ، فقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كذبتم والله لقد رأينا خيراً منه بعد النَّبيّ ﷺ ، فقال من هو يا عوف ؟ ، فقال: أبو بكر، فقال عمر: صدق عوف وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أضل من بعير أهلي [١] .

وعن زياد بن علاقة قال: رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يقول: إن هذا لخير الأمة بعد نبينا، فجعل عمر يضرب الرجل بالدرة ويقول: كذب الآخِر! لأبو بكر خير مني ومن أبي ، ومنك ومن أبيك !! [٢] .

وعن أبي الزناد قال: قال رجل لعليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال المهاجرين والأنصار قدَّموا أبا بكر وأنت أوفي منه منقبة وأقدم منه سلماً وأسبق سابقة ؟ ، قال: إن كنت قرشياً فأحسبُك من عائذة[٣] ، قال: نعم ، قال: لولا أن المؤمن

---

(١) حياة الصحابة ٣ / ١٥٦، ١٥٧ ، وآخر كلامه رضي الله عنه يقصد حينما أسلم أبو بكر رضي الله عنه وهو مازال على الشرك.

(٢) حياة الصحابة ٣ / ١٥٧ .

(٣) قبيلة من قبائل قريش.

عائذ الله لقتلتك، ولئن بقيت ليأتينك مني روعة حصراء(١) ، ويحك إن أبا بكر سبقني إلى أربع: سبقني إلى الإمامة وتقديم الإمامة، وتقديم الهجرة ، وإلى الغار، وإفشاء الإسلام، ويحك إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ [التوبة: ٤٠] (٢).

وبلغ عليًّا رضي الله عنه أن عبد الله الأسود ينتقص أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فدعا بالسيف فهم بقتله، فكُلِّم فيه، فقال: لا يساكنني في بلد أنا فيه فنفاه إلى الشام (٣) .

فالإقرار بالفضل لأهل الفضل من شِيَم النبلاء، وخِصال الأتقياء الأنقياء، ولا يرتقي هذا المرتقى الوعر إلا من عرف أن نفسه كفرس جموح فذللها، وأمسك بخطامها، وقادها قبل أن تجمح به فترديه على أم رأسه فيهوى في مستنقع آسن من الكبر، والعجب، وحب الذات، والاستئثار بالرأى، والأنفة على غيره، وتحقيرهم، فلا يُقر لفاضل بفضله، ولا يقيل لعاثر عثرته، وبدلاً من أن ينشغل بذاته فيصلحها تشغله بالحكم على غيره فيفسِّق هذا ويبدِّع هذا ويحقِّر هذا، ويقدح في هذا، فيتردى ويردي معه غيره من أبناء الدعوة في هوة سحيقة قل من يخرج منها سالماً غير مخدوش أو مجروح.

ومن هذا الباب، باب عدم الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، دخل الشيطان على بعض ضعاف النفوس ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم، والعلم منهم براء، فنفخ في أذنيه حتى ظن أنه قد جمع أطراف الفضل بين جنبيه، فنسب نفسه إلى العصمة فلا يُقِر لغيره بفضل، ثم ينثني كحية رقطاء، ينفث أول ما ينفث سُمه على أساتذته ومن علموه، ثم تزداد دركات هبوطه فيعلوا درجة في القدح فيمن هم أفضل وأعلم، ثم يزيد تدنياً فينال من الرموز، حتى وصل الحال ببعضهم أنه

---

(١) أمر يروِّعك فيضيِّق عليك نفسك.

(٢) حياة الصحابة ٣ / ١٥٨ .

(٣) حياة الصحابة ٣ / ١٥٩ .

بدأ يقدح في بعض الأعلام من تابعي التابعين، ثم التابعين، حتى وصل إلى صحابة رسول الله ﷺ ، ولا أستبعد اليوم الذي يأتي فيه ممن ينتسب لهذه الأمة من يتطاول على ربه متأسياً في ذلك بسلفه من اليهود، فإلى الله المشتكى.

فاعرف قدر نفسك، وضعها في موضعها الصحيح، واشغلها بالله - عز وجل - قبل أن تشغلك بغيره، وعبِّدها لله - عز وجل - قبل أن تعبِّدك لغيره، وقر لغيرك من ذوي الفضل بفضله، واعذر من أساء وارجو له الهداية، ولا تنسب أحداً إلى العصمة، ولا تأمن على حي فتنة، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهي أشد تقلباً من الماء في القدر إذا استحكمت غلياناً، وسل الله التثبيت فما من نعمة أعظم من الإسلام إلا الثبات عليه.

الدرس الثالث: النصيحة الموافقة لوقتها:

بعدما عرف الراهب قوة إيمان الغلام ورسوخه بين جنبيه قال له: « وإنك ستُبتلى » ، وليس ذلك رجماً بالغيب ولا اطلاعاً على بواطن الأمور وإنما لعلمه بسُنن الله الكونية، فمن سننه الكونية أن من آمن به ودعا إليه أن يبتليه ليعلم مدى صدق إيمانه، وليميز الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾[العنكبوت: ١-٣] .

ولذا نال الأنبياء النصيب الأوفر من البلاء في سائر الأمم ثم الأماثل من تلك الأمم وما خُص الإسلام بذلك ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، بل هذه سُنَّة كونية منذ أن خلق الله - عز وجل - آدم عليه السلام وستبقى إلى أن تقوم الساعة، فقد ورد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: قلت: "يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاءً؟، قال: "**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح**

البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » [١] .

فلما كان الراهب عالماً بسُنن الله - عز وجل - الكونية، ثم ظهر له من حال الغلام ما يدل على اصطفاء الله له أخبره أنه سيبتلى، لعلمه أن الابتلاء من لوازم ظهور دلائل الإيمان، ورغم علم الراهب بهذه الحقيقة الربانية والسُّنَّة الكونية إلا أنه لم ينبه إليها الغلام في أول تعلمه للعلم، ولكنه أخرها لوقتها، وهذا من ذكاء الداعية، أن يتخير ما يقول، ويدرك مدى مناسبته للزمان، والمكان، والظروف المحيطة، ولا تكون دعوته خبط عشواء، فيضر أكثر ما ينفع، فها هو النَّبيّ ﷺ يطوف بالكعبة وحولها ما يزيد على ثلاث مائة صنم وما فكر أن يكسرها، وما كسرها إلا في فتح مكة، وأيضاً رغم علمه بأن الكعبة لم تُبْن على قواعد إبراهيم إلا أنه آثر ألا ينقض بناءها؛ لأن كثير ممن أسلم كان حديث عهد بجاهلية، فعن عبد الله بن عمر عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيّ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال لها: **(ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة، اقتصروا عن قواعد إبراهيم)**. فقلت: يا رسول الله ، ألا تردها على قواعد إبراهيم، قال: **(لولا حدثان قومكِ بالكفر لفعلت)**. فقال عبد الله رضي الله عنه : لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم[٢] .

لذا فعلى كل داعية إلى الله أن يدعو إلى الله - عز وجل - على بصيرة فيتخير من الموضوعات ما يتناسب مع طبيعة المدعوين ومدى موافقتها للزمان والمكان والظروف المحيطة، فإن وُفِّق إلى ذلك أثمرت دعوته وأثرت، وإن لم يراعِ ذلك كانت دعوته في واد والناس في واد آخر، وتبعثر جهده وأصبح كمن يحرث في الماء أو ينقش على الهواء أو يغرس أرضاً ملحاء، فلا على جهده أبقى ولا إلى الله

---

(١) رواه الترمذيبرقم ٢٣٩٨ ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٣ ، والجامع الصغير برقم ١٠٤٥ ،

(٢) **صحيح** : رواه البخاري برقم ١٥٠٩، ٣١٨٨، ٤٢١٤ ، ومسلم برقم ٣٩٩ / ١٣٣٣ ، والنسائي برقم ٢٨٩١ .

دعا، ولكنه صد عن سبيله وهو لا يدرى، ونفَّر الناس عن دين الله وهو يهزى.

فمن أراد أن يدعو إلى الله يجب عليه أن يخطط لدعوته، ويحدد أولوياته، فلا يؤخر ما يجب تقديمه، ولا يقدم ما يجب تأخيره، ولا يجعل الأصول فروعاً، ولا الفروع أصولاً، بل يضع الأمور في نصابها الصحيح، ويظهر ذلك من وصية النَّبيّ ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فعن ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما أَنّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ مُعاذاً رضي الله عنه إلَى الْيَمَنِ فَقالَ : « **إنّكَ تَأْتي قَوْماً أَهْلَ الْكِتاب فادْعُهُمْ إلَى شَهَادَة أنْ لاَ إلَهَ إلاّ الله وَأنّي رَسُولُ الله فإنْ هُمْ أطَاعُوكَ لذَلكَ فَأعْلمْهُمْ أنّ الله افْتَرضَ عَلَيْهِمْ خَمْس صَلَوَاتٍ في كُلّ يَوْمٍ ولَيْلَة، وإنْ هُمْ أطَاعُوكَ لذلكَ فأَعْلمْهُمْ أنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً في أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ منْ أغْنيَائهِمْ وَتُرَدّ في فُقَرَائهِمْ فَإنْ هُمْ أطَاعُوكَ لذَلكَ فإيّاكَ وكَرَائمَ أَمْوَالِهِمْ، واتّق دَعْوَةَ المَظْلُومِ فإنّهَا لَيْس بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ** » (١) ، فقد رتب له النَّبيّ ﷺ أولويات دعوته، وبما يبدأ وبما يؤخر، ولم يقتصر على ترتيب الأولويات فقط، بل نصحه بما يؤيد دعوته، فنهاه عن الجور، والنظر لما في يد غيره، وكذا الظلم، فمن اتصف بهذه الخزايا فلن يجد من يسمعه أصلاً، أما من اتصف بضدها من الإنصاف، والتعفف، والعدل، فلابد من التفاف الناس حوله، فإن كان كلامه يتوافق مع واقعهم وما هم في حاجة إليه، أثمرت دعوته لا محالة، وضربت بجذورها في أعماق قلوب تابعيه.

الدرس الرابع: لا تتمنوا لقاء العدو :

يقول الشيخ ياسر برهامي - حفظه الله - :

وقول الراهب : (فإن ابتليت فلا تدل عليّ) قاعدة عظيمة في عدم طلب البلاء واستجلابه بل البعد عنه وسؤال الله العافية كما قال النَّبيّ ﷺ : (**أيها**

(١) **صحيح** ، رواه البخاري برقم ١٣٨٩، ١٤٢٥، ٤٠٩٠، ٦٩٣٧ ، ومسلم برقم ٢٩ / ١٩ ، وأبو داود برقم ١٥٨٤ ، والترمذي برقم ٦٢١ ، وابن ماجة برقم ١٧٨٣ ، والنسائي برقم ٢٥١٢ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ١٦٥٧ ، ورياض الصالحين برقم ٢٠٨ .

الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتوهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » [١]

فهذا هو الأمر الشرعي الذي أمرنا به، ووقوع البلاء أمر قدري كوني يجري علينا بغير طلبنا، وإن كان الفرار من البلاء لا يعني أن يترك الإنسان الواجبات أو يفعل المحرمات مثل من قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾ [العنكبوت :١٠-١١] .

وأما التعرض للبلاء والاستهانة به غرور مذموم، فمن أدري هذا الطالب للبلاء الحريص على وقوعه به أنه يصبر عنده، فهو في حقيقته تزكية للنفس وإحسان الظن بها وقد حذرنا القرآن من ذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم :٣٢].

ونحن نرى في هذا المقام أن الناس ثلاث فرق: طرفين ووسط ، فطرف في سبيل هروبه من المحنة يوالي أهل الباطل ويوافقهم ويتابعهم ويترك ما أوجبه الله عليه من مفارقتهم ومعاداتهم والقيام بالحق في وجوههم، أو يفعل ما حرمه الله عليه من المعاصي طاعة لهم.

وطرف آخر يطلب البلاء بنفسه ويسعى إليه بعمله يظن أنه يربي نفسه ويهذبها ، وقد وقع وهو لا يشعر في شراك العجب والغرور ، وغاب عنه أن خليل الله إبراهيم عليه السلام قال عن سارة أنها أخته، وأن نبي الله موسى ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص: ٢١] .

وهكذا أمر النَّبيّ ﷺ أمته سؤال العافية، وكلا هذين الطرفين مذموم.

---

(١) **صحيح** : رواه البخاري برقم ٢٨٠٤، ٢٨٦١، ٦٨١٠ ، ومسلم برقم ٢٠ / ١٧٤٢ ، وأبو داود برقم ٢٦٣١ ، وأحمد برقم ١٩١٣٧ .

والوسط هم أهل الحق والاتباع، علموا بوقوع البلاء قدراً والتزموا بعدم طلبه وتمنيه شرعاً وصبروا أعظم الصبر عند نزوله، كما فعل هذا الراهب الصالح كما سيأتي بيانه إن شاء الله (١) .

الدرس الخامس : اجعل للسر من دعوتك نصيباً :

فلا يعني كونك داعٍ إلى الله ـ عز وجل ـ أن لا يكون في دعوتك ما تُسر به، بل يجب أن تعلم أن أمور الدعوة دائرة بين السر والإعلان، فلكل ظروف ما يناسبها، فها هو الراهب يظل يُعلِّم الغلام زمناً ولم يعلم به أحد، وبعد أن ظهر أمر الغلام يوصيه بقوله: (فإن ابتليت فلا تدل عليَّ) حتى يظل أمره في سرِّية وكتمان ، وتظل دعوته في استمرار وهو بذلك يوافق ما أوصى به الحبيب محمد فقد ورد في السُّنَّة المطهرة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود** » (٢).

يقول الشيخ سعيد عبد العظيم ـ حفظه الله ـ : (٣)

أوصى الراهب الغلام بقوله : (إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليَّ)، أي لا تخبر عني حرصاً من الراهب على استمرارية دعوته، وشبيه بذلك قول الفتية أصحاب الكهف : ﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** (٢٠) ﴾ [الكهف: ٢٠] . وكانوا قد أوصوا صاحبهم بقولهم: ﴿ **فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١٩] .

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ٣٥ـ ٣٦ .

(٢) **صحيح** : رواه الطبراني في الكبير برقم ١٨٣ ، والأوسط برقم ٢٤٥٥ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٦٥٥ وفي مسند الشاميين برقم ٤٠٨ ومسند الشهاب برقم ٧٠٨ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٤٥٣ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٩٤٥ .

(٣) قصة أصحاب الأخدود للشيخ سعيد عبد العظيم ١٥٩ـ ١٦٧ بتصرف يسير وزيادات .

وأيضاً ما كان من مؤمن آل فرعون : ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾[غافر : ٢٨] .

وهو الذي قال لموسى عليه السلام : ﴿ **إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾[القصص : ٢٠] .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : « **احصوا لي كل من تلفظ بالإسلام**» يقول حذيفة رضي الله عنه قلنا: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة، قال حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلي إلا سراً » [١].

فإخفاء المعتقد قد تكون سياسة يمليها النظر الشرعى، وهي تختلف عن التُقية[٢] والكذب اللتين اعتمدتهما طائفة الشيعة كأصل لها في تعاملها مع المخالفين،كما أنها تفترق أيضاً عن صور الاستكراه التي يضطر فيها المسلم إلى إظهار الكفر مع طمأنينة قلبه بالإيمان، ولمزيد من التوضيح والبيان نذكر لك مسألتين:

المسألة الأولى: ذم إفشاء السر :

لا جدال في أن إفشاء السر شر وأذى يلحق بالأفراد والهيئات والأمم والجماعات، والأسرار التي تستدعي الكتمان كثيرة منها ما هو حربي أو سياسي أو صناعي أو تجاري، وقد يستهين الإنسان بسرِّه ويأتمن عليه النساء أو الأطفال أو من ليس بأمين، بل ويأخذ على تكتمه العهود والمواثيق ثم سرعان ما يجده على كل لسان بعكس ما لو جهر بهذا الخبر فقد لا يؤبه له في كثير من الأحيان.

وكان عمر رضي الله عنه يقول:(من كتم سره كان الخيار بيده)[٣] ،وقال علي رضي الله عنه :

(١) **صحيح**: رواه البخاري برقم ٢٨٩٥ ، ومسلم برقم ٢٣٥ / ١٤٩ ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٩ ، وابن حبان برقم ٩٢٧٣ .

(٢) **التقية**: إظهار خلاف ما في القلب خوفاً من الظالمين، أما استخدامها في كل حال ومع كل أحد ، فهي كذب صريح .

(٣) كنز العمال برقم ٨٨١٥ .

(سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرتَ أسيره) ، وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : (ما استودعتُ رجلاً سراً فأفشاه فلُمته لأني كنتُ أضيَق صدراً حين استودعته منه حين أفشاه)[١] وقال أحدهم : (إذا أفشيتُ سري إلى صديقٍ فأذاعه فهو في حلٍ، قيل : وكيف ذلك ؟ ، قال لأنني كنتُ أحقُ بصيانته منه وكيف يُلام مستودَع سراً إذا ضاق صدر مستودِعه)، وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يقول : (القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفتاح سرِّه)[٢] ،وقال الوليد بن عتبة لأبيه : (يا أبت إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك؟ ، قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه)[٣] ، وقال معاوية رضي الله عنه : (الحازم من كتم سره عن صديق مخافة أن تتبدل صداقته عداوة فيذيع سرَّه) ، وقال المهلب بن أبي صفرة : (من ضاق قلبه اتسع لسانه وما كتمته عن عدوك فلا تُطلع عليه صديقك)، وكتب رجل لابنه يقول : (يا بني من استودعك سرَّه فقد ملَّكك أمره فاجعل صدرك قبره تستوجب حمده وشكره)، وهذا الذي ذكرناه لا ينفي وجود بعض من يصون السرَّ كما لا ينفي وجود حالات تستدعي الإسرار ومنها :

[١] إتيان شعار الكفار على سبيل التُقية :

أن يُسرَّ الشخص بالإسلام خوفاً من الكفار ويأتي شعائر الكفار الخاصة بهم من عبادات وطقوس تُقية وهذه الصورة لا يحل أن يفعلها المسلم إلا في حالة واحدة وهي حالة الإكراه المعتبر شرعاً، قال الله تعالى : ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٦) ﴾ [النحل : ١٠٦].

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم ٩٤٩٩ وكشف الخفاء للعجلوني برقم ٢٥٨٥ .
(٢) المستطرف ١ / ٤٤٣ .
(٣) الصمت ١ / ٢١٤ برقم ٤٠٧ ، وإحياء علوم الدين ٣ / ١٣٢ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه)[١] ، وقال ابن حجر : قال ابن بطال : (أجمعوا على أن من أُكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة) [٢] .

[٢] إخفاء المعتقد مع عدم مخالفته الشرع :

أن يُسرَّ المسلم بإسلامه ولكنه لا يأتي شيئاً من أمور الشرك وعبادات المشركين وطقوسهم، ويشرع ذلك إذا خاف، أو كان هناك مصلحة شرعية في كتم إسلامه، كحال مؤمن آل فرعون، قال ابن العربي : (إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمناً حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التُقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التُقية من أن يسمعه غيره وليس شرط الإيمان أن يسمعه الغير)[٣] ، وروى البخاري قول النَّبيّ ﷺ : **(فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل)** [٤] .

المسألة الثانية: الموازنة بين السرّية والعلنية :

أن يُسر المسلم بالدعوة إلى الله تعالى إن خاف على نفسه أو خاف على أتباعه من المسلمين وهم قلة، والدليل على ذلك فعل الرسول ﷺ في بداية

(١) عمدة التفسير ٢ / ٤٣٧
(٢) فتح الباري ١٢ / ٣٦٩ .
(٣) القرطبي ١٥ / ٢٠١ .
(٤) البخاري برقم ٦٤٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقداد رضي الله عنه سأله النبي ﷺ قائلاً : إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فاظهر إيمانه فقتلته ؟ ثم قال..... .

الدعوة بمكة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما زال النَّبيّ ﷺ مستخفياً حتى نزلت : ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ [الحجر : ٩٤] [١] ، فخرج هو وأصحابه، والجهر بالدعوة هو الأصل وذلك حتى يسمعها القاصي والداني ، والقريب والبعيد، لكن إذا غلب ظن الداعي إلى الله أن دعوته تجتث من أساسها بسبب الجهر بها أو خاف أن يناله أذى محقق لا يقدر على تحمله فعليه أن يسر بها حينئذ ، يقول البوطي : (ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيُقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس لأن المصلحة المقابلة ، وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع) .

وقال العز بن عبد السلام : (فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة) قلت - ما زال الكلام للبوطي - وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي في مثل هذه الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم .

والخلاصة :

أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيداً) أ. هـ .

ومن صور السرِّية والتكتم ما حدث من رسول الله ﷺ يوم الهجرة ونلمس

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ مستخفيًا سنين لا يُظهر شيئًا مما أنزل الله حتى نزلت ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ يعني : اظهر أمرك بمكة .

من ذلك أن النَّبيّ ﷺ كان يجهر أحياناً ويسر أحياناً حسبما تقتضيه المصلحة الشرعية وليست المرحلة السرِّية منسوخة بعد الأمر من الله - عز وجل - بالصدع والإنذار بل حكمها باق كلما احتاج المسلمون إلى ذلك وسيبقى الأصل هو الجهر بالإسلام والدعوة إليه وإنما تجب السرِّية لضرورة من الضرورات .

ونحن اليوم بحاجة إلى دعوة علنية سلمية نعصم بها دماء المسلمين وأعراضهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين بسبب سرِّية أشبه شيء بها الآن النعام التي تدفن رأسها في الرمال وجسدها مكشوف وبذلك يسهل صيدها وذبحها .



الوقفة الحادية عشرة

[وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: " ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني " فقال: " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك "، فآمن بالله فشفاه الله] .

وفيها سبعة دروس :

الدرس الأول: فضل الإخلاص :

الإخلاص[١] هو أفضل ما يُكتب في صحائف الأعمال، وأثقل ما يوضع للعبد في الميزان، فهو مقصود هذا الدين، وما يرتضيه من العباد رب العالمين، فكل عمل ليس متصفاً به فهو هباءً منثوراً بل إلى العدم أقرب، فهو أحد شرطي قبول العمل، الإخلاص لله ـ عز وجل ـ والمتابعة لرسوله ﷺ ، كما أن تحقيق الإخلاص هو سبيل الخلاص من الشيطان باعترافه هو حيث يقول الله تعالى على لسانه : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾** ﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] . فقد اعترف الشيطان بعجزه عن إغواء المخلصين.

فمن المخلص؟!:

هو الذي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس [٢] .

---

(١) قد بسطت القول عن حقيقة الإخلاص وأهميته في كتاب « الأصول الأربعة » فارجع إليه راشد غير مأمور .
(٢) القرطبي ١ / ٢٨ ، و وقاية الإنسان ص ٢٦٧ .

وقال يعقوب المكفوف: " المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ".

وما الإخلاص؟ :

قال سهل: " الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى"، وقال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ : " الإخلاص هو صدق النية مع الله "، وقال أبو عثمان: " الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق "، وقيل الإخلاص " دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها ".

وقال النَّبيّ ﷺ : « **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتُغي به وجهه** » (١) رواه النسائي .. وصححه الألباني (٢) .

فالإخلاص : هو إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد في الطاعة، وهو يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى ، لا لشيء آخر من: تصنع للمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى.

وقيل في معناه: " هو استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن " وعن الفضيل ابن عياض قال: " ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما " وعن سهل التستري قال: " نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا، أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوي ولا دنيا " .. وعن ذي النون قال: " ثلاث من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة" (٣) .

---

(١) رواه النسائي برقم٣١٣١ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٨٢٨ وحسنه ، وكنز العمال برقم ٥٢٦١ ، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٥٢ ، وفي النسائي برقم ٣١٤٠ .

(٢) وقاية الإنسان ص ٢٦٧ .

(٣) إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب ص ١٦ ، ١٧ .

ويؤخذ من كل ما سبق أن الإخلاص هو إفراد الله بالعبادة وعدم الالتفات لغيره ممن هم دونه من خلقه وتنزيهه ـ عز وجل ـ عن الشرك والشريك.

ولما كان هذا وصف الإخلاص ظهرت أهميته في صلاح الأعمال وفسادها، ومن أجل ذلك جعله الله ـ عز وجل ـ أول حق له على الناس، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " كنت رديف النَّبيِّ ﷺ فقال لي: « **يا معاذ.. أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟** » ، قلت الله ورسوله أعلم. قال: « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشركوا به شيئاً** » قلت: " يا رسول الله أفلا أبلِّغ الناس ؟ ، قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا** » (١).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: وقد تقرر في الشرع أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العبادات إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، والأدلة على ذلك من الكتاب والسُّنَّة كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ [الكهف: ١١٠] ، وقوله أيضاً: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة: ٥] (٢).

قال صاحب فتح المجيد ـ رحمه الله ـ:

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أي ليس لي من الربوبية ولا من الألوهية شيء بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليَّ ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ﴾ أي يخافه ﴿ **فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ**

---

(١) البخاري برقم ٢٧٠١ ، ٥٦٢٢ ، ٥٩١٢ ، ٦١٣٥ ، ٦٩٣٨ ، ومسلم برقم ٣٠ / ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، وابن ماجة برقم ٤٢٩٦ ، والترمذي برقم ٢٧٨١ ، وكنز العمال برقم ٢٨٣ ، ومجمع الزوائد برقم ١٤٩ ، ورياض الصالحين برقم ٤٢٦ .

(٢) نقلاً من فضل العلم وآداب طلبته ص ١١٦ .

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ قوله ﴿ **أَحَدًا** ﴾ نكرة في سياق النهي تعم وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم . . . ثم نقل عن ابن القيم - رحمه الله تعالى - أنه قال في الآية - يقصد الآية السابقة - أي كما أن الله واحدٌ لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له،فكما تفرد بالألوهية يجب أن يُفرد بالعبودية، فالعمل الصالح :هو الخالص من الرياء المقيد بالسُّنَّة (١) .

فالتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه(٢) .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط صحة العمل وقبوله (٣) .

ولما كان من مقررات الشرع ومن مسلمات الدين أن لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وأريد به وجهه فقد نبه النَّبيّ ﷺ على عظم شأن النية ووجوب تخليصها مما قد يشوبها من شوائب تفسد القصد وتحبط العمل .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» (٤) .

ومن أهم ما يفسد المقاصد ويقلب النوايا ويقيض صرح الإخلاص في القلب الإشراك بالله ، وهو أن يجعل لغير الله - مع الله - نصيباً في عمله .

فلما كان هذا وصف الإخلاص، كان المخلصون هم أصفياء الله وأولياؤه، وحزبه وأهل عنايته، فيُفيض عليهم بأجل نِعَمِه، ويؤيدهم وينصرهم، ومن وسائل تأييده لهم إظهار الكرامات على أيديهم، وهذه إنما هي ثمرة من ثمار

---

(١) فتح المجيد ص ٣٥٧ . (٢) السابق ص ٣٨١ .

(٣) السابق ص ٣٦٠ .

(٤) البخاري برقم ١ ، ٤٥ ، ٢٣٢٩ ، ٣٦٨٥ ، ٤٧٨٣ ، ٦٣١١ ، ٦٥٥٣ ، ومسلم برقم ١٥٥ / ١٩٠٧ ، وأبو داود برقم ٢٢٠١ ، وابن ماجة برقم ٤٢٢٧ ، والترمذي برقم ١٦٩٨ ، والنسائي برقم ٣٤٢٨ ، والجامع الصغير برقم١ ، وكشف الخفاء برقم١ ، وكنز العمال برقم ٨٧٧٩ ، ورياض الصالحين برقم ١ .

الإخلاص، فها هو الغلام لما أخلص لله آتاه من الكرامات ما لا يخطر له ببال، فكان مستجاب الدعوة وكان يبرىء الأكمه (وهو من ولد أعمى) والأبرص ويداوي الناس من سائر الأمراض بإذن الله ، ولما آمن جليس الملك وأخلص لله أكرمه ربه ومنَّ عليه فرد عليه بصره ونور له بصيرته، فهلا كان لك من الإخلاص نصيب، حتى ينالك من الفضل بسببه، فتكون من أهل الله وخاصته، وموضع تأييده ونصره وعنايته، ومحل رعايته.

الدرس الثاني: منزلة الدنيا :

تتفاوت منزلة الدنيا وزخرفها من إنسان لآخر، فعند أهلها الذين عاشوا وماتوا من أجلها هي كل شيء ويمثل المال عمودها الفقري والسلطان والنعيم تاجها ،فمن كان من أهلها يظن أنه يستطيع أن يعمل كل ما يريد ويحصل على كل ما يتمنى فهو يستطيع أن يشتري من يشاء بما شاء من ماله ولا يظن أن يستعصي عليه أمر، ولا يخطر بباله أو يجول في خاطره أن يحول بينه وبين ما يريد إرادة غير إرادته، أما من عبَّد قلبه لله ، فالدنيا بالنسبة له أحقر من جناح بعوضه، ويمثل المال منها أخس ما فيها فلا يستظلان تحت سقف، وينظر إليه على أنه حية رقطاء تتحين له لتنقض عليه فتهلكه ، ونلمح ذلك من كلام جليس الملك الذي جمع عصبي الدنيا المال والسلطان حين قال للغلام: (ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني) وهو يشير إلى هدايا نفيسه حملها بين يديه، وظن أن لعاب الغلام سيسيل لأول وهلة عند رؤيتها، كما أنه لن يخرج عن طوعه ولن يجرؤ أن يرد له أمر وهو من هو، فما بالك إن كان عز السلطان وبهرجة المال، فمن وجهة نظره الأمر محقق لا محالة، ورغم ذلك لم يرهب الغلام قهر السلطة ولا برق في عينيه وميض المال فلم يُعِر اهتماماً لتلك الهدايا، ولم ينظر إليها، ولم يفتش فيها، ولا ذكرها في حديثه، فالمال بالنسبة لجليس الملك كل شيء وبالنسبة للغلام لا شيء، فشتان بين مشرق ومغرب.

فاعلم أن الناس كلهم أغنياء ولكنهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: يستمد غناه وعزه ومكانته من عرض زائل فتجده يسعى في كل فج ليحصِّل مصادر عزه وعنوان غناه ، فمنهم من يظن أن السلطان هو كل عزه فيسعى ليحصِّله، وغيره يظن أن المال هو أصل عزه فيلهث خلفه يجمعه من حرامه وحله، ليملك به عقارات وأطيان وسيارات، فهذا عزه ومكانته مرهون بما يملك من عرض زائل ، فإن زال زال معه ولا تجد له ذِكْر.

الثاني: يستمد غناه وعزه ومكانته مما يملك من أخلاق حميدة ، وصفات سامية رشيدة، فهذا رغم أنه لا يملك من عرض الدنيا الزائل شيئاً إلا أن سلطانه متربع على عرش القلوب طيلة حياته، خالد ذكره بعد مماته، فشتان بين الغنى الحقيقي والزائف ، وبين من مات حياً ولُعن ميتاً ، ومن عاش حيناً من الدهر حتى بعد أن طواه الثرى ، وما ذلك إلا لمنزلة الدنيا في نفس كل منهما ، وفي ذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: (**ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس**)[١] .

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

فغنى النفس بالله هو الذي يسد فقر الآدمي وحاجته ، وأما غناه بأعراض الدنيا فهو الفقر بعينه. ولننظر كيف لم يلتفت الغلام إلى الهدايا ولو بكلمة لا بمدح ولا بذم ولا بقبول ولا بترك ، فقد أسقط ذكرها بالكلية وشرع مباشرة في علاج الرجل من مرضه العضال الذي لا يشعر به وهو مرض القلب.

وهذا هو الواجب على الدعاة إلى الله أن لا يجعلوا للدنيا قيمة في دعوتهم ولابد لهم من هدم الميزان الفاسد بتعظيم من ملكها واحتقار من فقدها.

فالمجتمع الذي يريدون بناءه لا يقبل فيه هذا الميزان الذي ضلت بسببه الأمم قديماً وحديثاً من عصر نوح عليه السلام إلى زماننا ، حيث قال قوم نوح له: ﴿ **وَمَا نَرَاكَ**

---

(١) البخاري برقم ٦٠٨١ ، ومسلم ١٢٠ / ١٠٥١ ، والترمذي برقم ٢٣٧٣ وابن ماجة برقم ٤١٣٧ ، واحمد برقم ٧٣١٤ ، وابن حبان برقم ٦٧٩ .

اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : ٢٧] .

وقال هرقل لأبي سفيان : (وسألتك من يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ ، فزعمت أن ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل) [١] .

وما أحسن ما قاله الهروى في نعت الفقر: أنه نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً وإسكات اللسان عنها ذماً أو مدحاً والسلامة منها طلباً أو تركاً)[٢] .

فنفض اليدين منها ضبطاً أي بالنفقة منها في سبيل الله وطلباً بعدم الحرص عليها والسعي لتحصيلها وإسكات اللسان عنها ذماً أو مدحاً لسقوطها من القلب فلا تستحق الذكر ولو بالتحقير.

فإن الذم إنما يستعمل لتهوين فقدها على من فقدها ولو سقطت بالكلية ما ذكرها ، كما فعل هذا الغلام الصالح فلم يتكلم فيها مطلقاً لتسقط أيضاً من عين جليس الملك الذي يراد أن ينضم للمجتمع الجديد ويزن بالميزان الجديد، وهل نرى أحداً يذم جناح بعوضة[٣] وقول مثلاً : أنه لا يساوي شيئاً، أم هل تجد من يقضي وقته في بيان نقص الجدي الأسك[٤] الميت[٥] وأنه لا يستحق أن

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري برقم ٧، ٤٢٧٨ ، ومسلم برقم ٧٤ / ١٧٧٣ ، وابن حبان برقم ٦٥٥٥ ، والطبراني في الكبير برقم ٧٢٦٩ .وانظر إلى قول هرقل عن الأغنياء بالأشراف ووصفه الفقراء بالضعفاء.

(٢) نقله عنه ابن القيم في طريق الهجرتين ص ١٦ ، ويقصد في هذا التعريف الفقر إلى الله ، فهذه صفات الغنى الحقيقي الذي لا يلتفت صاحبه إلى الدنيا طرفة عين.

(٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا من شربة ماء** » رواه الترمذي برقم ٢٣٢٠ ، وابن ماجة برقم ٤١١٠ ومستدرك الحاكم برقم ٧٨٤٧ ، والطبراني في الكبير برقم ٥٨٤٠ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٦٨٦ ، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٤١١٠ .

(٤) **الأسك** : هو مقطوع أو صغير الأذنين.

(٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناوله فاخذ باذنه ثم قال : «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟** » فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال: « **أتحبون أنه لكم ؟** » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لانه أسك فكيف وهو ميت ؟ ، فقال : «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم** » ، رواه مسلم برقم ٢ / ٢٩٥٧ ، وأبو داود برقم ١٨٦ ، وأحمد برقم ١٤٩٧٢ ، وسنن البيهقي الكبرى برقم ٦٤٥ .

يعمل من أجله أو يحرص عليه أو يبخل به ؟!.

فلو كانت الدنيا عندنا كما هي عند رسول الله ﷺ في هذين التشبيهين: جناح البعوضة، والجدي الأسك الميت ، لما ذكرناها بمدح ولا ذم. وأما السلامة منها طلباً أو تركاً فالزهد في الزهد فيها.

فمن شهد أنه ترك شيئًا ذا قيمة أو أنه لم يطلبها وكان بإمكانه أن يطلبها ولكنه زهد فيها عامداً ، فهي لا تزال ذات شأن في قلبه ولو سلم منها لما شعر أنه ترك شيئاً، فهل يعود أحد منا إلى أهله ويقول لهم: كان أمامي بعوضة في الطريق أو دجاجة ميتة وتركتها وزهدت فيها وكان بوسعي أخذها ؟!.

أم أنه لا يذكر هذا لأحد بل ويستحي أن يقول ذلك أو يفكر فيه ، وهذا كله يدلنا على أننا مازلنا بحاجة إلى أن نسقط الدنيا من قلوبنا ، وعند من ندعوهم إلى الله كذلك[١] .

الدرس الثالث: إياكم والغلو :

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة : ١٤٣] .

قال البيضاوي في معنى الآية: (أي خياراً أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل وهو (أي الوسط) في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها)[٢] .

وفي تفسير أبي السعود: الوسط في الأصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لأن الأطراف يتسارع

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٤٢-٤٤ .
(٢) تفسير البيضاوي ١ / ٤١٥ .

إليها الخلل والأعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائي :

كانت هي الوسط المحمى فاكتنفت   بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً (١)

وفي تفسير النسفي: (خياراً وقيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية) (٢) .

وقال الألوسي : (الصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة : ١٤٣](٣) .

وقال الراغب: (وسط الشيء : ما له طرفان متساويًا القدر ، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد) ، ثم قال : (والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان يقال : هذا أوسطهم حسباً : إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً وكالجود الذي هو بين البخل والسرف فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة نحو : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة : ١٤٣] (٤) .

اعلم إنه من حكمة الله البالغة، ومن سُننه الكونية، أنه ما خلق خلقاً، ولا أمر أمراً، إلا وله وسط حميد، وطرفان مذمومان، وسمى الوسط وسطاً لا غيره، وأما الطرفان فأحدهما يبعد عن الوسط بالنقصان ويُسمى تقصيراً، وجفاءً، وتفريطاً، والآخر يبعد عن الوسط بالزيادة ويسمى تزيُداً، وغلواً، وإفراطاً، واستحب الله الوسط وأكد على لزومه، ونهى عن الطرفين وأكد في النهى، وبين أنه في لزوم الوسطية مصلحة البلاد والعباد، وفي لزوم أحد الطرفين فساد البلاد والعباد ،

---

(١) تفسير أبو السعود ١ / ١٧٢ .
(٢) تفسير النسفي ١ / ٨٧ .
(٣) روح المعاني ١ /٩٢ .
(٤) المفردات ٢ /٦٧٧ .

وأصل الوصول إلى كلا الطرفين هو الإلحاد، والاستقرار عند أحد الطرفين يُسمى تطرفاً (١) ، وأصل لزوم الوسطية والاستقرار فيها هو الحنيفية.

فالإلحاد هو الميل عن الحق إلى الباطل، أي البعد عن الوسط والاتجاه نحو أحد الطرفين، فيستقر في النهاية إما إلى غلو، وإفراط، أو إلى جفاء، وتفريط، فالملحد هو كل مائل عن الحق.

والحنيفية هي الميل عن الباطل إلى الحق أي البعد عن كلا الطرفين إلى الوسط، والحنيف هو كل مائل إلى الحق.

لذا كان من أخص صفات أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه كان حنيفاً ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ .

[النحل: ١٢٠] .

ولما انحرف اليهود والنصارى عن الوسطية نفي ما ادعوه من كون إبراهيم منهم وبرأه مما قالوا وأثبت له ثباته على الحنيفية فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) ﴾ .

[آل عمران: ٦٧] .

ثم وصى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام ويلتزم منهجه من الوسطية الحنيفية فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل: ١٢٣] .

---

(١) **التطرف** : هو الاستقرار عند أحد الطرفين بعيداً عن الوسط، فمن استقر على التزيد والغلو والإفراط فهو متطرف، ومن استقر على التناقص والجفاء والتفريط فهو أيضاً متطرف؛ لأن كلاً منهما قد استقر عند أحد الطرفين، وإنما أردت أن أبين هذه النقطة لأنه قد استقر في معظم الأذهان أن التطرف قاصر على من غالي في دينه أما من قصر إلى حد تضييع دينه لا يعدونه متطرفاً بل قد يُضرب به المثل في الاعتدال رغم أنه متطرف أيضاً، وقد يتَهم غيره ممن التزم الوسطية بالتطرف حتى لا يُلتفت إليه، وهذا حال معظم العقلانيين في الوقت الحاضر، الذين لا يرضون من الإسلام إلا بما يوافق عقولهم القاصرة، فما وافقها فهو ثمَ الإسلام وما خالفها عدوه تطرفاً رغم أنه عين الوسطية، فيجب أن نزن الأمور بميزان الشرع، ولننتبه إلى هذه الفئة فعن طريقها يتم الطعن في دين الله ـ عز وجل ـ ، والنيل من الإسلام باسم الإسلام، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وليس ذلك فحسب بل أمره بأن يعترف بأن حنيفية إبراهيم عليه السلام هي الدين القيم ، وأن الله - عز وجل - قد منَّ عليه بأن هداه إلى ملة إبراهيم عليه السلام ويفتخر بذلك فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾ [الأنعام : ١٦١] .ثم أمره أن يكون ﷺ هو الآخر حنيفاً ويتمسك بها ولا يحيد عنها فإنها الدين القيم الذي لا اعوجاج فيه فقال تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس : ١٠٥] . ثم مدح - عز وجل - كل من سلك هذا الطريق والتزم ملة إبراهيم عليه السلام وجعله من أحسن الدين وأقومه فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) ﴾ [النساء : ١٢٥] .

ثم أمر - سبحانه وتعالى - الأمة الإسلامية كلها بأن تلتزم هذا المنهج وتتمسك بحنيفية إبراهيم ولا تحيد عنها فقال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾ [آل عمران : ٩٥] .

ونبهنا بألا نستجيب لدعاوى الانحراف والإلحاد عن الوسطية ،كدعاوى اليهود والنصارى،وأن نتمسك بحنيفية إبراهيم عليه السلام الذي قد برأه الله - عز وجل - منهم فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

وطالب الأمة كلها أن يكونوا حنفاء له مخلصين له الدين فقال جل شأنه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾ [البينة :٥] .

وقد جاء الإسلام بالوسطية الحميدة، ونهى عن الإفراط والتفريط، وكان هذا منهاج الرسول ﷺ وما أُثِر عنه وعن صحابته الكرام رضي الله عنهم ومثال ذلك أمر النَّبيّ

مبلغاً عن ربه - عز وجل - بإقامة الصلاة جماعة في وقتها، وبقدر معلوم، وبكيفية معلومة، وما رضى ﷺ من الصحابة بالإفراط ولا بالتفريط في الصلاة .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النَّبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النَّبيّ ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النَّبيّ ﷺ؟ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ ، أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي**)(١) فها هو النَّبيّ ﷺ ما رضى أن يصلي هذا القائل الليل أبداً لأن في ذلك غلواً وإفراطاً، وتبرأ ممن رغب عن سُنَّته ؛ لأن سُنَّته وطريقته هي الوسطية والاعتدال .

وعلى الطرف الآخر يحذِّر من التفريط فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**) (٢) .

وفي هذا الحديث يهم النَّبيّ ﷺ بأن يُحرِّق البيوت على من فرط في صلاة الجماعة لأنه قصَّر عن الوسطية وفرط فيها، ويُفهم من ذلك أن الوسطية هي روح الإسلام ولبه وعزه وقوته وإنما تسرب إلينا الوهن لما انحرفنا عن الوسطية إلى أحد طرفي الإلحاد ، الإفراط أو التفريط .

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٧٦ ، وصحيح ابن حبان برقم ٣١٧ ، وشعب الإيمان برقم ٥٤٧٧ ، وسنن البيهقي الكبري برقم ١٣٢٢٦ .

(٢) رواه البخاري برقم ٦١٨، ومسلم برقم ٦٥١ / ٢٥٢ ،وأبو داود برقم ٥٤٨ ، والترمذي برقم ٢١٧ ، والنسائي برقم ٨٤٨ ، وابن ماجة برقم ٧٩١ ، وأحمد برقم ٤٣٩٨ ، وابن حبان برقم ٢٠٩٨ .

فمن أراد لنفسه النجاة فعليه بالحنيفية والوسطية فإنها عين الاعتدال، ومن حاد عنها فقد تطرف، ولا يلومن إلا نفسه ولا يأمن عليها الفتنة.

ولن يتم له ذلك إلا بالاعتدال في ثلاثة أشياء: (الغضب والشهوة والعلم).

يقول الشيخ عائض القرني ـ حفظه الله ـ: فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فيخرج إلى الجموح فيهلك، وخير الأمور أوسطها، فإذا توسطت القوتان (الشهوة والغضب) بإشارة قوة العلم، دل على طريق الهداية.

فالغضب إذا زاد سهُل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص؛ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة، وكذلك الشهوة: إذا زادت كان الفسق والفجور، وإذا نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك وفي الحديث (عليكم هدياً قصداً) (١). (٢).

واعلم أن ما أصاب أمة الإسلام في هذه الأيام وقبلها جاء معظمه من طريقين الأول الغلو في جانب المعتقدات والثاني التفريط في جانب العبادات.

ومن أعظم مظاهر الغلو في المعتقدات: الغلو في الصالحين وعلماء الدين، فها هو جليس الملك يقول للغلام: (إن أنت شفيتني) وظن أنه قادر على أن يشفيه من دون الله، وهذا من الغلو في الصالحين وقد ثبت أن أول شرك وقع على ظهر الأرض كان بسبب الغلو في الصالحين فقد قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴿٢٣﴾﴾ [نوح :٢٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها

---

(١) رواه أحمد عن أبي بريدة الأسلمي برقم ٢٣٠١٣، وصححه الأرنؤوط. وابن خزيمة برقم ١١٧٩، والحاكم في المستدرك برقم ١١٧٦ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٣٨٨٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٠٨٦، وفي ظلال الجنة برقم ٩٥.

(٢) لا تحزن ص ٤١١، ٤١٢ بتصرف يسير.

بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت (١) .

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

ونلحظ في هذا الجزء من الحديث أن عادة الناس الغلو في الصالحين والتكلم عنهم بما لا يجوز فقالوا عن الغلام أنه يشفي، والحق أنه يداوي ويدعو الله سبحانه .

فلابد للداعي إلى الله أن يحذر من هذا وأن يعالج هذا المرض قبل أن يصل إلى حد تأليه الصالحين وعبادتهم من دون الله .

كما قال هذا الغلام قبل أي كلمة مع جليس الملك : (إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى) .

فبدأ بتقرير التوحيد ومحاربة الغلو وبيان حقيقة عبوديته لله ـ عز وجل ـ ، وكما قال النَّبيّ ﷺ : **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)** (٢) ، وكما قال ﷺ : **(إياكم والغلو فإنما هلك من كان قبلكم الغلو)** (٣) .

ولا يجوز للداعي أن يظن أنه يمكنه أن يستغل غلو الناس فيه في دعوتهم إلى الالتزام بالحق الذي يقوله لهم فإنهم إن قبلوا الحق لأجله هو لا لأنه هو الحق لم ينفعهم ذلك ويوشكوا أن يتحولوا عنه إلى الباطل بمجرد غيابه هو عنهم، فالحقيقة أنهم عبدوه ولم يعبدوا الله .

والواجب عليه أن يُعبِّدهم لله وحده، وما أعظم موقف أبي بكر رضي الله عنه حين

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٦٣٦ .

(٢) رواه البخاري برقم ٣٢٦١ ، وأحمد برقم ١٥٤، والدارمي برقم ٢٧٨٤ ، وصحيح ابن حبان برقم ٦٢٣٩ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد برقم ١٨٥١ ، وابن حبان برقم ٣٨٧١ ، وسنن النسائي برقم ٣٠٥٧ ، والطبراني في الكبير برقم ١٢٧٤٧ ، وسُنن البيهقي الكبرى برقم ٩٣١٧ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٨٣ ، وفي ظلال الجنة برقم ٩٨ ، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٢٤٥٥ .

قال كلمته الخالدة عند وفاة رسول الله ﷺ : (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ، وبهذا حفظ الله الإسلام واستمرت دعوة التوحيد(١) .

الدرس الرابع: الشفاء من عند الله وبقدر الله :

يعتقد البعض أن الشفاء يتحقق لمهارة الطبيب، فما يصاب الإنسان بمرض حتى يهرول باحثاً عن أمهر الأطباء؛ ليبرأ مما أصابه، وإن وفّق الطبيب نسب إليه كل الفضل، وأقر له بحسن الصنيع، وأعترف له بالجميل، وهذا من الشرك الذي بدا في الانتشار حتى بين طبقات المتعلمين في هذا الزمان.

لذا وجب أن نبين هذا الأمر حتى لا يكون لأحد حجة على الله ـ عز وجل ـ :

أولاً : ما سبب المرض ؟ :

سبب المرض في بعض الأحيان هو معصية العبد لربة ومحبة ربه له وذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ .

[الشورى :٣٠] .

قال عليّ رضي الله عنه :« هذه الآية أرجى آية في كتاب الله . وإذا كان يُكفِّر عنّي بالمصائب ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟ !» ، وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل ! فوالله إني لأحب الوجع ومن أحبه كان أحب الناس إلى الله ، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ فهذا مما كسبت يدى، وعفو ربي عما بقي أكثر(٢) .

قال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى:

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ٤٤، ٤٥ .
(٢) القرطبي ١٦ / ٢١، ٢٢ .

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ ثم قال: وأيُ مصيبة أعظم من نسيان القرآن (١).

فما يصيب العبد من أمراض وغيرها من صنوف الأذى إنما هو من جراء بعض معاصيه لربه - عز وجل - وما يغفره ربنا أكثر، وإنما ذلك لمحبة الله لعبده رغم معصيته له، فالله - عز وجل - لا يحب أن يعذب عبده في نار جهنم؛ فيبتليه في الدنيا حتى يلقاه في الآخرة وقد خفت خطاياه، ويوضح ذلك ما ورد عَنْ أنس أن رَسُول الله ﷺ قال: **(إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عَنْه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)** (٢).

ويؤكده ما ورد عَنْ أبي سعيد وأبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أنْ النَّبيّ قال: **(ما يصيب المسلم مِنْ نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها مِنْ خطاياه)** (٣).

وكذلك ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال دخلتُ عَلَى النَّبيّ ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رَسُول الله إنك توعك وعكاً شديداً. قال: **(أجل إني أوعك كما يوعك رجلان مِنْكم)** قلت: ذلك أن لك أجرين. قال: **(أجل ذلك كذلك، ما مِنْ مسلم يصيبه أذى: شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عَنْه ذنوبه كما تَحُط الشجرة ورقها)** (٤).

وما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(ما يزال البلاء بالمؤمن**

(١) المرجع السابق ١٦ / ٢١.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٥٠٧ وقال حسن غريب، والجامع الصغير برقم ٣٨٥، والمستدرك برقم ١٢٤ / ٨٧٩٩، وكنز العمال برقم ٦٧٩١، ٣٠٧٩٩، ورياض الصالحين برقم ٤٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٢٠، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٣٠٨، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٣٩٦ قال حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري برقم ٥٣١٨، ومسلم برقم ٥٢ / ٢٥٧٣، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٨١٤، ورياض الصالحين برقم ٣٧.

(٤) رواه البخاري برقم ٥٣٢٤، ٥٣٣٦، ومسلم ٤٥ / ٢٥٧١، ورياض الصالحين ٣٨.

والمؤمنة ، **في نفسه ، وولده ، وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)** [١] .

وقال مُرَّة الهمذاني : رأيت على ظهر كف شريح قرحه فقلت : يا أبا أمية ، ما هذا؟ ، قال : هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وقال ابن عون : إن محمد ابن سيرين لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال : إني لا أعرف هذا الغم ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة [٢] .

وقال عكرمة : ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها ، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها [٣] . .

فالرضا بالمرض من علامات قبول العبد لقضاء الله ـ عز وجل ـ والصبر عبادة يتقرب بها إليه ، فمن رضى وصبر كان له من الله ـ عز وجل ـ الأجر في الدنيا والمغفرة في الآخرة فعن أنس رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : **(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط)** [٤] .

ثانياً : من الذي حدد دواء الداء ؟ :

يعتقد البعض أن الطبيب بذكائه وفطنته هو الذي يحدد الدواء ، حقاً هو الذي وصف الدواء المحدد سلفاً من قبل الله ـ عز وجل ـ فمن رحمته أنه ما أنزل من داء إلا وأنزل معه دواءه ، فعن أسامة بن شريك قال :قالت الأعراب يا رسول الله

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٥١٠ وقال حسن صحيح ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٣ ، والحاكم برقم ٢٧ / ١٢٨١ وقال صحيح على شرط مسلم ، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٨١١ ، وكشف الخفاء ٢٢٦٠ ، وكنز العمال برقم ٦٧٧٧ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٢٨٠ ، وفي سنن الترمذي برقم ٢٣٩٩ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٥٨١٥ .

(٢) القرطبي ١٦ / ٢٢ .

(٣) القرطبي ١٦ / ٢٢ .

(٤) الترمذي برقم ٢٥٠٧ وقال حسن غريب ، وابن ماجة برقم ٤٠٣١ ، والجامع الصغير برقم ٢٢٩٨ ، وكشف الخفاء برقم ٦٧٧ ، وكنز العمال برقم ٦٨٠٢ ، ٦٨٢٣ ورياض الصالحين برقم ٤٣ وحسنه الألباني في سُنن ابن ماجة برقم ٤٠٣١ ، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٣٩٦ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٢١١٠ ، وفي مشكاة المصابيح برقم ٤٤ / ١٥٦٦ .

ألا نتداوى؟ ، قال: " **نعم، عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، أو دواء إلا داءً واحداً** " ، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ ،قال: "**الهرم**" (١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "**إن الله خلق الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تتداووا بحرام** " (٢) .

فالله -عز وجل- هو الذي أنزل الداء وهو الذي حدد الدواء ولكن لحكمته، اختص بعض عباده بأن هداهم إلى أدوية بعض الأدواء فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " **إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**" (٣) .

ومعنى ذلك أن الطبيب وصف الدواء الصحيح بتوفيق الله له لذلك، فالمرض من قدر الله ، والشفاء منه بقدر الله والدواء أيضاً بقدر الله .

ثالثاً من الشافي ؟ :

الشافي هو الله والشافي من أسماء الله وذلك لما ورد عن عائشة وأنس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى المريض يدعو له قال : " **أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً** " (٤) .

---

(١) رواه بن ماجه برقم ٣٤٣٦ ، وأبو داوود برقم ٣٨٥٥ ، والحاكم في المستدرك برقم ٤١٦ وصححه، والترمذي برقم ٢٠٣٨ وقال حسن صحيح، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٣٢٧١ وسكت عنه، والإمام أحمد برقم ١٨٤٧٧ ،، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رجال الشيخين ، وصححه الألباني في سُنن الترمذي برقم ٢٠٣٨ .

(٢) رواه أبو داوود برقم ٣٨٧٤ ، وكنز العمال برقم ٢٨٣٢٤ ، والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٨٢٨٨ وقال رجاله ثقات والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٦٩٦ وضعفه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤ / ١٦٣٣ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١٧٦٢ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم ٨٢٢٠ ، وكنز العمال برقم ٢٨٠٧٩ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٧٨٣ وصححه ، والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسنده برقم ٣٥٧٨ وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا الإسناد حسن ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١ / ٤٥١ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١٨٠٩ .

(٤) البخاري برقم ٥٣٥١، ٥٤١٠، ٥٤١١ ، ومسلم برقم ٤٦، ٤٧، ٤٨ / ٢١٩١ ، وأبو داود برقم ٣٨٩٠ ، والترمذي برقم ٩٨٠ ، وابن ماجة برقم ٣٥٢٠ ، والجامع الصغير برقم ١٥٥١ ، وكشف الخفاء برقم ٣٠٦ ، ورياض الصالحين برقم ٩٠٢، ٩٠٣ .

فالله ـ عز وجل ـ هو الشافي اسماً وفعلاً فلا يجوز أن ننسب ما خص به نفسه لغيره فهذا محض الشرك الذي لا يغفره الله إلا بتوبة، فيجب الاعتراف بالفضل لله ـ عز وجل ـ ومعرفة أن الطبيب لا يعدو أن يكون سبباً أقامه الله لما أراده منه.

وخلاصة القول : أن من اعتقد أن الطبيب شفاه من دون الله ـ عز وجل ـ أو معه فذاك الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بتوبة نصوح، ومن اعتقد أن الطبيب مجرد سبب سببه الله ـ عز وجل ـ ليتم الشفاء فهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي يجب أن نلقى الله ـ عز وجل ـ به .

ويجمع ما سبق كله كلمه قالها إبراهيم عليه السلام حينما كان يعترف لله بفضله عليه حينما قال : ﴿ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)** ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨١] . فقد نسب عليه السلام الخلق والهداية والإطعام والسقاية والشفاء والإماتة والبعث لله ـ عز وجل ـ وبين ذلك نسب المرض لنفسه فقال: ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ ولم يقل عليه السلام وهو الذي أمرضني فهو يشفين ومعنى ذلك أن المرض إنما هو بسبب معصية العبد لله وأن الشافي هو الله.

رابعاً: أفضل طريق لعلاج كل الأمراض :

هناك جملة من الأسباب الشرعية ، التي لو أتى بها العبد ستكون بإذن الله سبباً في شفائه مما أصابه من أمراض حتى وإن كانت مستعصية، فقد يرفع الله البلاء بإذنه دون الحاجة إلى طبيب، أو يوفقه لطبيب حاذق فيصف له الدواء الموافق للداء فيبرأ بإذن ربه ـ عز وجل ـ ومنها :

[١] التوبــة :

قال العباس رضي الله عنه لما استسقى به عمر رضي الله عنه :" اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة " (١) فلما كانت المعصية هي أصل الداء وسببه

(١)فتح الباري ٢ / ٥٩٤ .

في الغالب، وجب على المريض أن يتوب من ذنوبه ومعاصيه التي يعرفها هو أكثر من غيره، فكل منا أبصر بعيوبه ، فإذا زال السبب زالت نتائجه وما يترتب عليه من بلايا، فالتوبة والرجوع إلى الله - عز وجل - من أهم المقاصد التي لأجلها يبتلي الله عباده ، فقد قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (٤١) ﴾ [الروم : ٤١] .

[٢] الاستغفار :

وهذه تابعة لسابقتها، وجزء منها، ومتممة لها، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولُ الله ﷺ : **"مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"** (١). فعلى المريض أن يكثر من الاستغفار لعل الله - عز وجل - أن يزيل همه ويفرج كربه ويشفيه من مرضه.

[٣] التصـدق :

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(داووا مرضاكم بالصدقة)**(٢) فمن ابتلاه الله - عز وجل - بأي مرض عليه أن يكثر من الصدقة عسى أن يمُن الله عليه بالشفاء ، فقد ورد عن عليِّ بن الحسن بن شقيق : سمعت ابن المبارك . وسأله رجل قال : قرحة خرجت في ركبتي مذ سبع سنين وقد عالجتها بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم أنتفع به قال : اذهب واحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء فإني أرجو أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم قال: ففعل الرجل وَبرأ (٣) .

---

(١) **ضعيف**، رواه أبو داودبرقم ١٥١٨ ، وابن ماجة برقم ٣٨١٨ ، وكشف الخفاء برقم ٢٦٠٦ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ٣٢٣٦ ، وكنز العمال برقم ٢٠٨٣ ، ورياض الصالحين برقم ١٨٧٣ ،وضعفه الألباني في سنن أبي داود برقم ١٥١٨ ، وفي سُنن ابن ماجة برقم ٣٨١٩ .

(٢) **حسن**، رواه السيوطي في صحيح الجامع الصغير برقم ٤١٦٥ وسكت عنه وكشف الخفاء برقم ١٢٨٥ ، وكنز العمال برقم ٢٨١٨١ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٥٨ .

(٣) **ضعيف**،رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣ / ٣٢١ برقم٣٣٨١ ،والمنذري في الترغيب والترهيب ٢ / ٤٢ برقم ١٤٢٦ ، وتاريخ الإسلام ١ / ١٣٨٢ ، وقال عنه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ٢ / ٤٢ برقم ٥٦٥ ضعيف مقطوع.

[٤] الدعاء بظهر الغيب لمبتلي :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رَسُول الله ﷺ يقول: **(دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة؛ عند رأسه ملَك موكّل كلما دعا لأخيه بخير قال الملَك الموكل به: آمين ولك بمثل)** (١) .

وعليه فعلى المريض أن يدعو بظهر الغيب لمريض بمثل مرضه أو بغيره دون أن يُعلمه أنه يدعو له فسيُؤمِّن مَلَكٌ على دعوته وفي تأمينه علامة من علامات قبول الدعاء لذلك المريض ثم يقول ولك بمثل أي لك من الشفاء مثل ما لصاحبك فيكتب الله الشفاء لكليهما، وهذا من فضل الله ـ عز وجل ـ .

الدرس الخامس: رُب كلمة يقولها القائل :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً ، يهوى بها في جهنم)**(٢) .

عن بلال بن الحرث المزني رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)** (٣) .

فها هنا لا يقر الغلام جليس الملك على كلمة ظاهرها الشرك المحض حين قال: (إن أنت شفيتني) بل بادر بردها قائلاً: (إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى) ، وهو في ذلك يتمثل منهج النَّبيّ ﷺ الذي ما كان يرضى بسقطات

(١) رواه مسلم برقم ٨٨ / ٢٧٣٣ ، وأبو داود برقم ١٥٣٤ ، وابن ماجة برقم ٢٨٩٥ ، وكنز العمال برقم ٣٣١٠ ، ورياض الصالحين برقم ١٤٩٥ .

(٢) رواه البخاري برقم ٦١١٣ ، والبيهقي في شُعب الإيمان برقم ٤٩٥٥ ، وفي الكبرى برقم ٦٤٤٢ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٣١٩ ، وقال حسن صحيح، وأحمد برقم ١٥٨٩٠ ، وابن حبان برقم ٢٨٠ ، والحاكم في المستدرك برقم ١٣٦ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨٨٨ .

اللسان حتى في أحلك الظروف وأخطر المواقف.

فعن أبي واقد الليث رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا : يا رسول الله ؛ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النَّبيّ ﷺ «**سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة من كان قبلكم**» [١] ، فرغم أن النَّبيّ ﷺ مقبل على حرب ويهمه أن يكثِّر عدد الجيش؛ إلا أنه عالج الموقف في حينه؛ ولم يؤجله إلى ما بعد انتهاء الحرب، وما رضى أن يكون في جيشه من يتعلق بغير الله .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه : أن رجلاً خطب عند النَّبيّ ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ :« **بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله** » قال ابن نمير فقد غوى[٢] فرغم أن الخطيب يحض على طاعة الله والرسول ﷺ إلا أنه لما تلفظ بلفظ فيه تسوية بين الله ورسوله ﷺ بقوله ومن يعصهما وهذا محض الشرك بادره النَّبيّ ﷺ قائلاً: بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله،وما سكت النَّبيّ ﷺ ولكنه عالج الأمر في حينه.

أما نحن فيقرع آذاننا كل يوم ألفاظ تنقض بناء التوحيد في قلب قائلها وما يتحرك لنا ساكن، بل قد يحدث ذلك في معظم بيوتنا، وممن نعول ومن هم تحت أيدينا وما يحمَّر لنا خد ولا ينتفخ لنا ودج وتمر على أغلبنا مرور الكرام.

وقد علق النَّبيّ ﷺ الكفر والإيمان على بعض الألفاظ التي قد يقولها العبد وهو لا يلقي لها بالاً ، كما ورد عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢١٨٠ وقال حسن صحيح، وأحمد برقم ٢١٩٤٧ ، وابن حبان برقم ٦٧٠٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٣٢٩٠ ، والنسائي في الكبرى برقم ١١١٨٥ ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥٤٠٨ ، وفي ظلال الجنة برقم ٧٦ .

(٢) رواه مسلم برقم ٤٨ / ٨٧٠ ، وأبو داود برقم ١٠٩٧ ، وأحمد برقم ١٨٢٧٣ ، وابن حبان برقم ٢٧٩٨ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٤٠٦ .

رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (**هل تدرون ماذا قال ربكم**) ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال: (**أصبح من عبادي مؤمن وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي، ومؤمن بالكوكب**) (١) .

قال أبو حامد الغزالي : واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان؛ سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هارٍ إلى أن يضطره إلى البوار،ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع؛ فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعِلمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه،ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله ،وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان (٢) .

فخطورة الكلمة بمكان، تعرف مداه بعلمك أنك تدخل الإسلام بلسانك، وتخرج منه أيضاً به، فكلمة تعصم بها دمك وأخرى تهدره، فإياك أن تطلق للسانك العنان، ولكن تفحص كلامك قبل أن تخرجه، فرب كلمه يقولها القائل تقول لصاحبها دعني، فكم من كلمة قيلت لا يحسب قائلها لنتائجها حساباً خربت بسببها الديار، وهلكت بها الأمصار، وأزهقت الأنفس، وضاعت الحقوق وانتهكت الحرمات .

---

(١) رواه البخاري بارقام ٨١٠، ٩٩١، ٣٩١٦، ٧٠٦٤ ، ومسلم برقم ١٢٥ / ٧١ ، وأبو داود برقم ٣٩٠٦ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٨٥٣ ، وابن حبان برقم ١٨٨ .

(٢) الإحياء ٣ / ١٠٨ .

الدرس السادس: الدعاء يُقبل إذا كان لمن يؤمن بالله :

الدعاء إذا كان من قلب مقبل على الله يتحرى الأوقات الفاضلة، والأحوال الشريفة، يتخير من الألفاظ ما يليق بخطاب ربه، ويتناسب مع مطلوبه كان سهماً لا يُرد، فإن كان لغيره فلابد أن يكون محلاً للقبول، فالدعاء لأهل الكفر والضلال مردود، اللهم إلا إذا كان دعاءً لهم حال حياتهم بالهداية والرجوع إلى الله، أما غير ذلك من مصالح الدنيا فلا يقبل الله الدعاء لهم وإن كان الداعي من أخلص الناس وأقربهم إليه، ولذلك لما جاء جليس الملك إلى الغلام وكان كافراً اشترط عليه أن يؤمن بالله أولاً حتى يكون محلاً للقبول، فإنه لو ظل على كفره لما كان للدعاء فائدة، فلما آمن جليس الملك وأصبح محلاً لقبول الدعاء رفع الغلام يديه إلى السماء سائلاً ربه أن يشفيه، فما رد الله يدي الغلام صفراً خائبتين، فما كاد يهوى بهما حتى مَنَّ الله على جليس الملك ورد عليه بصره، فإن أردت الدعاء لأهل الكفر والضلال فادعو الله ـ عز وجل ـ لهم أن ييسر لهم سبل الهداية، وأما أهل البلاء من المؤمنين فاجعل دعاءك لهم بظهر الغيب فيكون لك مثله.

الدرس السابع: استغلال حاجة المستفتي لدعوته إلى الله :

يجب أن يستغل الداعية إلى الله حاجة المستفتي والسائل لدعوته إلى الله قبل أن يجيب فتواه أو مسألته؛ لأن المحتاج يصغي جيداً لمن عنده قضاء حاجته، وهذا ما فعله يوسف مع صاحبي سجنه لما أتياه سائلين إياه أن يعبِّر رؤييهما، فلم يجبهما إلى مطلبيهما ولكنه دعاهما لعبادة الله وحده، ويصور لنا ربنا هذا المشهد قائلاً: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا

مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾.

[يوسف : ٣٦-٤١] .

فهـا هو يوسف عليه السلام لما جاءه صاحبا سجنه بين لهما أن ما هو فيه من الإحسان، والقدرة على تأويل الرؤى، وكذا إخبارهم بما سيأتيهم من طعام، إنما هو من فضل الله ـ عز وجل ـ لما ترك ملة الكفر، واتبع ملة الإسلام التي جاء بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وفي هذا تنبيه لهما لما هما فيه من الضلال، وليس إعجاباً بنفسه وأنفة عليهما ـ وما صرح لهما بذلك ـ ثم دعاهما ليتنعما بهذا الخير الذي هو فيه، وذلك بأن يعبدا الله ـ عز وجل ـ ولا يشركا به شيئاً، وأن ما يدعوهما إليه هو الدين القيم الذي يجب أن يتبعاه، ثم شرع في إجابة مطلبيهما في تأويل رؤييهما.

وها هي أم سليم لما جاءها أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ راغباً في الزواج منها وكان يومئذ مشركاً وهي مسلمة فأبت عليه إلا أن يُسلم وجهه لله وكان لها ما أرادت ورضيت بأعظم مهر ألا وهو الإسلام فعن أنس بن مالك قال: قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم وهي أم أنس : أرى هذا الرجل يعني النَّبيّ ﷺ يحرم الخمر فانطلق حتى أتى الشام فهلك هنالك ، فجاء أبو طلحة فخطب أم سليم فكلمها في ذلك ، فقالت :يا أبا طلحة ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة،

لا يصلح أن أتزوجك ، قال : وما ذاك دهرك ، قالت : وما دهري ؟ ، قال : الصفراء والبيضاء ، قالت : فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء أريد منك الإسلام ، قال : فمن لي بذلك ، قالت : لك بذلك رسول الله ﷺ ، فانطلق أبو طلحة يريد النَّبيّ ﷺ ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه ، فلما رآه قال : «**جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه** » فجاء فأخبر النَّبيّ ﷺ بما قالت أم سليم فتزوجها على ذلك ، قال ثابت : فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهراً فتزوجها [١] .

ويظهر من ذلك أن استغلال حاجة المدعو لدعوته إلى الله من منهاج النبوة، ودأب الصالحين ومسلك العلماء الربانيين من كل أمة، فعلى من تصدى لدعوة الناس ألا يغفل هذا الأسلوب حال دعوته للآخرين عسى أن يكتب الله له التوفيق ويكون دليلاً للناس إلى الخير ، وقائداً لهم إلى الله فيكتب الله له ولهم النجاة يوم القيامة.

ولكن هنا نكتة لطيفة يجب أن يكون الداعية على بصيرة منها، ألا وهي ، هل يشارط [٢] كل من كانت له حاجة أم أن هذا الأمر يجمل مع البعض ولا يجمل مع البعض الآخر ؟

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

الداعي إلى الله يستغل حاجة الناس إليه في دنياهم لدعوتهم إلى الله سبحانه ـ من غير أذى ـ ، ولكن بكمال الشفقة والبحث عن مصلحة دينهم قبل مصلحة دنياهم، ويجعل الدنيا مدخلاً للدين، ويذكر ما علمَّه الله وما أقدره عليه من قضاء حاجات الناس مع نسبة الفضل لله ـ عز وجل ـ والنعمة له سبحانه، وأن هذا

---

(١) رواه البيهقي في السُنن الكبرى برقم ٦٩٢٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٤٦٧٦ ، ومصنف عبد الرزاق برقم ١٠٤١٧ ، ومسند الطيالسي برقم ٢٠٥٦ .

(٢) الشارطة : أن يجعل الإسلام وما في معناه من مفرداته شرطًا لقضاء حاجة السائل .

الفضل وهذه النعمة إنما هي بسبب فضل أعظم ونعمة أتم هي نعمة اتباع الدين الحق وترك الأديان الباطلة، فإن هذا الأسلوب من أعظم ما ينبه القلوب الغافلة ويوقظ الفطر المستكنة التي سترتها ضلالات الشرك وغطتها غشاوات التقليد الأعمى، وينبغي أن يراعى في التقديم والتأخير في هذا المقام، أعني هل يُقدِّم دعوته على قضاء حاجتهم، أم يُقدِّم قضاء حاجتهم ثم يدعوهم بعد ذلك، أم يشارطهم أصلاً فلا يسعى في قضاء حاجتهم إلا إذا استجابوا للحق ؟، ينبغي أن يراعي أحوال الناس ونوعيتهم وشدة حاجتهم، والمصلحة والمفسدة في ذلك، فقد قدم يوسف مع صاحبيه في السجن دعوتهم قبل قضاء حاجتهم بتأويل الرؤيا، وأما مع الملك فقدم تأويل الرؤيا مجاناً، بل وزادهم ما ينبغي عمله وبشارة إضافية ليست في الرؤيا بالفرج بعد الشدة، . . . وغلام أصحاب الأخدود كان يشارط الناس ومنهم جليس الملك الأعمى فقال له: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله - تعالى - فإن شئت آمنت بالله، فدعوتُ الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله - تعالى - ، وهذا والله هو المناسب مع كلٍ منهم، فإن الملوك والكبراء لو شارطهم الداعية مع عدم شعورهم بشدة الحاجة لربما كان سبباً في رفضهم الدعوة، وإظهار العناد، وعدم الحاجة إلى المصلحة الدينية والدنيوية، بخلاف حاجة المريض المتألم، شديد الحاجة، مثل من عمى بعد بصره، فإنه لن يُظهِر مثل هذا العناد فيناسبه المشارطة، وأما مثل حاجة سجين في تأويل رؤيا، فهو متشوف متطلع إلى معرفة مآله ووقت خروجه من السجن، فناسبه أن يُدعى أولاً وهو متشوف ثم تُقضى حاجته دون مشارطة (١) .



(١) تأملات إيمانية ص ١٠٨، ١٠٩ .

الوقفة الثانية عشرة

[فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: " من رد عليك بصرك ؟ " قال: " ربي " ، قال: " أولك رب غيري؟ " قال: " ربي وربك الله " فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام] .

وفيها درسان:

الدرس الأول: على نفسها جنت براقش :

كانت بَرَاقشُ كلبةً لقومٍ من العرب فأُغير عليهم فهَرَبُوا ومعهم بَرَاقش فاتبع القومُ آثارَهُم بنُبَاح بَرَاقش فهجموا عليهم فاصطلموهم[١] قال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لَحِقَتْنِي ... لا يَساري ولا يَميني رَمَتْني
بل جَنَاها أخٌ عليَّ كريمٌ ... وعلى أهلها بَرَاقشُ تَجْنِ[٢]

فصار هذا مثلاً يُضرب لكل من كان سبباً في إلحاق الضُر بنفسه.

قال تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود : ١١٣] .

قال ابن كثير: وقوله : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا،أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ أي:

---

(١) اصطلموهم: أي قتلوهم جميعاً .
(٢) مجمع الامثال ٢ / ١٤ برقم ٢٤٢٧ .

ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه (١) .

قال السعدي : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿ **فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ يمنعونكم من عذاب الله ولا يحصِّلون لكم شيئاً من ثواب الله ﴿ **ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾ (٢) .

وبذا يُعلم أن من أهم أسباب ظلم النفس، وإلحاق الضُر بها، والجناية عليها، ملازمة الظالمين والسير في ركابهم، وإعانتهم على ظلمهم.

والعجيب أن هؤلاء الأعوان يظنون أنهم يحسنون صُنعاً ، وإذا سألت أحدهم لم تفعل ذلك؟ قال: (أنا عبد المأمور) ويظن بذلك أنه أفلت من الحساب ونجا من العقاب، كلا، فليتنبه إلى أنه أحد الظلمة.

يقول ابن الجوزي: أترى ما علموا أن مساعد الظالم ظالم وفي الحديث : (كفي بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة) (٣) قال السجان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ ، فقال : (لا أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمره) (٤) .

فمن فعل ذلك فهو ظالم، قد جلب الظلم لنفسه ثلاث مرات:

الأولى: لما استعدى المظلومين عليه يفرحون لضُر أصابه ويحزنون لخير حصَّله، ويجأرون إلى الله بالدعاء عليه آناء الليل وأطراف النهار، ومن استطاع منهم أن يلحق به أذى آذاه.

الثانية: لما جلب لنفسه غضب الله في الدنيا بأخذ حقوق المظلومين منه ولو

(١) عمدة التفسير ٢ / ٢٤٤ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤١١ .
(٣) ذكره البيهقي في شعب الإيمان برقم ٩٤٣٠ من قول مالك بن دينار .
(٤) صيد الخاطر ٤٣٩ .

بعد حين فإن دعواتهم ليس بينها وبين الله حجاب، فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن (**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**)[١] .

وغضبه - عز وجل - يوم القصاص فعند الله ستجتمع الخصوم وسيؤدى كل ظالم لمن ظلمه مظلمته صغُرت أم كبرت.

الثالثة: إن عرف الحق وثاب إلى رشده وحاول أن ينخلع من تحت يد الظالم أذاقه صنوفاً من العذاب لا تتحملها الجبال الرواسي وها هو جليس الملك أمامك خير مثال، فبعدما كان من المقربين للملك، ومن خواصه، ومن سدنة ملكه ومعينيه على ظلمه الذي بلغ مداه حتى أنه ادعى الإلوهية والربوبية من دون الله ، لما شعر أن جليسه قد فارق منهاجه وصرح له بالحق مازال يعذبه حتى دل على الغلام، ثم بعد ذلك نزع لحمه من عظمة، وشقه من مفرقه نصفين، وما تذكَّر خدماته له، ولا سعيه بين يديه، فأين ساعات الصفاء والمرح ؟، وأين ليالي السمر؟، وأين رحلات اللهو واللعب؟، أين وفاء هؤلاء ؟ !! إنهم لا وفاء لهم، بل هم قوم غُدْر، من وقف في طريقهم تخلصوا منه ولو كان من أقرب الأقربين.

ولذلك حذرنا النَّبيّ ﷺ من التورط بالاقتراب من هؤلاء فيما ورد عن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ قالا : قال رسول الله ﷺ : (**ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منكم فلا**

---

(١) البخاري برقم ١٤٢٥ ، ومسلم برقم ٢٩ / ١٩ ،وأبو داود برقم ١٥٨٤ ، والترمذي برقم ٦٢٥ ، والنسائي برقم ٢٤٣٥ ، وابن ماجة برقم ١٧٨٣ ، وأحمد برقم ٢٠٧١ ، وسُنن الدارمي برقم ١٦١٤ .

يكونن عريفاً ولا شرطياً و لا جابياً ولا خازناً) [١] .

فإياك أن تكون معيناً لظالم لأنك بذلك تظلم نفسك وتجني على نفسك بنفسك ويصدق فيك المثل: على نفسها جنت براقش.

الدرس الثاني: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر : [٢]

عن أبي أمامة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **(أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تُقال لإمام جائر)**[٣] .

وعن أبي أمامة وأبي سعيد الخدري وطارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[٤] .

وعن طارق بن شهاب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **(إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)** [٥] .

وعن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **(سيد الشهداء حمزة بن عبد**

---

(١) صحيح ابن حبان برقم ٤٥٨٦ ، والطبراني في الكبير برقم ٩٤٩٨ ، وأبو يعلى في مسنده برقم ١١١٥ ، والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٩٢٢٥ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الرحمن بن مسعود وهو ثقة ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٦٠ .

(٢) هذا الدرس نقلته من كتاب زهر البساتين ١ / ٦٦– ٨١ باختصار وتصرف وزيادات.

(٣) **حسن** ، رواه أحمد برقم ٢٢٢١٢ ، وقال الأرنؤوط : حسن لغيره ، والطبراني في الكبير ٨ / ٢٨١ برقم ٨٠٨٠ عن أبي أمامة ﵁، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٦٨ .

(٤) **صحيح** ، رواه أبو داود برقم ٤٣٤٤ ، والترمذي برقم ٢١٧٤ وقال حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة برقم ٤٠١١ ، والحاكم برقم ٥٠٥، ٥٠٦ ، والحميدي في مسنده برقم ٧٥٢ وأحمد برقم ١٨٨٥٠ ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح .

ورواه ابن ماجة برقم ٤٠١٢ ، وأحمد برقم ٥ / ٢٥١، ٢٥٦ ، والروياني في مسنده برقم ٣٠ / ٢١٥ / ٢ ، وابن عدي برقم ١١٢ / ٢ ، والبيهقي في الشعب برقم ٢ / ٤٣٨ / ١ عن أبي أمامة ﵁ .

ورواه النسائي برقم ٢ / ١٨٧ ، وأحمد برقم ٤ / ٣١٥ ، والبيهقي والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ق٢١ / ٢ عن طارق بن شهاب وصححه النووي والمنذرى، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٤٩١ وفي صحيح الجامع برقم ١١٠٠ .

(٥) **صحيح** ، رواه الترمذي برقم ٢١٧٤ عن أبي سعيد ﵁ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩١ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١١٠٠ .

المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) [١] .

وعنه أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك)** [٢] .

ومن جملة الأحاديث السابقة يستقر في النفس أن أعظم ألوان الجهاد على الإطلاق كلمة حق يصدع بها قائم لله بحجة عند سلطان جائر، ولكن يجب أن نحد لهذا الأمر حدوداً ونضبطه بضوابط حتى لا يُظن أنه على إطلاقه، وحتى لا يُطلق كل منا لنفسه العنان ليحتسب على ولي الأمر، وهذه الضوابط هي:

أولاً: إذا كان الحاكم مسلماً:

[١] يجب طاعته ما دام يطيع الله ـ عز وجل ـ :

على المأموم والمحكوم أن يطيع الحاكم المسلم في طاعة الله، ولا يعصيه في معصية الله؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لما ورد عن عليّ رضي الله عنه أن النّبيّ ﷺ بعث جيشاً وأمَّر عليهم رجلاً فأوقد ناراً، وقال ادخلوها فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون إنما فررنا منها، فذكروا للنبي ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها **(لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة)**، **وقال للآخرين (لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف)** [٣] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النّبيّ ﷺ قال: **(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)** [٤] .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة

---

(١) **حسن**: أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٤٨٨٤ وقال صحيح الإسناد، والضياء عن جابر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٦٧٥ وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣٧٤ .

(٢) **صحيح**: أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . كذا قاله العفاني .

(٣) رواه البخاري برقم ٦٨٣٠، ٤٠٨٥، ومسلم برقم ٣٩ / ١٨٤٠، وسنن النسائي برقم ٤٢٠٥، ومسند الإمام أحمد برقم ٧٢٤، ومسند البزار برقم ٥٨٩ .

(٤) مسلم برقم ٣٨ / ١٨٣٩، وسنن النسائي برقم ٤٢٠٦ وسنن النسائي الكبرى برقم ٧٨٢٩، ٨٧٢٠ .

الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله ؟، قال :« **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**» (١) .

[٢] إن عصى الحاكم ربه أو أمر بمعصية يُستحب أن يُنصح سراً :

ويستحب نصيحة الحاكم المسلم سراً من غير تشهير، ولا تعيير ، لحديث عياض بن غنم أن رسول الله ﷺ قال : (**من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبده علانية ، ولكن ليأخذ بيده ، فيخلو به ؛ فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذي عليه**) (٢) .

وعن أبي وائل شقيق قال : قيل لأسامة بن زيد : ألا تدخل على عثمان فتُكَلِّمه؟، فقال : أترون أني لا أكلمه إلا أُسمعكم ؟،والله لقد كلمته فيما بيني وبينه،ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه) وفي لفظ للبخاري : (**إنكم لترون أني لا أكلمه ! إلا أسمعكم ؟ ! إني أكلمه في السر**) (٣) .

قال ابن حجر: فقال أسامة قد كلمته سراً دون أن أفتح باباً، أي : باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة. ثم عرَّفهم أنه لا يداهن أحداً ولو كان أميراً بل ينصح في السر جهده).

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٧٦ وقال : هذا حديث صحيح، وأبو داود برقم ٤٦٠٧ ، ومسند الإمام أحمد برقم ١٧١٨٤ وقال الأرنؤوط : حديث صحيح رجاله ثقات ، وسنن الدارمي برقم٩٥ ،وصحيح ابن حبان برقم٥ ، ومستدرك الحاكم برقم٢٣٢ ،ومعجم الطبراني الكبير برقم ٦٢٣ ،وشعب الإيمان برقم ٧٥١٥ ، وصححه الألباني في سنن الترمذي برقم ٤٦٠٧ ، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٦٧٦ ، وسنن ابن ماجة برقم ٤٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد برقم ١٥٣٦٩ وقال الأرنؤوط : حسن لغيره ، وفي مسند الشاميين برقم ٩٧٧ ، ومجمع الزوائد برقم ٩١٦١ وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم ١٠٩٦ .

(٣) رواه مسلم برقم ٥١ / ٢٩٨٩ ، والبخاري برقم ٧٠٩٤ ، وأحمد برقم ٢١٨٤٨ ، والحميدي في مسنده برقم ٥٤٧ .

ثم قال: وقال عياض : مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يخشى من عاقبة ذلك،بل يتلطف به وينصحه سراً، فذلك أجدر بالقبول [١].

قال النووي ـ رحمه الله ـ : (وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سراً وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكَّفوا عنهم) [٢].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : (وفي الحديث تعظيم الأمراء والأدب معهم وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا ويأخذوا حذرهم بلطف وحسن تأدية بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير) [٣] .

وأخرج أحمد بسنده عن سعيد بن جُمْهَان قال : أتيت عبد الله بن أبي أوفي وهو محجوب البصر فسلمت عليه ، قلت : فإن السلطان يظلم الناس ويفعل بهم ، قال : فتناول يدي فغمزها بيده غمزة شديدة ، ثم قال : ويحك يا ابن جمهان عليك بالسواد الأعظم، إن كان السلطان يسمع منك فأته فأخبره بما تعلم؛ فإن قبل منك وإلا فدعه فإنك لست بأعلم منه) [٤] .

وقد كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لا يُحدِّث بالأحاديث التي توهم بجواز الخروج على الأئمة .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (ومن دقيق الفطنة : أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ، فتحمله رتبته على نصرة الخطأ، وذلك خطأ ثانٍ ، ولكن تلطف في إعلامه به بحيث لا يشعر به غيره) [٥] .

وقال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ : (ولكن ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام

---

(١) فتح الباري ١٣ / ٦١ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٩٢ .
(٣) فتح الباري ١٣ / ٦٢ .
(٤) رواه الإمام أحمد ٤ / ٣٨٢ برقم ١٩٤٣٤ ، وابن أبي عاصم في السُّنَّة ٢ / ٥٢٣ والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٩١٦٣، ١٠٤٢٩ وقال رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، وحسّنه الألباني في السُّنَّة.
(٥) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص ٥٤ .

في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يُظهر الشناعة عليه على رءوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده، ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يذل سلطان الله؛ وأنه لا يجوز الخروج على الأئمة ـ وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ـ ما أقاموا الصلاة، ولم يظهر منهم الكفر البواح)(١) .

[٣] إن لم يقبل النصيحة سراً أو منع العلماء من الوصول إليه يُنصح جهراً :

فإذا احتجب الولاة عن رعيتهم، وحالت دونهم الستور والأبواب والحراس بحيث تكون عنقاء مغرب (٢) أقرب ملايين المرات للناس من هؤلاء الذين يصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : **(من ولاه الله من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلَّتهم وحاجتهم ،وفقرهم وفاقتهم ،احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ، وحاجته ، وفاقته ، وفقره)** (٣) .

إذا قامت السدود بين الراعي والرعية بحيث أن الوصول إلى الحاكم صار ضرباً من المحال، وصار المنكر عاماً هل يظل النصح سراً ؟!!! .

إن القول باستحباب نصح الإمام سراً لا يمنع من الإنكار عليه علانية على الصحيح إن احتمل المقام ذلك وكانت المصلحة تقتضيه؛ لا سيما إذا صدر المنكر علانية، فالأمر دائر مع المصلحة وهذا هو الوسط في هذه المسألة، كما أن في هذا القول جمعاً لأدلة هذا الباب والآثار الواردة فيه .

قال النووي عند كلامه على حديث أسامة بن زيد السابق :

(وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سراً وتبليغهم ما يقوله الناس

---

(١) السيل الجرار للشوكاني ٤ / ٥٥٦ .

(٢) طائر أسطوري عظيم معروف الاسم غير معروف الجسم.

(٣) **صحيح** ، رواه أبو داود برقم ٢٩٤٨ ،والطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٣٢ والحاكم في المستدرك برقم ٧٠٢٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٣٨٥ ، والسنن الكبرى برقم ٢٠٠٤٥ ، ومسند الشاميين برقم ١٤٠٤ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٦٢٩ ، وصحيح أبي داود برقم ٢٥٥٥ ، وصحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٠٨ .

فيهم لينكفُّوا عنه، وهذا كله إذا أمكن ذلك؛ فإن لم يمكن الوعظ سراً والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق) (١) .

إن المنكر إذا كان عاماً فإن النهى عنه يكون عاماً، ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المكره كانت عامة ، كذا موقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كان جهاداً وعلانيةً، ومن قبله موقف الإمام الثورى، وإنكار سلطان العلماء العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد سلطان مصر كانت عامة ، وفي خطبة جمعة في المسجد الأموى بدمشق، ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع من وفد علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخاقانات والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلى دمشق يتبركون به، ويسألونه الدعاء لهم، ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة، لأن عدداً من كبار العلماء الذين كانوا يوقعون عليها من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الرسائل تتعلق بقضايا عموم الناس.

[٤] إن لم ينتصح سراً ولا جهراً لا يجوز الخروج عليه بالسيف والصبر على ظلمه أولى :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النَّبيّ ﷺ قال : **(من كره من أميره شيئاً فليصبر ؛ فإنه من خرج من السلطان شبراً فمات ، مات ميتة جاهلية)** (٢) .

قال ابن حجر رحمه الله : قال ابن بطال : في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار ، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه ، لما في ذلك من حقن للدماء وتسكين الدهماء (٣) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٩٢ .
(٢) رواه البخاري برقم ٦٦٤٥ ، ومسلم برقم ٥٦ / ١٨٤٩ .
(٣) فتح الباري ١٣ / ٧ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت الصادق المصدوق ﷺ يقول: (**هَلَكَةُ أمتي على يد غلمة من قريش**) فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت) (١) .

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: قال ابن بطال: وفي الحديث أيضاً حجة لما تقدم من ترك القيام على السلطان ولو جار؛ لأنه ﷺ أعلم أبا هريرة بأسماء هؤلاء، وأسماء آبائهم، ولم يأمرهم بالخروج عليهم مع إخباره بأن هلاك الأمة على أيديهم، لكون الخروج أشد في الهلاك، وأقرب في الاستئصال من طاعتهم، فاختار أخف المفسدتين، وأيسر الأمرين (٢) .

وفي حديث أم سلمة عند مسلم عن النَّبيّ ﷺ قال (**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون، وتنكرون فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع**) قالوا: يا رسول الله أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: (**لا، ما صلوا**) (٣) .

وعند مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم ويُصلون عليكم، وتصلون عليهم**(٤) ، **وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم،ويبغضونكم،وتلعنونهم ويلعنونكم**) قيل: يارسول الله أفلا ننابذهم بالسيوف؟، فقال: (**لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه،فاكرهوا عمله،ولا تنزعوا يداً من طاعة**) (٥) .

وإقامة الصلاة بالنسبة إلى الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٤١٠، ٦٦٤٩، والإمام أحمد برقم ٨٢٨٧، وكنز العمال برقم ٣٠٨٩٩ .
(٢) فتح الباري ١٣ / ١٢ .
(٣) رواه مسلم برقم ٦٣ / ١٨٥٤ .
(٤) أي يدعون لكم وتدعون لهم
(٥) رواه مسلم برقم ٦٥، ٦٦ / ١٨٥٥، والإمام أحمد برقم ٢٤٠٢٧، وسنن الدارمي برقم ٢٧٩٧، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٨٩، ومعجم الطبراني الكبير برقم ١١٥، وسنن البيهقي ١٦٤٠٠، ومسند الشاميين برقم ٦٣٧، وكنز العمال برقم ١٤٨٣٩ .

وحديث مسلم السابق نص ظاهر واضح في أن الإمام وإن استحق اللعن من المسلمين وكان بغيضاً إليهم، مبغضاً لهم، لا يجوز الخروج عليه بالسيف ما أقام الصلاة.

وقال أهل السُّنَّة والجماعة، والسلف قاطبة: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي ما زال يصلي إلا أن يكفر كفراً بواحاً، والبواح هو العلانية الشائع أي: يُعلن ذلك، ولا يكون مسراً به لأهل خاصته مثلاً.

واستندوا في ذلك إلى حديث جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو مريض، فقلنا: حدثنا - أصلحك الله - بحديث ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: (**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**) (١).

وهذا نص ظاهر في عدم جواز منازعة الإمام الأمر إلا أن يعلن الكفر علانية، وقوله: (عندكم من الله فيه برهان) أي: نص آية، أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه: لا يجوز الخروج عليهم مادام فعلهم يحتمل التأويل.

قال أبو جعفر الطحاوي: ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف.

ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى أن طاعتهم من طاعة الله فريضة ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة (٢).

قال النووي - رحمه الله -: وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٦٤٧، ومسلم برقم ٤٢ / ١٧٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ١٦٣٣٠.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٩.

أهل السُّنَّة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق،ثم قال: قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه (١) .

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: (لا يجوز بحال إنكار منكر الإمام المسلم بالسيف، وإنما يُكتفي بإنكار منكره بالقلب واللسان؛ وذلك أن الضرر الواقع على جمهور المسلمين من الخروج عليه أشد من انحراف الحاكم وظلمه؛ فإن السيف إذا وقع بين الأمة وقعت بسببه مفاسد كثيرة، فالإمام لا بد أن ينحاز له كثيرون معه وخاصة إذا كانت الشوكة بيده، كالسلاح والجيوش، وهؤلاء حتماً سيتعصبون له، ومن ذا يستطيع أن يصل إلى الإمام دون أن يقع القتل في مسلمين كثيرين يستتر بهم الإمام) (٢) .

فهذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين أوجبوا إنكار منكر الإمام بكل صورة من صور الإنكار: اليد واللسان، والقلب.

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: وأما استدلال الخوارج والمعتزلة بقول عمر رضي الله عنه: (وإذا أسأت فقوموني) فقال له رجل: (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا) في وجوب الخروج على الإمام بالسيف إذا انحرف أو ظلم في نظرهم عما يعتقدونه، ففيه نظر، وذلك لأن عمر رضي الله عنه قال: (قوموني) ولم يقل: (قوموني بالسيف) ، كما أن قول الرجل في رده على عمر رضي الله عنه تطاول منه على أمير المؤمنين ، ولم يشأ عمر رضي الله عنه أن يرد عليه، وهو في مقام الإمام، وفي خطبته الأولى حتى لا يُتهم بالدفاع عن نفسه وإلا فهذا الأمر أشبه بين السلف مما هو معلوم من الدين بالضرورة (٣) وهذا إن صحت الرواية .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٢٢٩ .

(٢) من كتاب فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص ١١٧ .

(٣) السابق ص ١١٦ .

وقال أيضاً: ولنعلم أن كلمة الحق أقوى من ظلم أي سلطان مهما كان، وصبر أهل الحق على حقهم وتعرضهم للأذى في سبيله، وانتظارهم لفرج الله ورحمته ، عوامل رئيسية لانكسار الباطل، واندحاره مهما كان.

كما أن افتراض الشر دائماً بالسلاطين من اتباع الظن، ومن الحكم على القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ونحن نعتقد أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (١) .

وكذا لا يجوز إقامة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات وأعمال الشغب وما شابهها والتي لم يجر عليها عمل السلف الصالح ويترتب عليها ضياع الأمن وإثارة الفتن.

ثانياً: إن كان الحاكم غير مسلم :

وأما الولاة الذين لا يحكمون بالشرع ويحاربون الإسلام وأهله؛ فإن لكل حالة لبوساً ولكن ترك الخروج المسلح حتى لا تراق دماء المسلمين الأبرياء فيه الخير كل الخير، والصبر على الأذى هو طريق النبيين والمرسلين ويكفي قول النَّبيّ ﷺ لخباب رضي الله عنه وقد لاقى ما لاقى هو والصحابة : (ولكنكم تستعجلون) فلينظر إلى فتاوى العلماء الربانيين الصادقين ولا يندفع الناس بعواطفهم إلى تيه مظلم وفتن تعجز عن حملها الجبال، وكم مدينة فُتحت بالسيف والسنان، وكم من مدينة فتحت بالعلم والقرآن .

ثالثاً بالنسبة للعلماء :

[١] يجب على من علم الحق بدليله أن يصدع به ولا يكتمه خشية السلطان:

فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) ﴾ [البقرة :١٥٩] .

---

(١) السابق ص ١١٨ .

قال الطبري، وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس؛فإنها معنيٌّ بها كل كاتم علماً فرض الله بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار)** (١).

قال الشيخ رشيد رضا : (إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصاً، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة،ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمهم،حاولوا التفصّي منه(٢)، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سُئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم؛ وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سُئل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلا كان له أن يحيل على غيره.

وهذه قاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبرة فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل، ثم قال : (ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوى فإنما هو في الوقائع العملية الاجتهادية، التي تعرض للناس ، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (٣) .

إن هؤلاء كتموا ما أوجب الله عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها على الواقع خوفاً من السلطان، والله جل وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتى سلاطين الأرض وهذه والله هي الفتنة !!!.

---

(١) تفسير الطبري ٣ / ٢٥٢ دار المعارف، قال الشيخ أحمد شاكر : هذا حديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان .

(٢) التفصي منه: التفلت والهروب منه.

(٣) تفسير المنار ٢ / ٥١ .

كان العلماء الربانيون يقولون والخطر محدق بهم من كل جانب : (إذا أجاب العالم تُقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق ؟) ، وهذا يعني أن بعضهم كان يُفضِّل الموت على التُقية [١] .

وكانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾[آل عمران : ١٨٧] ، ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل البعض في أيامنا هذه .

[٢] الحذر من كثرة الدخول على السلطان الظالم:

الحذر من كثرة الدخول على السلطان الظالم إلا لنصحه لأنها مجلبة لكل فساد فلقد كان العلماء الربانيون ينأون بأنفسهم عن مجالسة السلاطين والتزلف لهم[٢] ، وقبول وظائفهم وأعطياتهم .

فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**من بدا جفا** [٣] ، **ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا إزداد من الله بعداً**) [٤] .

ورحم الله الإمام سفيان الثوري الذي قال : (ما أخاف من إهانتهم لي ، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم) [٥] .

ولما احتج قوم على أبي حامد الغزالي ـ لما أفتى بعدم جواز أخذ أعطيات

(١)**التقيـة** : إظهار خلاف ما في القلب حفظاً للنفس.
(٢)**التزلف** : التقرب .
(٣)من بدا جفا : أي من سكن البادية أصيب بالجفاء وقسوة القلب .
(٤)**حسن صحيح** : رواه أبو داود برقم ٢٨٥٩ والترمذي برقم ٢٢٥٦ ، والنسائي برقم ٤٣٠٩ ، والإمام أحمد برقم ٣٣٦٢ ، والطبراني في الكبير برقم ١١٠٣٠ ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٢٤٨٦ ، وحسنه في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٧٢ .
(٥)تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٢٢ دار الفكر .

الظالمين ـ وقالوا إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أعطيات وجوائز الظالمين، فقال ـ رحمه الله ـ : (إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبول عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم ولا يُكَثِّرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم، (بل يدعون عليهم ويُطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن يأخذهم بأس)[١] ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثُّر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية، والإطراء في حضورهم ومغيبهم ، فلو لم يذلَّ الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد بالخدمة ثانياً وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجالسه وموكبه خامساً ، ولإظهار الحب والموالاة والمناصرة على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي ــ رحمه الله ــ مثلاً ، فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني ، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدَّادين)[٢] .

إن غشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بالقيامة والمعاد ، وتحذيرهم من الركون إلى الدنيا وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم واجب

(١) كان ذلك كله مضبوط بالضوابط السابق بيانها .
(٢) إحياء علوم الدين ٢ / ١٣٩ .

شرعي لقوله ﷺ : (**الدين النصيحة**) ، قلنا لمن ؟ ، قال : (**لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم**) (١) .

بل هو النصح وهو أصل عظيم من أصول الإسلام ، قال جرير بن عبد الله : (بايعت النَّبيّ ﷺ على النصح لكل مسلم) (٢) .

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ : (**سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منِّي ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يُعنهم على ظلمهم ولم يُصدقهم بكذبهم فهو منِّي وأنا منه ، وهو وارد عليَّ الحوض**) (٣) .

قال أبو سليمان الخطابي : (ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدقهم على كذبهم ، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم ، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم ؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تُقلَّ من مخالطتهم وغشيان أبوابهم) (٤) .

قال ابن الجوزي : (وليس على العالِم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسِّن للعالِم الدنيا ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له،فإن عدم القناعة وغلبت نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لأنه يتعرض بأربابها) (٥) .

---

(١) رواه مسلم برقم ٩٥ / ٥٥ ، وأبو داود برقم ٤٩٤٤ ، والنسائي برقم ٤١٩٧ ، والإمام أحمد برقم ١٦٩٨٣ ، وسنن الدارمي برقم ٢٧٥٤ ، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٧٥ ، وسنن البيهقي الكبرى برقم ١٦٤٣٤ ، ومسند الحميدي برقم ٨٣٧ .

(٢) رواه البخاري برقم ٥٧، ٥٠١، ١٣٣٦، ٢٠٤٩، ٢٥٦٥، ٢٥٦٦، ٦٧٧٨ ، ومسلم برقم ٩٧ / ٥٦ ، والترمذي برقم ١٩٢٥ ، والنسائي برقم ٤١٥٦ ، والإمام أحمد برقم ١٩٢١٤ ، وصحيح ابن خزيمة برقم ٢٢٥٩ ، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٤٥ ، والمعجم الكبير للطبراني برقم ٢٢٤٤ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٢٥٩ ، والنسائي برقم ٤٢٠٨ ، والإمام أحمد في مسنده برقم ١٨١٥١ ، وصحيح ابن حبان برقم ٢٧٩ ، ومستدرك الحاكم برقم ٢٦٣ ، وسُنن البيهقي الكبرى برقم ١٦٤٤٦ .

(٤) العزلة والخلطة، هكذا عزاه الشيخ العفاني .

(٥) صيد الخاطر ص ٣٥٨ .

المرحلة الرابعة

[المواجهة]



الوقفة الثالثة عشرة

[فجئ بالغلام فقال له الملك: " أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ! " فقال: " إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى " ؛ فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب] .

وفيها درسان :

الدرس الأول: إياك والاستدراج :

جاء في تفسير الطبري: أصل (الاستدراج) اغترار المستدْرَج بلطف من استدرجه حيث يرى المستدْرَج أن المستدْرِج إليه محسن حتى يورطه مكروهاً) [١] .

يلجأ أهل الباطل إلى استمالة أهل الحق؛ وبخاصة من قويت شوكته منهم، أو التف الناس حوله، وذلك حتى لا يقعوا معه في صدام، وذلك بمحاولة تقريبه إليهم، فإن لم يفلحوا تقربوا هم إليه، فإن استعصى عليهم كادوه أو تخلصوا منه، وهنا يحاول الملك أن يقرِّب الغلام إليه بطريقتين:

الأولى: عندما قال له « أي بُني » بأسلوب التصغير، وهي لفظة يقولها أب شفيق لطفل رقيق، وهي تدل على الحنو، والشفقة، والرفق، واللين، والمودة، والقرب الأُسَري، ولكن الشر الذي تنطوي عليه لا يعلمه إلا الله ، فالملك كحية جلدها ناعم الملمس وسمها زعاف، يريد أن يستدرج الغلام بكلام عذب رقراق، كي يصل إلى غايته؛ وهي أن يجعله من سدنة ملكه.

الثانية: قوله : (قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل

(١) تفسير الطبري ٦ / ١٣٤ .

وتفعل!) ، وهنا يريد أن يقول للغلام إن طريقنا واحد، ووجهتنا واحدة، وأسلوبنا واحد، فأنا أُسيِّر ملكي بالسحر، وأنت قد بلغت من السحر مبلغاً عظيماً، تستطيع أن تفعل به الأفاعيل، وتدل على القرب الروحي .

فأراد بهذا الأسلوب أن يقول للغلام: أنت قريب منِّي جسداً وروحاً، فلم لا نتعاون ؟ ، وفي هذا الأسلوب من التلميح بما ينتظره من مستقبل باهر، ومكانة سامية، وعيش رغيد إن وافق على سدانة الملك، كما أنه ينطوي على تهديد خفي بضد ذلك من التعذيب والمهانة، والذل، وكدر العيش إن أصر على موقفه ولم يستجب لمطالب الملك.

فكل من دعا إلى الله ، وكانت دعوته تصطدم مع نظام الحكم، حاول النظام أن يستدرجه ليكون من أعوانه، وذلك بتوليته أعلى المناصب، وتقريبه من السلطان، ويفسحون له المجال، ويستخدمونه في لي أعناق النصوص الشرعية للتوافق مع أنظمتهم العفنة، وفي تلبيس الحق بالباطل، وإظهار الحق في صورة باطل، والباطل على أنه عين الحق، ويسير في ركابهم طمعاً في زخرف زائل وظل مائل، فيبيع دينه بعرض من الدنيا، فيا ويله على ما ضيع، ويا ويله ثم يا ويله على ما نصر من الباطل ودعا إليه، وما طمس من الحق ونهى عنه.

فإن لم يستجب لهم لاقى منهم الويلات، فإن صبر كان له من الله ـ عز وجل ـ الأجر، وكتب له النصر.

فإياك إياك أن تُستدرج وتبيع دينك بعرض زائل، فتلقى الله ـ عز وجل ـ مذءوماً مدحوراً، واصبر، وليكن لك في أبطال قصتنا الأسوة، فها هو جليس الملك والراهب يجودان بنفسيهما وما قالا كلمة باطل، فاستطاعوا بإذن الله أن ينزعوا روحيهما وهو أمر عسير، وما نزعوا منهما كلمة تغضب الله ـ عز وجل ـ وهو أمر يسير .

الدرس الثاني: الدلالة على أهل الحق حال التعذيب ليس نفاقاً :

في بعض الأحيان قد يبتلى الإنسان بما لا يتحمله فيدل على رفاقه ومن ينتهجون معه نفس المنهج فيتهمه البعض بالنفاق والخيانة، فهل هذا الاتهام في محله؟.

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

وفي دلالة الجليس،وهو الرجل المؤمن الصادق الداعي إلى الله ـ عز وجل ـ على الغلام دليل على سقوط الإثم عن المعذَّب والمكره إذا دل على غيره من الدعاة أو الملتزمين الصادقين وإن كان ذلك سبباً لتعرضهم لما يتعرض له لأن التعذيب أشد من القتل ، فسنرى كيف صبر هذا الرجل على القتل نشراً بالمناشير ولم يصبر عن الاعتراف على الغلام الذي علمه هذا الدين بسبب العذاب.

فلا يجوز أن يُلام إنسان ناله من هذا العذاب شيء على ما قاله ولا ما أخبر به ولا يُعد نقصاً في الإيمان ولا خللاً في التربية، بل قائد هذه الدعوة في قصتنا الغلام الصالح ـ وهو من أولياء الله تعالى وكراماته ظاهرة ـ لم يصبر على مثل هذا التعذيب،بل دل على الراهب وأخبر عنه، فلا حرج على من أصابه شيء من ذلك ولا عتاب فقد سبقه فيه أولياء صالحون ونسأل الله العافية [١] .

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٥٢، ٥٣ .

الوقفة الرابعة عشرة

[فجئ بالراهب فـــقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى ، فدعـــا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فـــشقه حتى وقع شقاه ؛ ثم جئ بجليس الملك فقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه] .

الدرس الأول: الإكــــراه :

قال الراغب : الإكراه يقال في حمل الإنسان على ما يكْرَهُهُ وقوله : ﴿ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ [النور :٣٣] . فنهى عن حملهن على ما فيه كَرْهٌ وكُرْهٌ (١) .

وقال ابن حجر: هو إلزام الغير بما لا يريده .

وشروط الإكراه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار .

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك .

الثالث : أن يكون ما هدده به فورياً فلو قال إن لم تفعل كذا ضربتك غداً لا يُعد مكرهاً ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً أو جرت العادة بأنه لا يُخلِف .

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره كمن أكره على الزنا

---

(١)المفردات ٢ / ٥٥٤ .

فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول أنزلت فيتمادى حتى ينزل،وكمن قيل له طلق ثلاثاً فطلق واحدة وكذا عكسه،ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق [١].

يقول الشيخ سعيد عبد العظيم ـ حفظه الله ـ :

ورد في الحديث أن الملك الطاغية لما سمع مقالة الأعمى لم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه ... فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على الراهب ، فقيل ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للذي كان أعمى : ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرقه أيضاً، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى ... وهذه صورة استكراه واضحة، والخوف هنا قد تمهدت أسبابه، إذ الملك الطاغية كان يدَّعي الربوبية والإلوهية مع الله ، وعنده المقدرة على الانتقام ممن خالفه، وإنفاذ تهديده ووعيده، وما تحمل الغلام تحت وطأة التعذيب فدل على الراهب، وكان قد أوصاه الراهب بقوله :(وإنك ستُبتلى، فإن ابتُليت فلا تدل عليَّ)، وقد رأى الغلام بعينه ما حدث للجليس، والراهب.

ومما يستلفت النظر أن الجليس والراهب والغلام ومن خُدت لهم الأخاديد رغم تعرضهم لظروف الاستكراه إلا أنهم ثبتوا جميعاً على إيمانهم حتى الموت، فهل لم يكن لهم رخصة في إظهار الكفر مع طمأنينة قلوبهم بالإيمان ؟

يجيب الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في أضواء البيان أثناء تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف : ٢٠] .

وقد وضح أن أصحاب الكهف رغم تعرضهم للاستكراه إلا أنهم لم يترخصوا ولم يُظهروا الكفر وقالوا: ﴿ **وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ وكأن الاستكراه لم يكن عذراً لهم، ويحتمل أن يكون رفع الإثم والذنب في الاستكراه خاصاً بهذه

---

(١) فتح الباري ١٢ / ٣٦٣ .

الأمة، ويدل على ذلك قول النبيّ ﷺ : **(إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ وما استكرهوا عليه)** [١]. ومعنى ذلك أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات [٢] .

ثم قال الشيخ/ سعيد ـ حفظه الله ـ : وقد ذكر العلماء أن من حلف لا يدخل دار زيد مثلاً فقهره من هو أقوى منه، وكبَّله بالحديد، وحمله قهراً حتى أدخله فيها فهذا النوع من الإكراه صاحبه غير مكلف بالإجماع إذ لا قدرة له على خلاف ما أُكره عليه، وهو في هذه الحالة ينفِّذ إرادة غيره.

فإن قيل له اقتل فلاناً وإلا قتلناك أنت، فلا يجوز له قتل غيره وإن أدى ذلك إلى قتله هو، إذ نفسه ليست أفضل من نفس أخيه.

وأما في غير حق الغير [٣] فالظاهر أن الإكراه عذر يُسقط التكليف بدليل قوله تعالى : ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٦) ﴾ [النحل : ١٠٦] ، فمن استكره على النطق بالكلمة الخبيثة (أي كلمة الكفر) فلا إثم عليه.... إذ الضرورات تبيح المحظورات، وهي تُقدَّر بقدرها، وربنا يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وما أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل المرسلين مبشرين ومنذرين [٤] .

يتبادر إلى الذهن سؤال مهم: أيهما أفضل الأخذ بالرخصة أم التمسك بالعزيمة ؟.

---

(١) رواه ابن ماجة عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه برقم ٢٠٤٣، وابن حبان عن ابن عباس رضي الله عنهما برقم ٧٢١٩، وقال عنه شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط البخاري ، ورواه الحاكم عنه أيضاً برقم ٢٨٠١ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير برقم ١١٢٧٤، وصححه الألباني في سنن ابن ماجة برقم ١٦٦٢، وفي الجامع الصغير وزياداته برقم ٢٦١١ .

(٢) انظر أصل الكلام في أضواء البيان ص ٦٣١ . طبعة دار الكتب العلمية ببروت.

(٣) يقصد إذا كان الحق يختص بالله ولا يتعلق بأحد من المخلوقين فلا إثم عليه.

(٤) قصة أصحاب الأخدود للشيخ سعيد عبد العظيم ص ١٨٨ – ١٩٢ باختصار وتصرف.

يختلف الحكم بحسب وضع الشخص وحاله [١] على ثلاث صور:

الأولى: التعريض :

ومعناه أن يقول المُكْرَه كلاماً له معنيان معنىً ظاهر يفهمه المستكرِه ويريحه، ومعنى مستتر يقصِده المُكْرَه، وهذا من مسالك التقية ليستنقذ نفسه.

فعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : صحبت عمران بن حصين إلى البصرة فما أتى علينا يوم إلا أنشدنا فيه الشعر وقال: (إن في معاريض الكلام لمندوحة عن الكذب) [٢].

وهذه يفعلها من كان من عامة الملتزمين أما من كان متبوعاً فيجوز له ذلك إن كان فيما بينه وبين المستكرِه، أما إذا كان الأمر عاماً فلا يجوز؛ لأنه قد لا يفهم معظم العوام تعريضه فيستحل الحرام متأسياً بإمامه.

يقول الإمام أحمد : (إذا أجاب العالم تُقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق).

الثانية: النطق بكلمة الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان :

وهذه يفعلها من استفرغ جهده في التصبر فلم يستطع ، وذلك لعوام الملتزمين، أما المتبوعون فالأولى الثبات.

الثالثة: أن يصبر و لا يعطي الدنية في دينه؛ وإن كان الثمن حياته:

وهذه خاصة بالمتبوعين لأن في زلة الواحد منهم زلة للأمة من بعده، فلا يجوز له أن يصون نفسه ويُهين دينه، بل يُعلي دينه وإن فقد نفسه، ومثال ذلك الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن، فقد ظل يُعذب وحده حيناً من الدهر، فما لانت له قناة، ولا خُفض له جبين، ولا ارتعش له صوت، وما أقر عين الخليفة بما لا يُرضي الله .

---

(١) أقصد بوضع الشخص أي وضعه في الدعوة، هل هو من الدعاة المبرزين المتبوعين أم من عوام الملتزمين ؟، وأقصد بحاله أي هل هو جلد ثبت ممن يصبر على الأذى، أم ضعيف التحمل لا يصبر على الأذى ؟.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ٨٨٥، والطبراني في الكبير برقم ٢٠١، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٧٩٤، ومصنف ابن أبي شيبة برقم ٢٦٠٩٦، وقال الألباني في الأدب المفرد صحيح موقوفاً.

ونخلص من ذلك أن الأئمة المتبوعين الأولى لهم الصبر على العذاب، ولا يليق بهم أن يلجأوا إلى الرخصة من التعريض في القول، أو النطق مع طمأنينة القلب، إلا من وجد نفسه غير قادر البتة على تحمل العذاب، ومن يصبر في ذات الله يصبره الله . أما غيرهم من عوام المسلمين فإن صبر فهو أيضاً أولى، وإن ترخص عند عدم القدرة فلا حرج عليه.

قال الشيخ/سعيد عبد العظيم: ويبقى أن يقال: إن إظهار شعائر الدين والثبات على الإيمان والأخذ بالعزيمة أولى وأفضل من بقاء طوابير طويلة تعطي الطغاة ما يريدونه ولو بألسنتهم، ولذلك كان ثبات الراهب والأعمى والغلام والمؤمنين مضرب المثل وقصة تحكى عبر العصور وكر الدهور(١) .

وتبقى ملاحظة:

بعض المنتمين إلى إحدى الجماعات التي تسمى نفسها إسلامية يتحللون من دينهم جملة وتفصيلاً مظنة الاستكراه، ويعلقون انسلاخهم من دينهم بحجة أنهم مستكرهون، رغم أنه لم يوَجه لأحدهم نظرة عتاب، فضلاً عن كلمة تهديد، ورغم ذلك يرفعون عقيرتهم بالجهاد ونصرة المسلمين في كل مكان، فوالله لو فُتح الباب لذلك لوجدتهم أول المتخاذلين، لأن من ترك شعائر دينه لمجرد احتمال أن يُصفع على وجهه مره، فهل سيتحمل دوي الرصاص فوق رأسه، وانفجار القنابل تحت قدميه.؟ ! ، فأقول لهؤلاء أفيقوا من غفلتكم، وراجعوا ثوابت هذا الدين، ودعكم من التحلل والانفلات من الدين ثم ادعاء نصرته، فإن هذا الدين لن ينصره متخاذل جبان.

الدرس الثاني: الصبر على البلاء في سبيل الله :

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ/ سعيد عبد العظيم، ص ١٩٢ .

فإن سألت عن الصبر ؟ :

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : (أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس ،فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوها)[١]

أما عن حقيقته فيقول:(هو خُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها)، وسُئل عنه الجنيد بن محمد فقال: (تجرع المرارة من غير تعبس)، وقال ذو النون: (هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة) وقيل: (الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن أدب) وقيل: (هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى) وقيل : (الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية) ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية في عافيته، وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر، وقال عمرو بن عثمان المكى: (الصبر هو الثبات مع الله، وتلقى بلائه بالرحب والدعة) ، ومعنى هذا أنه يتلقى البلاء وبصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى، وقال الخواص: (الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسُّنَّة) وقال رويم: (الصبر ترك الشكوى) فسره بلازمه، وقال غيره: (الصبر هو الاستعانة بالله) ، وقال أبو على: (الصبر كاسمه)[٢] ، أي مر المذاق صعب على النفس مثل اسمه.

أقول: الصبر هو حبس النفس عن التبرم، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن الاعتراض على أمر الله ، وقبول الأمر بعين الرضا.

أقسام الصبر :

يقول ابن القيم : الصبر ثلاثة أقسام : (صبر على الأوامر والطاعات حتى

(١) عدة الصابرين ص ١٥ .
(٢) عدة الصابرين ص ١٧ باختصار .

يؤديها وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها ، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب ، لا بد للعبد من أمر يفعله ونهى يجتنبه وقدر يصبر عليه) [١] .

ويستفاد من كلامه رحمه الله أن الصبر على ثلاث درجات هي :

[١] الصبر على الطاعات .

[٢] الصبر عن المعاصي .

[٣] الصبر على البلاء.

وأفضلها أولها وأدناها آخرها، وفي ذلك يقول ابن القيم : (فإن قيل أي أنواع الصبر الثلاثة أكمل ، الصبر على المأمور ، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور ؟.

قيل الصبر المتعلق بالتكليف، وهو الأمر والنهى أفضل من الصبر على مجرد القدر؛ فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر، والمؤمن والكافر؛ فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً، أو اضطراراً، وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعاً أصبرهم في ذلك، وكل صبر في محله وموضعه أفضل، فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلى الطاعة في محلها أفضل)[٢] .

وينشأ عن اقتران الأول و الثاني وعكسهما مع الثالث أربع درجات أخرى:

[١] الصبر على الطاعة والبلاء الناشئ عنها، ومثاله من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيؤذي فيثبت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويصبر على البلاء الناشئ عن قيامه بهذه الطاعة .

[٢] الصبر عن الطاعة والبلاء الناشئ عنها،ومثاله من يعذَّر للقيام بطاعة معينة فيأبى .

[٣] الصبر عن المعصية والبلاء الناشئ عنها، ومثاله صبر يوسف عليه السلام عن الزنا وصبره على السجن المترتب على عدم معصيته .

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

[٤] الصبر على المعصية والبلاء الناشئ عنها، ومثاله من يشرب الخمر ويجلد ويعود إلى الشرب ثم يعود إلى الجلد.

فيعود الصبر على سبع درجات هي:

[١] الصبر على الطاعة وما ينشأ عنها من بلاء.

[٢] الصبر عن المعصية وما ينشأ عنها من بلاء .

[٣] الصبر على الطاعة.

[٤] الصبر عن المعصية.

[٥] الصبر على البلاء.

[٦] الصبر على المعصية وما ينشأ عنها من بلاء ، كمن يُضرب ليُصلي ويصر على ألا يصلي .

[٧] الصبر عن الطاعة وما ينشأ عنها من بلاء.

وأعلاها أولها وأخسها آخرها.

ولا بد للعبد أن يجتمع فيه الخمسة الأولى، ويتخلى عن الاثنتين الأخيرتين، وما اجتمعت هذه الخمس إلا في نبى، أو ولي قائم لله بحجة، ويتفاضل الناس في العمل بهذه الخمسة أيما تفاضل، وأقلهم في الفضل والمنزلة من ظن أن الصبر إنما هو الصبر على البلاء فقط.

واعلم أن التفاضل الواقع بين الناس في درجات الصبر ناشئ عن التفاوت في همتهم؛ فكلما علت همة المرء كلما ترقى في المعالى، وكلما خست همته كلما تدنى هبوطاً.

أما الدرجتان الأخيرتان فهما محصورتان في أهل المعاصي مع أصولها وهي الصبر على المعصية والصبر عن الطاعة أعاذنا الله وإياكم أن نكون منهم.

والغلام في قصتنا قد استكمل الخمسة الأُوَل، فقد صبر:

أولاً: على الطاعة في طلب العلم زمناً على يد الراهب .

وثانياً: صبر عن المعصية فرفض تعلم السحر، ورغب عنه إلى التوحيد، وفي أول محك للتمييز - كما بينت - ظهر ميله لحال الراهب، وتمنيه أن يكون على الصواب.

وثالثاً: صبر على البلاء الناشئ عن صبره عن المعصية، لما تحمل ضرب الساحر له في أول الطلب.

ورابعاً: صبر على البلاء الناشئ عن صبره على الطاعة لما أظهر معتقده وجابه أمة بأسرها وما لانت له قناة، وبين طيات ذلك كله صبر.

خامساً: على البلاء الواقع عليه بقدر الله - عز وجل -، وبذا فقد استجمع مراسم الولاية، فرُسِم ولياً لله تعالى.

أُخيَّ أين أنت من هذه الدرجات ؟، ما أظن إلا أنك مثلي اكتفيت ببعض الخامسة (الصبر على البلاء) ثم عددتَ نفسك من الصابرين، أواه فاحذر فإنه ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠]، وهل يُعد من هؤلاء الصابرين من لم يستكمل هذه الخمسة ؟، ولكي تستكملها فاصبر وتصبر واصطبر وصابر.

يقول ابن القيم - رحمه الله -:

فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسُن إن كان خُلُقاً له ومَلَكه سُمي صبراً، وإن كان بتكلُّف، وتمرُّن، وتجرع لمرارته، سُمي تصبراً كما يدل عليه هذا البناء لغة فإنه موضوع للتكلف، كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النَّبيّ أنه قال: (ومن يتصبر يصبره الله)[١]... ثم قال وأما الاصطبار فهو أبلغ من

---

(١) رواه البخاري برقم ١٤٠٠، ٦١٠٥٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن ناساً من الأنصار سالوا رسول الله فاعطاهم ثم سالوه فاعطاهم حتى نفذ ما عنده فقال: « **ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يُعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر** »، ورواه أبو داود برقم ١٦٤٤، والترمذي برقم ٢٠٢٤، وأحمد برقم ١١١٠٦، والدارمي برقم ١٦٤٦، وابن حبان برقم ٣٤٠٠.

التصبر فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبُد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها؛ فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته، أ.هـ [١].

وبعد هل ستصدع بالحق، وتصبر على البلاء، وتتلذذ بمرارة الصبر في سبيل الله، أم ترضى لنفسك ودينك بالذل والاستكانة، وأيضاً فيهما من المرارة ما فيهما على كل نفس أبية، ولكن ليس لله فيها شيء، فاستمتع بمرارة الصبر في سبيل الله، ولك فيها أجر، ولا تتجرع مرارة الذل والاستكانة في سبيل الشيطان وعليك بهما وزر.

الدرس الثالث: ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً:

فإن صبرت وتحملت عذاب أهل الباطل في سبيل الله، ولم يتحملوا هم طول صبرك فعجلوا بلقائك لربك فيا نعم اللقاء لقاء الحبيب، ويا فرحتاه بالانتقال إلى حياة أتم وأسعد وأنعم من الحياة الدنيا، وإن لم يكن فيها إلا القرب من المولى

(١) عدة الصابرين، ص ٢٣، ٢٤ باختصار.

لكفي بذلك نعمة ونعيماً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

يقول السعدي ـ رحمه الله ـ : لما ذكر تبارك وتعالى الاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ذكر نموذجاً مما يُستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيل الله ، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقته في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل، وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعى لها ودفع لما يضادها، ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن من قُتِل في سبيله بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر لا غير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون، فالشهداء ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ [آل عمران :١٦٩-١٧١] ،فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني في المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحى، وهو الفرح، وهو الاستبشار، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل وقد أخبر النَّبيّ ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله ، وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد،ولكن عدم العلم اليقيني التام، هو الذي فتَّر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات (فوَّت) الأجور العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة : ١١١] ، فوالله لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً نفساً في سبيل الله ، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعد ما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يُقتلوا في سبيله مرة بعد مرة (١) .

قال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

لما كانت الحياة هي أعز ما يملك الإنسان، وآخر ما يتمنى فقده، فمن ضحى بها فقد ضحى، ومن ضحى بها لله فقد استودعها من لا تضيع لديه الودائع لذا كان من جميل إنعام الله عليه أن يرزقه حياة خاصة في الجنة بمجرد موته.

يقول القرطبي : قد أخبر الله تعالى فيها (أي هذه الآية) عن الشهداء أنهم أحياء في الجنة يرزقون ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين وفُضِّلُوا بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم ، وقد اختلف العلماء في هذا المعنى فالذي عليه المعظم هو ما ذكرناه وأن حياة الشهداء محققة (٢) .

قال السعدي: هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله ، والتعرض للشهادة فقال : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿ أَمْوَاتًا ﴾ أي : لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقدوا وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع بزهرتها الذي يحذر من فواته من جبُن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٦٣ .
(٢) القرطبي ٤ / ١٧٢ .

عن القتال، وزهد في الشهادة ﴿ بَلْ ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ في دار كرامته، ولفظ ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يقتضي علو درجاتهم وقربهم من ربهم ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا صاروا ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي مغتبطين بذلك، وقد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغِّص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم النعيم والسرور[١].

إشكالية :

ظن البعض أن كل من قُتل في ميدان المعركة وهو في صفوف من يدافع عن كلمة الحق، أو مات على يد أعداء هذا الدين أنه شهيد، بل اتسع الخرق على الراقع فوصف بعض أهل الهوى من مات وهو يغنى أنه مات شهيداً لأنه مات وهو يعمل!!!.

فيرد على ذلك كله ما ورد عن أبي موسى عليه السلام أنه قال: جاء رجل إلى النَّبيّ ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ ، قال : **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله)**[٢].

يقول النووي : فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا[٣].

ومعنى ذلك أنه ليس كل من مات في ساحة المعركة فهو شهيد بل من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٤٤ .

(٢) رواه البخاري برقم ٧٠٢٠، ومسلم برقم ١٥٠ / ١٩٠٤، والترمذي برقم ١٦٤٦، وابن ماجة برقم ٢٧٨٣، وأحمد برقم ١٩٥٦١، والبيهقي في الكبرى برقم ١٨٣٢٦ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣ / ٤٣ .

صلُحت نيته وخلُص عمله لله هو الشهيد أما ما عدا ذلك فهو قتيل وإن قُتل في ساحة المعركة.

ويشهد لذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال :فما عملت فيها؟، قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال :فما عملت فيها؟، قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال :كذبت ولكنك تعلمت العلم ليُقال عالم ، وقرأت القرآن ليُقال هو قارئ ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ ، قال : ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال :كذبت ، ولكنك فعلت ليُقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقى في النار**) (١) .

فلا يجوز إطلاق لفظة الشهادة على أي أحد، لأنها من ألفاظ التزكية التي نهى الشرع عن إطلاقها، كما إنه أمر غيبى لا يطَّلِع عليه أحد فلا يجزم به، وربما قاتل رياء وسمعه أو حمية كما ذكر في الحديث.

فأهل السُّنَّة يقطعون بالشهادة لمن تحققت له هذه الصفة عن طريق الوحى مثل الحكم بشهادة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وسيد الشهداء حمزة أما غيرهم فلا يقطعون لأحدهم بالشهادة برغم ما يظهر لنا من صلاحهم، وإن ماتوا في ميدان المعركة، ولكن نقول فيهم نحسبهم ماتوا على خير والله حسيبهم.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٥٢ / ١٩٠٥، والنسائي برقم ٣١٣٧، وأحمد برقم ٨٢٦٠، والبيهقي في الكبري برقم ١٨٣٣٠ .

أقســـام الشهـــداء:

قال النووي : الشهداء ثلاثة أقسام:

أحدها : شهيد في حكـم الدنيـا : أي يعَامَـل فـي الدنيا معاملـة الشهيـد (وحكمه ترك الغُسل والصلاة عليه) ، وفي حكم الآخرة بمعنى أن له ثواباً خاصاً، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذا هو الذي مات بسبب من أسباب قتال الكفار قبل انقضاء الحرب .

والثـاني : شهـيـد في الآخرة دون الدنيـا، وهو المبطون والمطعون والغريق وأشباههم .

والثالث: شهيد في الدنيا دون الآخرة ، وهو المقتول في حرب الكفار ، وقد غل من الغنيمة أو قتل مدبراً، أو قاتل رياءً ونحوه فلهم حكم الشهداء في الدنيا دون الآخرة (١) .

(١) ٥/٢٢٥ـ نقلاً من مجلة التوحيد العدد ٤٠٩ ص ٦٩، ٧٠ .

الوقفة الخامسة عشرة

ثم جئ بالغلام فقيل له : " ارجع عن دينك " ، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: " اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه " ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: " اللهم اكفينهم بما شئت " ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال الملك : " ما فعل أصحابك ؟ " فقال: " كفانيهم الله تعالى " .

الدرس الأول: فضل الجهر بالدعوة إلى الله :

إن للدعوة إلى الله - عز وجل - فضائل تنهي عن الحصر، وورد في الوحيين جملة من هذه الفضائل نورد منها بعض ما جاء في القرآن أولاً :

[١] أن الله - عز وجل - هو الذي ابتدأها فقال ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [يونس : ٢٥] .

[٢] وأمر نبيه ﷺ أن يدعو إليه وإلى صراطه المستقيم فقال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) ﴾ [الحج : ٦٧] .

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) ﴾ [القصص : ٨٧] .

[٣] بل جعل الدعوة إليه هي الغاية التي من أجلها أرسله ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب :٤٦] .

[٤] وأن يوضح ذلك للناس كافة حيث أمره بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

[يوسف : ١٠٨] .

وقال أيضاً : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ .

[الرعد :٣٦] .

[٥] كما أوضح جل شأنه أن ما أمر به النَّبيّ ﷺ بالدعوة إليه هو نفس ما أمر به الرسل والأنبياء من قبله وخاصة أولي العزم منهم فقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى :١٣-١٥] .

[٦] وانتدب - عز وجل - العقلاء من هذه الأمة لينضموا إلى قافلة الدعوة إليه فإنها من أعظم سبل الفلاح فقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران :١٠٤-١٠٥].

[٧] وجعلهم أحسن الناس قولاً بتبليغهم عن ربهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ .
[فصلت :٣٣] .

ثانياً: فضل الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ في السُنَّة :

[١] عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال يوم خيبر (**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله**) . فبات الناس ليلتهم أيهم يُعطى فغدوا كلهم يرجونه فقال (أين عليّ) . فقيل يشتكي عينيه، فبصق في عينيه،ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه، فقال :أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ ،فقال :(**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**) (١) .

[٢] عن تميم الداري رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : (**الدين النصيحة**) قلنا : لمن ؟ ، قال : (**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**) (٢) .

[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**) (٣) .

[٤] عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**نضَّر الله امرءاً سمع منَّا حديثًا فحفظه حتى يبلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو**

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٨٤٧، ٣٤٩٨، ٣٩٧٣، ومسلم برقم ٣٤ / ٢٤٠٦، وأحمد برقم ٢٢٨٧٢، وأبو داود برقم ٣٦٦١ .

(٢) رواه مسلم برقم ٩٥ / ٥٥، وأبو داود برقم ٤٩٤٤، والنسائي في السُنن برقم ٤١٩٧، وأحمد برقم ١٦٩٨٣، وابن حبان برقم ٤٥٧٤ .

(٣) رواه مسلم برقم ١٦ / ٢٦٧٤، وأبو داود برقم ٤٦٠٩، والترمذي برقم ٢٦٧٤، وابن ماجة برقم ٢٠٦، وأحمد برقم ٩١٤٩، والدارمي برقم ٥١٣، وابن حبان برقم ١١٢ .

أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) [١] .

والدعوة تدور بين الإسرار والإعلان بحسب المصالح والمفاسد ولكن يختص المجاهر بدعوته على المسر بدعوته بغير داعٍ بعدة فضائل أهمها:

[١] أنه لن يقوم بها إلا لبق يحسن أن يعبر عما يريد، وإن الناظر في الواقع الذي نعيشه يجد أن الذين يحسنون مخاطبة الجمهور هم أكثر الناس تأثيراً في مجتمعاتهم، وهم الذين يستطيعون أن يوجِّهوا دفة الأمور إلى ما يعتنقون من أفكار وإن كانت خاطئة، فما بالك إن كان ما يدعون إليه هو عين الحق، ولأجل الله وحده.

[٢] تدل في غالب الأحوال على جملة من الصفات الفاضلة في المجاهر بدعوته، منها: حياة القلب، وقوة الشخصية، وعلو الهمة، والغيرة على دين الله، والتضحية والفداء، وتُسلب هذه الصفات من المسر بدعوته بغير داعٍ وإن كانت فيه. فالجهر بالدعوة يوصف أهلها بكل فضيلة وإن لم تكن فيهم، والسر بالدعوة بغير داعٍ يتصف القائم بها بكل رذيلة وإن لم تكن فيه.

[٣] أصحاب الدعوات السرية بغير داع يعيشون كالخفافيش لا ينتشرون إلا في الظلام، ولذلك يستريب فيهم من يحيطون بهم، ويعللون ذلك بأنهم لو كانوا على حق لأظهروا ما يدعون إليه، أما أهل الدعوات العلنية يثق الناس فيهم ويلتفون حولهم. فصاحب الدعوة السرية مشكوك فيه وإن كانت دعوته حقة طالما أنه يدعو إليها سراً بغير داع لذلك، وصاحب الدعوة العلنية موثوق فيه وإن كانت دعوته باطلة.

[٤] أهل الشر من السهل عليهم أن يتخلصوا من أصحاب الدعوات السرية لأنهم غير معروفين، مهما علا شأنهم، أما أصحاب الدعوات العلنية فأهل

---

(١) رواه أبو داود برقم ٣٦٦٠، وابن ماجة برقم ٢٣٠، وأحمد برقم ٢١٦٣٠، وابن حبان برقم ٦٨٠، والطبراني في الكبير برقم ٤٨٩٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٧٦٣، وفي صحيح الترغيب والترهيب برقم ٩٠ .

الشر يهابونهم ولا يحاولون التخلص منهم مباشرة خوفاً من الصدام مع أتباعهم، وخير مثال على ذلك في قصتنا قُتل الراهب وجليس الملك أبشع قتله، وما وجه أحد اللوم للملك على فعلته تلك رغم شناعتها، وما تجرأ الملك أن يفعل ذلك مع الغلام، رغم علمه بأن الغلام تابع والراهب متبوع، ولكن تجرأ على الراهب لأن دعوته كانت سرية، ولم يتجرأ على الغلام وهو التابع لأن دعوته كانت علانية.

فالدعوة العلنية خير حصن لصاحبها، يُفتقد صاحبها إذا غاب، ولفقده ترتاع النفوس، وتبكي القلوب، وتدمع العيون دماً لا ماء، أما دعوة السر بغير داع قد تكون وبالاً على صاحبها وبسببها قد يُستأصل ولا تدمع لأجله عين، ولا يرق لفقده قلب.

الدرس الثاني: أمن يجيب المضطر :

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل : ٦٢] .

المضطر: قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود، وقال السدي : الذي لا حول له ولا قوة وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون الله (١) .

قال القرطبي: ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، أخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذِمَّة، وُجِد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر (٢) .

وهو سؤال يفيد حصر حصول المقصود للمضطر ممن لجأ إليه وهو الله وحده.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ١٤٨ .

(٢) السابق ١٣ / ١٤٨ .

يقول السعدي ـ رحمه الله ـ : أي هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله ؟ (١) .

ففي قصتنا ضُيق على الغلام ولم يملك من أسباب النصر المادية ما يدفع به الأذى عن نفسه، واقتيد كشاة إلى مذبحها، ولكنه لجأ إلى من بيده ملكوت كل شيء، وما أكثر في الكلام، وما بالغ في التزلف المصطنع فقال : (اللهم اكفينهم بما شئت) كلمات بسيطة ولكنها خرجت من قلب متصل بالله ، فكانت الإجابة في التو واللحظة، وارتجف الجبل فسقطوا جميعاً ونجا بيد من إليه لجأ، ومثله في ذلك كمثل نوح عليه السلام إذ دعا ربه قائلاً: ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ [القمر: ١٠] ، وأيضاً أجابه ربه في حينها فقال ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)** ﴾ [القمر : ١١-١٣] .

ونلحظ أن نوحاً عليه السلام دعا ربه أيضاً بكلمات قليلة طلب فيها النجاة، وما دعا نوح على قومه ههنا بالهلاك، ولكنه طلب من ربه أن ينصره عليهم، وينجيه منهم، وكذلك الغلام ما دعا عليهم رغم أنهم يقتادونه لأحد خيارين أحلاهما مر فإما ردة ونكوص وإما موت وهلاك، ولكن كانت مشيئة الله ـ عز وجل ـ أن عجل بإهلاك الظالمين ونجى أولياءه .

وذلك لأن الله ـ عز وجل ـ يغضب على من أغضب أولياءه، ويحارب من حاربهم، فهو القائل في الحديث القدسي الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن**

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦٥ .

استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) [(١)].

ومَن مِن الخلق قادر على حرب رب العباد؟ ولكن الظالمين بحربهم لأوليائه يستعدونه عليهم فتدور الدائرة عليهم، ويبقى الأولياء الصالحون في عز ومنعة.

فالله - عز وجل - يجيب المضطر إذا دعاه؛ وإن كان من أهل الضلال وذلك لما يجد من إخلاصه حال التجائه إليه، فما بالك إن كان الملتجئ من أوليائه وأصفيائه فإن الإغاثة تكونُ على الفور ويتحقق النصر لأهل الحق رغم قلة العدد ونفاد العتاد.

الدرس الثالث: الثبات على المبدأ:

هذا الغلام يظهر من مواقفه أنه صاحب مبادئ سامية، ومن أهمها إحسان ظن وثقة ويقين بربه جاوز الثريا، فلو أن أحدنا في مكانه ونجا من الموت بفضل الله لما تردد لحظة في الهرب ممن أرادوا أن يقتلوه، ولكنه لحسن ظنه وثقته ويقينه بربه ما فكر في الفرار، ولكنه رجع يمشي للملك وحده وقد تنامى بداخله يقينه بربه.

فمن أين أتى هذا اليقين ؟ ، إنه جاء نتيجة الإيمان الراسخ بحقيقتين أبى الله أن يشاركه فيهما أحد، ألا وهما: تصرفه في الرزق والعمر، فقد تكفل ربنا لكل منا برزقه، وحد له أجلاً يبلغه قَدَراً قبل أن يخلق السماوات والأرض، وكتب ذلك عقداً عند نفخ الروح فيه لا يُفسخ.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (**إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ**

---

(١) رواه البخاري برقم ٦١٣٧، وابن حبان برقم ٣٤٧، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٠٧٦٩ .

فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة) [١].

فاعلم رحمني الله وإياك أن الله تكفل بالرزق وأقسم بنفسه على إيصاله لك فقال جل شأنه: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات :٢٢-٢٣] .

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ [فاطر : ٣] .

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك : ٢١] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود : ٦] .

عن حذيفة رضي الله عنه قال قام النَّبيّ ﷺ فدعا الناس فقال: « **هلموا إليَّ** فأقبلوا إليه فجلسوا، فقال: **هذا رسول رب العالمين جبريل** عليه السلام ، **نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها** » [٢] .

وكما قيل: لو أنكم تفرون من الرزق كما تفرون من الموت لأدرككم الرزق كما يدرككم الموت.

واعلم أن الرزق رزقان، رزق تطلبه ورزق يطلبك، فما تطلبه قد تدركه، وما يطلبك لا محالة مدركك.

---

(١) رواه البخاري برقم ١٢٢٦، ٣٠٣٦، ومسلم برقم ١ / ٢٦٤٣، وأبو داود برقم ٤٧٠٨، وأحمد برقم ٤٠٩١، وابن حبان برقم ٦١٧٤، والطبراني في الكبير برقم ١٠٤٤٠ .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٧٠٢ وقال عنه الألباني حسن صحيح.

واعلم أيضاً أن الله ـ عز وجل ـ هو المحيي المميت؛ الذي بيده آجال العباد، فهو الخلاق، وهو الذي يدبر شئون عباده، فيميت من أراد وقتما يريد، ويبقى من أراد إلى أجل لا يعلمه إلا هو؛ فقد قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾ [غافر : ٦٧-٦٨] .

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الزمر : ٤٢] .

والأنفس كلها بيده، ولن تموت نفس حتى تبلغ الأجل الذي حدده لها ربها فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾ .

[آل عمران : ١٤٥] .

فهذا على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الأمم والجماعات قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ .

[الأعراف : ٣٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾ [الحجر : ٤-٥] .

وقد كلف بذلك ملكاً موكلاً بقبض الأرواح (ملك الموت)، لا يقبض إلا روحاً أذن الله بقبضها فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [السجدة : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة : ٨] .

فهاتان حقيقتان لا يماري فيهما إلا زنديق فقد عقله، ورغم أن الواحد منا يعلم يقيناً أن حياته ورزقه بيدي ربه، ولا يتصرف أحد غيره فيهما، إلا أنه يجري لاهثاً طلباً للرزق، ويجري فراراً من الموت، يصدق فيه ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش، والمال**) (١).

وعنه أيضاً أن النَّبيّ ﷺ قال: (**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال**) (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: (**يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال ، والحرص على العمر**) (٣).

وبين طيات هذا الجري المتواصل إقبالاً وإدباراً، تتهاوى وتتساقط المبادئ الواحد تلو الآخر، حتى يتجرد الإنسان من كل مبادئه، فيصير إنساناً بلا مبدأ وفي غمرة ذلك كله ينسى أو يتناسى ربه الذي بيده هذا وذاك.

فما تكاسل المتكاسلون، وما تعلل المتعللون، وما خارت القوى، وما نُقضت العزائم، وضاعت المبادئ إلا من قِبَل ضعف اليقين بهاتين الحقيقتين أو انعدامه.

فإن كنت صاحب مبدأ حق؛ فتمسك به، واثبت عليه، ولا تتخلى عنه خشية الموت أو فوات الرزق، فإنهما بيد الله ، فقد قال ابن القيم: (فرغ خاطرك للهم بما أُمرت به ولا تشغله بما ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا ، وإذا سد عليك بحكمته طريقاً من طرقه فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه) (٤).

---

(١) مسلم برقم ١١٣ / ١٠٤٦ .

(٢) رواه مسلم برقم ١١٤ / ١٠٤٦ .

(٣) رواه مسلم برقم ١١٥ / ١٠٤٦، والترمذي برقم ٢٤٥٥، وابن ماجة برقم ٤٢٣٤، وأحمد برقم ١٣٠٢١، وابن حبان برقم ٣٢٢٩ .

(٤) الفوائد ص ٧٧ .

فالثبات على المبدأ الحق في ذات الله مع المحن والشدائد أعظم دليل على قوة يقين بالله لا يلين، وإيمان راسخ في النفس لا يتزعزع، وإحسان ظن بالله به تبلغ ما تريد فهو القائل في الحديث القدسي المروي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**قال الله تبارك وتعالي: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**) (١) .

قال النووي: (أنا عند ظن عبدي بي) قال القاضي: قيل معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية، وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح (٢) .

---

(١) رواه أحمد برقم ١٦٠٥٩، وابن حبان برقم ٦٣٣ وصححه الارنؤوط، والاكم في المستدرك برقم ٧٦٠٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح وعلى شرط مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٠٠٦، وصححه الالباني في صحيح الجامع برقم ٤٣١٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٣ .

الوقفة السادسة عشرة

[فدفعه إلى نفـــر من أصحابه فقال: "اذهبوا به فـــاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه" فذهبوا به فقال: " اللهم اكفينهم بما شئت" ؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك] .

وفيه ثلاثة دروس:

الدرس الأول: نصـــر الله لأوليائه :

يظن البعض أن النصر لا يكون إلا في ميدان القتال، ولا يتحقق إلا بتغلب أحد المعسكرين على الآخر، ولكن مفهوم النصر أوسع من ذلك بكثير .

النصر: حسن المعونة : [١]

فالنصر هو حسن المعونة للوصول إلى غاية منشودة، فكل تعاون وصل بأهله إلى غايتهم التي أرادوها يسمى نصراً،وهذا هو المفهوم العام للنصر لدى معظم الناس.

ومنه يظهر أن كل تعاون يصل بأهله إلى غايتهم وإن كانت فاسدة يسمونه - بزعمهم - نصراً ، فجاء الإسلام وضبط هذا الأمر بغايته، فسمى كل تعاون يؤدي بأهله إلى الحق نصراً وإن ماتوا في الميدان، وكل تعاون يؤدي بأهله إلى الباطل يسمى هزيمة وإن تفوقوا وكانت لهم الغلبة في الميدان.

فظهور الحق نصر، وكذا اندحار الباطل، واندثار الحق هزيمة، وكذا طغيان الباطل.

فمن أحسن معونة غيره في الوصول إلى الحق فقد نصره ولذلك ورد الأمر

(١) لسان العرب ٥ / ٢١٠، والقاموس المحيط ص ٦٢١ .

المباشر من النَّبيّ ﷺ للمسلم بنصرة أخيه المسلم على كل حال فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**) . قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ ، قال : (**تأخذ فوق يديه**) (١) .

فالوقوف بجانب المظلوم حتى يستوفي حقه من حسن المعونة ، ومن أهم مظاهر النصر، والدفع في صدر الظالم حتى يرتدع عن ظلمه من حسن المعونة له على نفسه حتى لا يهلك بكثرة ظلمه أو بتماديه فيه، وهذا أيضاً ذات النصر.

ولذا قال الصديق رضي الله عنه حينما بويع بالخلافة: (أيها الناس أني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن ضعفت فقومونى، وإن أحسنت فأعينونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله) (٢) .

فالنصر إما حسن معونة للوصول إلى الحق، وإما حسن معونة لحبس الغير عن التمادي في الباطل.

فكل تعاون في الوصول إلى الحق نصر، وكل تعاون في الوصول إلى الباطل هزيمة أو سبب مباشر لها ولذلك أمر الله ـ عز وجل ـ بالأول ونهى عن الثاني فقال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [المائدة : ٢] .

فمن دعا إلى الحق فقد نصر من دعاه لأنه إما أن يحضه على الحق أو يمنعه عن الباطل، ولذا كان الدعاة والمصلحون هم أحب الناس إلى الله ـ عز وجل ـ وأقربهم منه منزلة لأنه الحق، الآمر بالحق الداعي إليه بحق، ولذا أخذ العهد على

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٣١٢، والترمذي برقم ٢٢٥٥، وأحمد برقم ١٣١٠١، وابن حبان برقم ٥١٦٧، والبيهقي في الكبرى برقم ١١٢٩٠.

(٢) مصنف عبد الرزاق برقم ٢٠٧٠٢ . والبيهقي في الكبرى برقم ١٢٧٨٨ . والمتقي الهندي في كنز العمال برقم ١٤٦٤ وقال قال ابن كثير : إسناده صحيح في البداية والنهاية ٥ / ٢٤٨ .

نفسه بأن ينصر من نصره ويخذل من خذله فقال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر : ٥١]

ومن نصره لرسله وأوليائه أن يعينهم للوصول إلى غايتهم المنشودة وإظهار الحق الذي يدعون إليه، ويدحض ما يقف في طريقهم وإن كان ظاهر الأمر عند قاصري الفهم مطموسى البصيرة هزيمة، فها هو النَّبيّ ﷺ يخرج من مكة مهاجراً مستخفياً ورغم ظهور الأمر على أنه هزيمة إلا أن الله ـ عز وجل ـ سماه نصراً فقال : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة : ٤٠]. وذلك لما أيده وأعانه حتى وصل إلى غايته المنشودة وهي تعبيد العباد لرب العباد.

وبين أيدينا يموت الغلام ويظهر الحق بعد موته، وهذه هي حقيقة النصر أن يؤيدك الله ـ عز وجل ـ لتصل إلى غايتك المنشودة ولن يتحقق لك ذلك إلا إذا اتفق فيك ثلاثة شروط :

الأول: أن تكون غايتك هي الوصول إلى الحق:

قال ربعي بن عامر لرستم لما سأله ما جاء بكم ؟ : (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

الثاني : أن تكون محلاً النصر :

وذلك بأن تجتمع فيك أسباب الولاية وقد بينتها لك من قبل فارجع إليها، وقس نفسك عليها، وانظر هل أنت منهم ؟.

الثالث: أن تأخذ بأسباب النصر:

أن تأخذ بأسباب النصر وتتوكل على الله ولا تتواكل فها هو النَّبيّ ﷺ يُعِد العُدَّة لكل صغيرة وكبيرة حال هجرته ، رغم علمه بأن الله ناصره ولكنه حُسن التوكل على الله ـ عز وجل ـ .

وأخيراً هل نحن نستحق النصر ؟، هل توحدت غايتنا وهدفنا وعملنا على تعبيد العباد لرب العباد ؟ هل نحن محلٌّ للنصر وتوجهت قلوبنا إلى ربها بأعمال على منهاج نبينا محمد ﷺ ؟، هل أخذنا بالأسباب الشرعية لكي ننتصر ؟.

إن سألت نفسك هذه الأسئلة وكنت منصفاً من نفسك لعلمت إننا لم نستجمع شروط النصر، ولما حار عقلك ورحت تسأل في دهشة لم لا ننتصر؟! .

الدرس الثاني: اتخذ إلهه هواه :

قال الراغب: الهوى : ميل النفس إلى الشهوة . ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة وقيل : سمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية [(١)].

وفي المصباح: (الهَوَى) مقصور مصدر (هَوِيتُهُ) من باب تعب إذا أحببته و علقت به ثم أطلق على ميل النفس و انحرافها نحو الشيء ثم استعمل في ميل مذموم فيقال : اتبع هواه و هو من أهل (الأَهْوَاءِ) [(٢)].

اعلم أن من أهم قواطع الطريق إلى الله اتباع الهوى، ولذلك جعل الله من أهم أسباب عدم استجابة الكفار للنَّبيّ ﷺ اتباعهم لأهوائهم فقال : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥٠) ﴾ [القصص : ٥٠] .

قال ابن كثير: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم

(١) المفردات ٢ / ٧١٢ . (٢) المصباح المنير ٢ / ٦٤٣ .

ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠ ﴾ (١) .

قال السعدي : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ فهذا من أضل الناس حيث عُرِض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله - عز وجل - وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه ؟!! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله فلهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠ ﴾ (٢) .

ومن الناس من غلب عليه اتباع الهوى حتى صار الهوى له إلهاً يعبده من دون الله حيث يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

ومن هؤلاء الذين عبدوا أهواءهم من دون الله ذلك الملك الطاغية الذي ظهرت له البراهين الساطعة والحجج القاطعة على صدق دعوة الغلام وأن الغلام ومن تبعه على الحق، وهو نفسه على الباطل، ولكن غلبه هواه فأعماه عن رؤية الحق، فبدلاً من أن يثوب إلى رشده ويتبع الغلام تمادى في غيِّه وأصر على قتل الغلام، فوقع ما كان يحذر، وما نال ما تمنى .

---

(١) عمدة التفسير ٢/٦٨٤ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٧ .

فاتباع الهوى يهلك صاحبه، ويهوى به في هوة سحيقة من الأقذار، قل من ينجو منها دون أن ينجس ثوبه ، ولذلك حذر الله - عز وجل - سيدنا داود عليه السلام من اتباع الهوى فقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾[ص : ٢٦] .

ونزه نبيه محمد ﷺ عن الهوى فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾[النجم : ٣-٤] .

وأمره أن يلزم الذين يريدون وجه الله - عز وجل - ولا يطع من اتبع هواه فقال: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾[الكهف : ٢٨] .

ووعد من نهى نفسه عن اتباع الهوى بالجنة فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾[النازعات : ٤٠-٤١] .

ونفي المساواة بين من عبد ربه على نور وبصيرة ومن اتبع هواه فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) ﴾[محمد : ١٤] .

فإياك إياك أن تتبع هواك وتنسى مولاك فلن ينالك في الدنيا إلا العطب، وفي الآخرة إلا الهلاك .

الدرس الثالث: الحرب بين أولياء الله وأعدائه لا تخضع لقوانين القوى الطبيعية :

لما خلق الله - عز وجل - الحياة الدنيا خلق فيها موادها، جعل لكل مادة صفات خاصة بها، فمثلاً جعل للنار صفة الإحراق، وجعل للماء صفة السريان والإغراق، وإن تأملت كل مادة من المواد التي حولك لوجدت أن الله - عز وجل - قد أودع

فيها صفة خاصة بها، ولن يعوزك في ذلك جهد أو عناء.

وهذه الظاهرة من سُنن الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل إلا بإذنه، فقد يسلب الله من أي مادة صفاتها في أي وقت شاء، ولمن شاء من عباده، فقد سلب من النار صفة الإحراق حينما ألقى فيها إبراهيم عليه السلام بأمره - عز وجل - حينما قال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء :٦٩] .

فصارت النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ولم تحرقه، ولما سلب صفة القطع من السكين ما قدرت على أن تقطع رقبة إسماعيل عليه السلام ، ولما سلب من الماء صفة السريان والإغراق بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء : ٦٣] .

فما غرق موسى عليه السلام ومن معه، ولما أودع فيها صفاتها أغرق فرعون ومن معه، فسبحان من حفظ هذا ونجاه بالماء، وأهلك ذاك وأغرقه بنفس الماء، وما ذاك إلا لكمال قدرته وحكمته في أن يودع ما يشاء فيمن شاء، ويسلب ما يشاء ممن شاء وقتما يشاء.

فكل ما في الكون رهن إشارته وطوع أمره، ولا يقع في ملكه إلا ما أراده ومن أعظم الأمثلة لذلك انصياع الأرض والسماوات لأمره رغم عظم خلقهما إذ يقول جل شأنه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت : ١١] .

قال ابن كثير: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين، ... ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا [١] .

وقال السعدي: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: ليس لنا إرادة

---

(١) عمدة التفسير ٣ / ٢٠٧، باختصار.

تخالف إرادتك (١) .

فالسماوات والأرض رغم عظم خلقهما لا يقدران أن يخالفا أمر الله ، فما بالك بمن هو دونهما أو جزء منهما.

وبين أيدينا في هذه القصة تجد عجباً في هذا الأمر فتجد أن القوى المادية قد انقلبت موازينها، فبحجر يقتل الغلام دابة ما قدروا على قتلها بأسلحتهم الفتاكة، ويرجف الجبل فيتساقط كل من فوقه صرعى إلا الغلام، ويهيج البحر فيغرق كل من في السفينة إلا الغلام، ويطيش السهم من يد الملك وما يستطيع أن يصوبه للغلام رغم قرب المسافة وعدم وجود الحائل، وسهم آخر من كنانة الغلام وبنفس اليد يقتل الغلام رغم أن موضع إصابته في العادة لا يقتل.

وأين موازين القوى المادية في غزوة بدر فقد كان جيش المسلمين مؤلفاً من : ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وفرسين، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، وكان معهم سبعون بعيراً ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعليٌّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً واحداً (٢) .

وكان قوام الجيش المكي نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس، وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل (٣) .

فبميزان القوى المادية كان لابد وأن يسحق جيش المشركين جيش المسلمين ويبيد خضراءه، ولكن إذا اتصل الأمر بالله فالأمر له شأن آخر، فهو القائل لنبيه ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٢٤ .
(٢) الرحيق المختوم ص ١٩٤، ١٩٥ باختصار.
(٣) السابق ص ١٩٦ .

مائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال : ٦٥-٦٦] .

قال ابن كثير: ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة، عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف فقال : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ﴾ قال : خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (١) .

أي أن الله نسخ الحكم فبعد أن فرض ـ عز وجل ـ ألا يفر المسلم من عشرة من الكفار؛ خففها بألا يفر المسلم من اثنين من الكفار، ولكن بقيت البشارة بالنصر فعند تعاظم الإيمان في القلوب وقوته مع الصبر يغلب المؤمن عشرة من الكفار بإذن الله ،وعند ضعف الإيمان وقلة الصبر يغلب المؤمن اثنين من الكفار بإذن الله ، وذلك لأننا لا نقاتل بعدة ولا بعتاد ولكن نقاتل بهذا الدين.

واعلم أنه ما من معجزة لنَّبيّ إلا وقد يجعلها الله ـ عز وجل ـ كرامة لولي وقد ورد أن نبينا ﷺ أيده ربنا بإلقاء الرعب في قلوب شانئيه من مسيرة شهر وذلك لما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : (**أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النَّبيّ يبعث إلى قومه خاصة**

---

(١) عمدة التفاسير ٢ / ١٢٢ ، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه البخاري برقم ٤٣٧٦ .

وبُعثتُ إلى الناس عامة [١] .

فمن اقتفي أثره وسار على نهجه وترسم خطاه فلابد أن ينصره الله بالرعب على أعدائه ولو من مسيرة أسبوع أو حتى يوم وكفي بها نعمة .

فلا تركن للقوى المادية فإنها لن تغنى عن أهلها من الله شيئاً ، وتوكل على الحي القيوم وكفي به وكيلاً ، ومن حسن التوكل الأخذ بالأسباب فالتزم قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

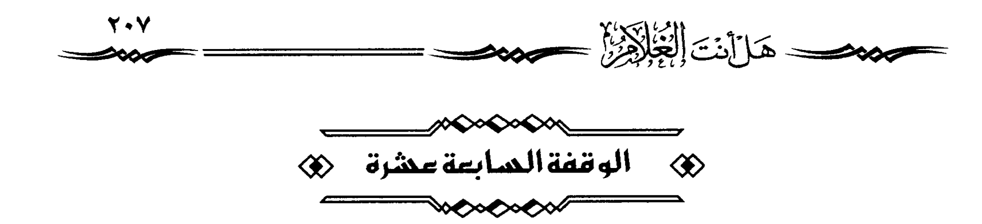
ومعنى ذلك أنه يجب عليك أن تعد ما استطعت من قوة ، و لا تركن إليها ، وعلق قلبك بمن سخرها وسيرها فخير الأمور أوسطها ، وأن النصر بيد الله لا بالقوة وحدها .



(١) رواه البخاري برقم ٣٢٨ ، ومسلم برقم ٣ / ٥١١ ، والنسائي برقم ٤٣٢ ، وابن حبان برقم ٦٣٩٨ .

المرحلة الخامسة

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾



الوقفة السابعة عشرة

[فقال للملك : " لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به " ، قال : " ما هو ؟ " قال : " تجمع الناس في صعيد واحــد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل بسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إن فعلت ذلك قتلتني] .

وفيها درسـان :

الدرس الأول: نفاذ البصيرة وانعدامها :

وهنا جملة مسائل :

المسألة الأولى: اعلم رحمني الله وإياك أن الإنسان مخلوق من روح وبدن لكل منهما صفاته :

فالبدن هو ذلك الجسم الظاهر ذو الأبعاد طول وعرض وعمق، الموصوف بصفات تميزه عن غيره.

أما الروح فعرفها ابن حزم فقال: ذهب سائر أهل الإسلام والملل المقِرَّة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ، ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد ، قال وبهذا نقول، قال والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناهما واحد [١] .

ذكر الرازي أن من قال الروح جسمٌ سارٍ في الجسم قد اختلفوا في تعيين ذلك

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥ / ١٤٧ ، والروح لابن القيم ٢١٨ .

الجسم على عدة وجوه .. ثم ذكر ستة أوجه ختمها بقوله: أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف، حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية.

وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

يقول ابن القيم: وهذا القول هو الصواب في المسألة هو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد (١) .

المسألة الثانية: العلاقة بين الروح والبدن :

قال ابن القيم أن من: أصول أهل السُّنَّة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسُّنَّة والآثار والاعتبار والعقل، والقول: أنها (أي الروح) ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن... وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والتوفي والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام :٩٣] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر :٢٧-٣٠] .

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾

(١) الروح لابن القيم ص ٢١٩ ، ثم ذكر ابن القيم الأدلة على صحة هذا القول بما يزيد على المائة وجه، انظر الروح له ص ٢١٩ - ٢٣٩

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس :٧ ، ٨] . فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله :﴿ **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** ﴾ [الانفطار:٧]، فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه فتسوية البدن تابع لتسوية النفس والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له (١) .

ويشهد لما قاله ابن القيم قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾** ﴾ [الحجر:٢٩]، فتسوية البدن كان أولاً،ثم تبعه نفخ الروح فيه، ومعلوم أن المنفوخ يصير داخل المنفوخ فيه، فيصبح البدن كالقالب للروح .

ورغم أن لكل من الروح والبدن صفاته، إلا أن كل منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به.

قال ابن القيم: ومن ها هنا يُعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن، كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن، ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث (٢).

المسألة الثالثة: هناك فروق بين البدن والروح نشأت عن اختلاف أصلهما

■ فالبدن خُلق من الأرض ومن عناصرها، أما الروح خلقت من كنه لا يعلمه إلا الله ، ولذلك عُبِّر عنها بأنها جسم نوراني (٣) .

■ البدن مطعمه من الأرض، أما الروح فغذاؤها من السماء (٤) .

---

(١) الروح ص ٥١ .
(٢) الروح ص ٥٠، ٥١ .
(٣) كيفية خلق الروح ومادة خلقها قد استأثر الله بعلمهما لنفسه، ولما سُئل عن ذلك النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء : ٨٥] .
(٤) هناك فرق بين الطعام والغذاء فالطعام مادي أما الغذاء فمعنوي .

■ البدن يثقل بكثرة الطعام وراحته في الخلود إلى الأرض، أما الروح فتخف بكثرة الغذاء، وراحتها في السمو حتى تقترب من العرش علواً، قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: (إياكم والبِطْنَة فإنها ثقل في الحياة ونتن في الممات) [١].

ويقول ابن القيم: خلق بدن ابن آدم من الأرض،وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما. فإذا أجاع بدنه، وأسهره، وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة؛ فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه واشتاقت إلى عالمها العلوي ، وإذا أشبعه، ونعَّمَه، ونوَّمه، واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه؛ فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خُلقت منه كما يستغيث المعذب.

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائماً على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش، وآخرَ واقف في الخدمة ببدنه وروحه في السفل تجول حول السفليات، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين، وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك [٢].

■ البدن ينمو بكثرة الطعام الذي تتأذى منه الروح وتغلظ، والروح تنمو وتصفو بكثرة الغذاء الذي به يرق البدن ويطهر.

قال سفيان الثوري: (إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب) [٣]، وقال محمد ابن واسع: (من قل طعمه فهم وأفهم وصفا ورق وإن كثرة الطعام لتثقل صاحبه

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ٨٢ .
(٢) الفوائد ص ٢٣٠ .
(٣) حلية الأولياء ٧ / ٧٨ .

عن كثير مما يريد) ، وعن عمرو بن قيس قال : (إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب)، وكان يقال : (لا تسكن الحكمة معدة ملأي)، وعن قثم العابد قال : كان يقال : (ما قل طعم امرئ قط إلا رق قلبه ونديت عيناه)، وقال أبو سليمان الداراني : (إن النفس إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورق وإذا شبعت ورويت عمى القلب) [١].

ويشهد لذلك كله ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال : **(المؤمن يأكل في معي واحد ،والكافر يأكل في سبعة أمعاء)**[٢]، فكلما ازداد الإيمان صفت الروح ورقت وأثر ذلك بالسلب على الطعام فقل والعكس صحيح .

■ من مطاعم البدن ما ينميه كالطعام الصالح ومنها ما يمرضه كالطعام الفاسد ،ومنها ما يقتله كالسموم،والروح لها غذاء منه ما يقويها وهو الوحي المنزل من السماء،ومنه ما يمرضها كالمعاصي والذنوب، ومنه ما يقتلها كالكفر والشرك .

■ موت البدن يكون باستحالته إلى عناصره الأولية، أما موت الروح يكون بمفارقتها للبدن .

■ البدن مركز السيطرة عليه في الدماغ،والروح مركز السيطرة عليها في القلب .

■ كما أن للبدن أجهزة حس يتعرف بها على الوسط المحيط، كذلك الروح لها أجهزة حس تدرك بها ما هو أوسع من الوسط المحيط .

■ من أعضاء الحس للبدن العين التي بها يتعرف على ظاهر الأشياء، وللروح عين أيضاً تدرك بها خواص الأشياء وهي البصيرة .

المسألة الرابعة: تعريف البصيرة :

البصيرة هي : بصر الروح وعين القلب يقول ربنا : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحجر :٤٦] .

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٧٦، ٤٧٧ باختصار
(٢) رواه البخاري برقم ٥٠٧٨ ، والترمذي برقم ١٨١٨ ، وابن حبان برقم ٥٢٣٨ .

عن خالد بن معدان قال : (ما من آدمي إلا وله أربعة أعين : عينان في رأسه يُبصر بهما أمر الدنيا،وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة؛فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه،فأبصر بهما ما وُعد بالغيب فأمن الغيب بالغيب) (١) .

قال القرطبي: قال مجاهد : لكل عين أربعة أعين : يعني لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً (٢) .

قال ابن كثير: أي ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر (٣) .

البصيرة عرفها الراغب فقال: البصر يقال للجارحة الناظرة . . . وللقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة : بصيرة (٤) .

قال الليث: البَصيرة اسم لما اعتُقِد في القلب من الدين وتحقيق الأَمر، وعن ابن الأَعرابي قيل البَصيرة الفطنة تقول العرب أَعمى الله بصائره أي فِطَنَه (٥) .

قال ابن القيم: البصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى عين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معنى قول بعض العارفين : البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وقال بعضهم البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان(٦) .

وقال أيضاً: والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب يفرق به العبد بين الحق

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٣٩ ، انظر تحفة العلماء ص ٢٧٦ .
(٢) تفسير القرطبي ١٢ / ٥٢ .
(٣) مختصر تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٣٠ .
(٤) المفردات ١ / ٦٢ .
(٥) لسان العرب ٤ / ٦٤ .
(٦) مدارج السالكين ١ / ١٥٢ .

والباطل ونسبته إلى القلب : كنسبة ضوء العين إلى العين وهذه البصيرة وهبية وكسبية فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته وتجرد لله من هواه : استنارت بصيرته ورزق فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل (١).

قال الجرجاني: البصيرة قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها وهي التي يسميها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية (٢).

يقول ابن القيم: البصيرة كالبصر تكون عمى وعوراً وعمشاً ورمداً وتامة النور والضياء، وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل، وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية (٣).

يقول الغزالي : وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر، والفرق مُدْرَك بين الأعمش وبين حاد البصر (٤).

المسألة الخامسة: أسباب قوة البصيرة :

عنها يقول ابن القيم: وكما أن المشاهدة بالبصر لا تصح إلا مع صحة القوة المدركة، وعدم الحائل من جسم أو ظلمة، وانتفاء البعد المفرط فكذلك المكاشفة بالبصيرة تستلزم صحة القلب،وعدم الحائل والشاغل،وقرب القلب ممن يكاشفه بأسراره(٥).

ويؤخذ من كلامه رحمه الله أن قوة البصيرة مترتبة على ثلاثة شروط:

الأول: صحة القلب :

والصحة ضد المرض، فلن يكون القلب صحيحاً إلا إذا خلا من أمراضه واستعاد عافيته، ومن أهم الأمراض المهلكة للقلب الشرك والنفاق والكبر

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٧٩ .
(٢) التعاريف ص ٦٦ برقم ٢٩١ .
(٣) مدارج السالكين ٣ / ٢٩٥ .
(٤) الإحياء ١ / ٨٨ .
(٥) مدارج السالكين ٣ / ٢٥٣، ٢٥٤ .

والحسد، فعلى العبد لتقوى بصيرته أن ينظف قلبه من هذه الأوساخ، ويزيل عنه هذه الأدران، ويلزم تعهده على الدوام حتى لا يأتيه ما يهلكه وهو غافل عنه.

الثاني: عدم وجود الحائل والشاغل :

يقول ابن القيم: تجريده (أي القلب) عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى فلا يقوم بقلبه **شبهة** تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا **شهوة** تمنع من تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا **تقليد** يريحه عن بذل الجهد في تلقى الأحكام من مشكاة النصوص [١].

فحوائل القلب عن قوة البصيرة ثلاث:

[١] الشبهات :

عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير فأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يصير القلب على قلبين: أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربد؛ كالكوز مجخياً، وأمال كفه، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً؛ إلا ما اشرب من هواه**)[٢].

قال ابن تيمية: والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات [٣].

قال ابن القيم: والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد[٤] . [٥] .

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٥٤ .
(٢) رواه أحمد برقم ٢٣٣٢٨ .
(٣) قاعدة في المحبة ص ٨٨ .
(٤) يقصد بالأولى الشهوات وما يتولد عنها من الغي والمعاصي والظلم، وبالثانية الشبهات وما يتولد عنها من الضلال والبدع والجهل.
(٥) إغاثة اللهفان ص ١٥ .

ويقول أيضاً: (فيتفق للعبد شبهة وشهوة وهما أصل كل فساد ومنشأ كل تأويل باطل وقد ذم الله سبحانه من اتبع الظن وما تهوى الأنفس فالظن الشبهات وما تهوى الأنفس الشهوات) (١).

والشبهات من أخطر ما يعرض للقلب ويحول بينه وبين الوصول إلى ربه، فإنه ما ضل من ضل من أهل الزيغ والضلال في غابر الزمان وحتى الآن إلا من قبل شبهات عُرضت على قلوبهم فأشربوها، فتركت قلوبهم منكوسة كالكوز مجخياً لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، وبسببها تفرقت الأمة شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون.

[٢] الشهوات :

ومن أكثر الشهوات تأثيراً في القلب ما يدخل عن طريق الحواس؛ وبخاصة الأذن والعين، ولذلك كان فقد البصر في كثير من الأحيان من أسباب قوة البصيرة.

قال القرطبي: (البصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طرق الحواس إليه وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله) (٢).

قال ابن القيم: وأما فقد البصر فربما كان معيناً على قوة إدراك البصيرة، وشدة ذكائها، فإن نور البصر ينعكس إلى البصيرة باطناً فيقوى إدراكها ويعظم، ولهذا تجد كثيراً من العميان، أو أكثرهم، عندهم من الذكاء الوقاد، والفطنة، وضياء الحس الباطن ما لا تكاد تجده عند البصير، ولا ريب أن سفر البصر في الجهات والأقطار، ومباشرته للمبصرات على اختلافها يوجب تفرق القلب وتشتيته، ولهذا كان الليل أجمع للقلب والخلوة أعوَن على إصابة الفكرة (٣).

---

(١) الصواعق المرسلة ٢ / ٥١٠ .
(٢) القرطبي ١٢ / ١٤٨ .
(٣) بدائع الفوائد ١ / ٨٠ .

وغض البصر أقوى أثراً في تقوية البصيرة من العمى لأن من غض بصره إنما ترك إطلاق البصر لله وقد ورد عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا: أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : (أخذ رسول الله بيدي فجعل يعلمني مما عمله الله فكان مما حفظت أن قال لا تدع شيئاً اتقاء لله إلا أبدلك الله خيراً منه) (١).

وللخلاص من الشهوة : يجب أن تعرف ما يترتب عليها من آثام وفي ذلك يقول ابن القيم: الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تُسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تُطرِّق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة وإما أن تشمِّت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة وإما أن تحدث عيباً يُبقى صفة لا تزول فإن الأعمال تورِّث الصفات والأخلاق (٢) .

وللخلاص من هذين الداءين الحالقين لأصل الدين معاً يجب تصديق ما جاء من عند الله وامتثال أمره.

قال ابن القيم: متابعة هدى الله ... هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله، وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران وهما: نفي شبهات الباطل الواردة عليه؛ المانعة من كمال التصديق؛ وأن لا

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى برقم ١٠٦٠٣ ، وفي شعب الإيمان برقم ٥٧٤٨ ، وفي مسند الشهاب برقم ١١٣٥ .

(٢) الفوائد ص ١٩١، ١٩٢ .

يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه؛ المانعة من كمال الامتثال، فهنا أربعة أمور: **أحدها**: تصديق الخبر ، **الثاني**: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته، **الثالث**: طاعة الأمر ، **والرابع**: مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده، وذلك أن العبد له قوتان قوة الإدراك والنظر؛ وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب؛ وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر فساداً في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فساداً في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها[1].

[٣] التقليد :

في ذم التقليد ومدح التمسك بالسُّنَّة ساق ابن القيم هذين الإجماعين:

قال الشافعي قدس الله تعالى روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس.

قال أبو عمر وغيره من العلماء: أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله، وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد.

ثم قال رحمه الله تعالى: فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى، والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من وراثة الأنبياء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٤٠ .

ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه، ويُضيِّع ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه ؟، تالله إنها فتنة عمَّت فأعمْت، ورمت القلوب فأصمَّت، رَبَا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتُخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً، ولما عمَّت بها البلية، وعظُمت بسببها الرزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدون العلم إلا إياها، فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل، وبغوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم إنا نخاف ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] .

فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت إلى هؤلاء، ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رُفع له علم السُّنَّة النبوية شمَّر إليه، ولم يحبس نفسه عليهم، فما هي إلا ساعة حتى يُبعثر ما في القبور، ويُحصل ما في الصدور، وتتساوى أقدام الخلائق في القيام لله ، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسُنَّة نبيهم أنهم كانوا كاذبين (١) .

واعلم رحمني الله وإياك أن المقلد إما غبي أو عصبي،فمن استبانت له سُنَّة لا يجوز له تركها لقول أحد من البشر كائناً من كان، ومن كان قادراً على الوصول للعلم من مظانه الصحيحة لا يجوز أن يقلد أحداً فيما يستطيع الوصول إلى دليله، وللخلاص من هذا الداء العضال عليك بسُنَّة النَّبيّ ﷺ فإنها خير الهدى.

الثالث: قرب القلب من الله :

ولن يكون قريباً من ربه حتى يعلم عنه ما يليق به من صفات جلاله ونعوت كماله، وما تفضل به من إنعامه على عباده، ويعمل بمقتضى ذلك فيؤدي ما يجب عليه لله .

---

(١) إعلام الموقعين ١ / ٦، ٧ .

يقول ابن القيم: لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر.

وعقد هذا أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستوياً على عرشه، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم، علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفي عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقاً وعدلاً وجلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً وحكمةً ورحمةً وإحساناً وفضلاً، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد (١).

وبالجملة فكل طاعة تسهم في قوة البصيرة ونفاذها وكل معصية سبب من أسباب انطماسها، وبين هذه وتلك درجات لا يعلم مدى التفاوت فيها إلا رب البريات، ولما كانت الطاعات كلها من الإيمان فالعلاقة بين الإيمان والبصيرة مطردة، لأن البصيرة ثمرته؛ فإن زاد زادت، وإن نقص نقصت،وإن ذهب ذهبت.

يقول ابن القيم: فمن لا بصيرة له فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة (٢).

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٥٢، ١٥٣.
(٢) مدارج السالكين ٢ / ٣٧٩.

ويقول أيضاً فيمن قدم شهواته وهي دنية على ما عند الله وهو في غاية الكمال والحسن واللذة : (لو ساعد القدر فأعنت الطبيب (أي ربك) على نفسك بالحمية من شهوة خسيسة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات، ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة فظننت أن الحزم بيع الوعد بالنقد، يا لها من بصيرة عمياء جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد، سافرت في طلب الدنيا وهي عنها زائلة وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهي إليها راحلة) (١) .

فالفرق بين الغلام والملك؛ أن الغلام أكرمه ربه بنفاذ في بصيرته؛ فشاهد ما أُعد للمتقين في دار النعيم وهو ما زال في هذه الدنيا الفانية، فآثر ما أيقن من بقائه على ما تيقن من فنائه، أما الملك فقد ابتلاه ربه بعمى البصيرة فما استطاع أن يدرك ما يتمخض عنه قتل الغلام فأقدم على قتله، وليته ما فعل، ففرق بين نفاذ البصيرة وانعدامها.

الدرس الثاني: إيثار الآجل على العاجل :

الأحمق من آثر عاجلاً رخيصاً على آجل نفيس، والكيس الفطن من آثر النفيس سواء كان عاجلاً أم آجلاً.

يقول ابن القيم: (إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير فاعلم بأنه سفيه) (٢) .

وفي قصتنا مثال لأحمق آثر العاجل الرخيص على الآجل النفيس ، ألا وهو الملك فقد آثر أن يقتل الغلام وكل من تبعه رغبة في لذة عاجلة لن تدوم إلا قليلاً، فكان كل همه أن يقتل الغلام ليستريح، وبمجرد قتله للغلام زرع بيده من خلفه ألف غلام، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاق صدره حتى كأنما

---

(١) الفوائد ص ٩١ .
(٢) الفوائد ص ٩١ .

يتنفس من ثقب إبرة، فعاش بقية حياته تعيساً لا يهنأ بعيش، وينتظره في الآخرة موعود ربه ناراً تلظى جزاء ما عذب وقتل أولياءه، فلم يتحصل بعاجل به تقر عينه في حياته، واستقبل حياة أخرى هي أشد بؤساً مما كان عليه، ثم ينتظر آجلاً لا يعلم مدى شقائه إلا الله .

ومثال لمن آثر الآجل النفيس على العاجل الرخيص ألا وهو الغلام، فقد علم أن الملك لا يستطيع قتله وقال ذلك للملك: لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، ورغم ذلك يشترط لذلك شروطاً مؤداها أن يصل الحق إلى كل إنسان في مملكته بل في الدنيا بأسرها، فأصر أن يكون موته أمام كل الناس، - وأسوته في ذلك موسى عليه السلام حينما تحداه فرعون قائلاً له: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه : ٥٨] . فرد عليه موسى عليه السلام قائلاً : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه : ٥٩] ، وبعد أن يأخذ الملك سهماً من كنانة الغلام قائلاً بأعلى صوته بسم الله رب الغلام، ولو تخلف شرط منها ما قدر على موته، وذلك ليُعلم من خلفه وكذا الملك أن حياته بيد مالكه وأنه لن يُقتل إلا بإذنه، وما فعل ذلك إلا لعلمه أن دماءه التي ستسيل منه ستروي قلوباً أشرفت على الموت فتربو تنبت كما تنبت الحبة في حميل السيل وقد اغتذت بالإيمان، وكان ما أراد فقال الناس آمنا برب الغلام، وأيضاً أراد لنفسه أن تموت مزكاة كما يزكي أحدنا ذبيحته فيذكر ربه عند ذبحها، وأيضاً لما أيقن بموعود الله في حياة أتم وأكمل وأنعم في جنة الخلد عند ربه فتعجل اللقاء، ومثله في ذلك كمثل عمير بن الحمام الأنصاري فقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما دنا المشركون يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : (**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**) قال يقول عمير بن الحمام الأنصاري يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : (**نعم**) ، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ : (**ما يحملك على قولك بخ بخ ؟**) قال : لا والله

يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال : (**فإنك من أهلها**) فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قُتل (١).

وإنما اختلفت النظرة بين الاثنين تبعاً لنفاذ بصيرة الغلام وانعدامها عند الملك، ولمعرفة كل منهما لحقيقة الدنيا، فالملك ينظر إليها على أنها كل شيء، والغلام يعلم أنها دنيا دنية، فاتخذها مطية للوصول إلى ما يرجو ويتمنى من موعود الله ؛ بنصر في الدنيا، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين في الآخرة.

فالملك هُزم في الدنيا وفي الآخرة لأنه ما وصل إلى غايته المنشودة، أما الغلام فانتصر في الدنيا والآخرة لأنه وصل إلى غايته المنشودة في الدنيا بتعبيد الناس لرب الناس، وفي الآخرة وصل إلى غايته المنشودة ألا وهي جنة المأوى، رغم أن الناظر بعين القصور يظن أن الملك هو المنتصر . . . راجع درس النصر في المرحلة السابقة.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٤٥ / ١٩٠١ ، وأحمد برقم ١٢٤٢١ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٧٦٩٤ ، والحاكم في مستدركه برقم ٥٧٩٨ .

الوقفة الثامنة عشرة

فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : " بسم الله رب الغلام " ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فمات ، فقال الناس : " آمنا برب الغلام "

وفيها درسان :

الدرس الأول: حُسن التوكل ينفع صاحبه حتى وإن كان كافراً :

التوكل في اللغة : إظهار العجز والاعتماد على غيرك [١] .

وقال الجرجاني : إقامة الغير مقام نفسه بالتصرف فيما يملكه [٢] .

وقال الراغب : أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك [٣] .

وفي الشرع:

قال ابن رجب: حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها [٤] .

قال ابن القيم: وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد [٥] .

---

(١) مختار الصحاح ٧٤٠ .
(٢) التعريفات ٩٧ .
(٣) المفردات ٢ / ٦٨٩ .
(٤) جامع العلوم والحكم ٤٨٨ .
(٥) مدارج السالكين ٢ / ١٣١، ١٣٢ .

قال ابن رجب: واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله المقدورات بها وجرت سُنَّته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له والتوكل بالقلب عليه إيمان به قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] . وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وقال سهل التستري من طعن في الحركة (يعني في السعي والكسب):

فقد طعن في السُنَّة ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النَّبيّ ﷺ والكسب سُنَّته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سُنَّته (١) .

ويشهد لذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل ؟،قال :(**اعقلها وتوكل**)(٢) ،فلم يغفل النَّبيّ ﷺ الأخذ الأسباب بدعوى التوكل، وإنما الأخذ بالأسباب من جملة التوكل.

ويقول ابن القيم في بيان حقيقة التوكل: التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً (٣) .

وهذا من أبين تعريفات التوكل وأكثرها مطابقة لمقاصد الشرع، **لذا قلت : التوكل هو اعتماد القلب على الله باطناً، والأخذ بالأسباب الشرعية ظاهراً، للوصول إلى غاية مشروعة.**

وهذا التعريف استقيته من الحديث الذي رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب

(١) جامع العلوم والحكم ٤٨٨ .

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٥١٧ وقال هذا حديث غريب، وابن حبان برقم ٧٣١ وحسنه الأرنؤوط، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر برقم ٢٢ .

(٣) زاد المعاد ٣ / ٨ .

أن رسول الله ﷺ قال: **(لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)** (١) .

فالطيور تعتمد على ربها في الحصول على رزقها وهذه غاية مشروعه وأخذت بالأسباب المشروعة من السعي في طلبه، ولم تخلد في أعشاشها انتظاراً لوصول الرزق.

فمن اعتمد على الأسباب فهو مشرك، ومن أهمل الأخذ بها فهو متواكل، ومن أخذ بأسباب غير مشروعة فهو مبتدع، ومن اعتمد على الله وأخذ بالأسباب وكانت الغاية غير مشروعة فهو زنديق، ومن اعتمد على الله وأخذ بالأسباب وصلحت غايته فهو متوكل على الله .

والمُتَوَكِّل على الله الذي يعلم أن الله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إليه وحْدَه ولا يتوكَّل على غيره قاله ابن سيده (٢) .

وبهذا الاعتبار ينقسم الناس في حقيقة التوكل إلى أقسام هي :

الأول: من اعتمد على الله في الوصول إلى غاية مشروعة وأخذ بالأسباب المشروعة، وهذا له من الله الأجر، ووصل بإذن الله إلى ما يريد وهو من أهل الإيمان الذين يحبهم الله ورسوله ﷺ .

الثاني: من اعتمد على الله في الوصول إلى غاية مشروعة وأخذ بأسباب غير مشروعة، وهذا مبتدع لأن الغاية المشروعة حدد الشرع أسباباً مشروعة للوصول إليها، فمن استحسن غيرها فقد ابتدع، وبذا يُعلم أن الغاية المشروعة لا تبرر الوسيلة غير المشروعة، وعلى قدر بدعتة يكون ذنبه، فقد يصل به في بعض الأحيان أن تكون بدعته مكفرة له، مخرجة له من الملة، وقد تكون دون ذلك.

(١) رواه الترمذي برقم ٢٣٤٤ وقال حسن صحيح، وأحمد برقم ٢٠٥ ، وابن حبان برقم ٧٣٠ وقال الأرنؤوط: إسناده جيد، والحاكم في المستدرك برقم ٧٨٩٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٢٥٤ ، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣١٠ .

(٢) لسان العرب ١١ / ٧٣٤ .

الثالث: من اعتمد على الله في الوصول إلى غاية مشروعة، وترك الأسباب جملة؛ ظناً منه أن ذلك عين التوكل على الله، فإنما هو متواكل ولن يصل إلى ما يريد، لأن الله ـ عز وجل ـ ربط بين الغايات والوسائل، فمن أراد أن ينجب عليه أن يتزوج، ومن أراد أن يعلم فليتعلم، أما أن تحصل له غاية بغير تحصيل أسبابها فهذا محال شرعاً وعقلاً.

يقول ابن القيم: فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به (١).

الرابع: من اعتمد على الله في الوصول إلى غاية غير مشروعة، وأخذ بأسباب غير مشروعه، فهذا ممن حاد الله ورسوله، وعلى قدر همته قد يصل إلى غايته وفي مثل هذا يقول ابن القيم: ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه،بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم (٢).

الخامس: من اعتمد على الله في الوصول إلى غاية غير مشروعة وأخذ بأسباب مشروعة، وهذا من المدلسين، الذين يفتنون الناس ويضلونهم فيظهرون في ثوب الصلاح وتنطوي نفوسهم على شر محض لا يعلمه إلا من خالطهم وعرف فساد غاياتهم، ومعظمهم ممن يهدم الدين باسم الدين، وهو من الأخسرين أعمالاً ويحسبه من يراه أنه يحسن صنعاً، وهذا هو النفاق المحض.

السادس: من لم يعتمد على الله في الوصول إلى غاية مشروعة وأخذ

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٤.
(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٢٩.

بالأسباب فهذا مشرك وشركه يدور مع اعتقاده في السبب ونوعه فإن كان السبب مشروعاً أو غير مشروع واعتقد أنه ينفع بذاته فقط أو ينفع مع الله ، فهذا هو الشرك الأكبر، وإن اعتقد بسببية سبب لم يثبت بالشرع أو العقل أنه سببٌ في الوصول إلى غايته فهذا من الشرك الأصغر .

وأياً كان سعيه ومعتقده فمن حسن توكله وصل إلى ما يريد، وفي ذلك يقول ابن القيم : ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعاته . والله أعلم [١] .

وفي القصة التي بين أيدينا أوضح مثال على أن صدق التوكل ينفع صاحبه وإن كان كافراً في الوصول إلى مقصوده، فها هو الملك يعتمد على الأسباب في الخلاص من الغلام فلم تغنِ عنه شيئاً وما استطاع أن يصل إلى غايته، وعندما اعتمد على الله وأخذ بالأسباب التي دله عليها الغلام وصل إلى غايته ومات الغلام .

فأحرى بنا أهل الحق أن نحسن التوكل على الله بأن نلجأ إليه بقلوبنا، ونطرح الأسباب من قلوبنا اعتقاداً، ونجعلها في أيدينا سعياً، موقنين بأنها لن تنفع ولن تضر إلا بإذن من سببها أسباباً وأودع فيها خصائصها .

الدرس الثاني: فـــرق بين حياة وحياة :

سعى الملك ليعيش حياة وسعى الغلام ليعيش حياة وفرق بين حياة وحياة، فالملك كان كل همه أن يعيش في هذه الدنيا الدنية حياة الترف والبزخ والنعيم، فعمل كل ما في وسعه للوصول إلى غايته فقتل وحرق، وما انثنى عن غيه لما يظن من لذة المقام، أما الغلام لما عاين نعيم الآخرة ـ وهذا شأن كل تقي يعيش في جنة

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٣٠ .

الدنيا قبل جنة الآخرة ـ كان سعيه أن يستمر عيشه في هذا النعيم ولما علم أن ما في الآخرة أتم وأكمل، وأنه لن يصل إليه إلا بالموت أقبل عليه متهلل الأسارير مبتهج الفؤاد.

ساق أبو نعيم في الحلية عن إبراهيم بن بشار الرطابي قال: بينا أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي وأبو عبد الله السخاوي ونحن متوجهون نريد الإسكندرية فصرنا إلى نهر يقال له نهر الأردن فقعدنا نستريح فقرَّب أبو يوسف الغسولي كُسيرات يابسات فأكلنا وحمدنا الله تعالى وقام أحدنا ليسقي إبراهيم فسارعه فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه ثم قال: بسم الله فشرب ثم قال: الحمد لله، ثم يبدأ ثانية، فقال بسم الله ثم شرب، ثم قال الحمد لله، ثم خرج فمد رجليه، ثم قال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب، زاد جعفر فقلت له يا أبا إسحاق طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤا الطريق المستقيم فتبسم ثم قال من أين لك هذا الكلام (١).

إن نعيم الدنيا مدخول ولذاتها منقوصة وهو إلى زوال إما بالسلب أو بالفراق ومثال ذلك من شرب الخمر فقد نال لذة غير كاملة فقد أحس بالفرح والسرور حيناً ولكنه عانى من نتن ريحها وحر طعمها وذهاب عقله حيناً وما يعقبها من صداع وأمراض، وهو إن آجلاً أو عاجلاً مفارقها إما لفلس أو ضيق ذات يد أو لمرضه أو لموته، أما نعيم الجنة ولذاتها لا مدخولة ولا منقوصة، فمن شرب الخمر في الآخرة ناله من اللذة والفرح والسرور ما لا يخطر ببال ولا يصيبه من أذاها شيءٌ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)** ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧].

قال ابن كثير: نزه الله ـ عز وجل ـ خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٧١.

من صداع الرأس، ووجع البطن وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة ، فقال تعالى ههنا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ ﴾ أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء أي لونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك وقوله تعالى : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعنى: لا تؤثر فيها غولاً وهو وجع البطن، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مائيتها وقال قتادة هو صداع الرأس ووجع البطن وعنه وعن السدي لا تغتال عقولهم ، وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن وقوله تعالى: ﴿ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء الخراساني وغيرهم، وقال الضحاك عن ابن عباس في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال [١] .

قال السعدي : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ ﴾ أي : يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المترعة من الرحيق المختوم بالمسك وهي كاسات الخمر، وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه فإنها في لونها ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝٤٦ ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها وليس فيها صداع ولا كدر [٢] .

وقس على ذلك كل نعيم الدنيا وملذاتها فيها من الكدر ما لا يعلمه إلا الله

---
(١) عمدة التفسير ٣ / ١٢٧- ١٢٨ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧٣ .

ونعيم الآخرة وما فيه من اللذة الخالصة السالمة من كل عيب، ففرق بين حياة نعيمها ليس بنعيم فما بالك بغصصها وإن كان فيها بعض النعيم فهو إلى زوال لا محالة، ونعيم مقيم بجوار رب العالمين.

ويبقى أن نقول إلا أن المتقين يتنعمون في الدنيا والآخرة في الدنيا بقربهم من ربهم حال عباداتهم فيجدون لذة لا تدانيها لذة وفي الآخرة فالنعيم أتم بمجاورة رب الأرباب وكفي بها نعمة، أما غيرهم ممن يعمرون دنياهم بخراب آخرتهم فهم في شقاء لا يعلم مداه إلا الله من جراء بعدهم عن ربهم، وما تنعموا بما يظنون أنه نعيم فهم في تنعمهم أشقياء وفي بعدهم عن ربهم أشد شقاء.

قال عبد الله بن وهب: كل ملذوذ إنما له لذة واحدة، إلا العبادة، فإن لها ثلاث لذات: إذا كنت فيها، وإذا تذكرتها، وإذا أُعطيت ثوابها [١].

قال أبو سليمان الداراني: لأهل الطاعة في ليلهم ألذّ من أهل اللهو بلهوهم وكان يقول: لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا [٢].

قال بعض الصالحين: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة [٣].

قيل للحسن البصري: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره [٤].

قال سعيد بن المسيب: إن الرجل ليصلي بالليل؛ فيجعل الله في وجهه نوراً يحببه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط، فيقول: إني لأحب هذا الرجل [٥].

قال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك الغافل باقي عمره إلا على ما فاته من لذة الطاعة فيما مضى من عمره؛ لكان ينبغي أن يبكي على ذلك حتى يخرج من الدنيا [٦].

---

(١) رهبان الليل ٣ / ٢٦٨.
(٢) رهبان الليل ٢ / ٤٣.
(٣) رهبان الليل ٢ / ٥٣.
(٤) رهبان اليل ٢ / ٤٦.
(٥) رهبان الليل ٣ / ٢٦٣.
(٦) رهبان الليل ٣ / ٢٥٣.

قال ابن الجوزي: (من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة في صفاء بلا كدر و لذات بلا انقطاع و بلوغ كل مطلوب للنفس و الزيادة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من غير تغيير ولا زوال إذ لا يقال ألف ألف سنة و لا مائة ألف ألف بل و لو أن الإنسان عد ألوف ألوف السنين لا ينقضي عدده وكان له نهاية وبقاء الآخرة لا نفاد له إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر وما مقدار عمر غايته مائة سنة منها خمس عشرة صبوة وجهل وثلاثون بعد السبعين - إن حصلت - ضعف وعجز والتوسط نصفه نوم وبعضه زمان أكل وشرب وكسب والمنتحل منه للعبادات يسير.

أفلا يشتري ذلك الدائم بهذا القليل ؟ إن الإعراض عن الشروع في هذا البيع و الشراء لغبن فاحش في العقل و خلل داخل في الإيمان بالوعد) [١] .

(١) صيد الخاطر ص ٣٥٩- ٣٦٠ .

الوقفة التاسعة عشرة

[فأتى الملك فقيل له : " أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس "] .

وفيها ثلاث دروس :

الدرس الأول: المـــرء على دين خليله :

لما كان القلب هو مستقر أصل الروح في البدن، وكانت الروح هي وعاء الإيمان ومستقره، ولما اختلف الناس في نصيبهم من الإيمان فمُقِل ومستكثر، اختلفت الأرواح بقدر اختلاف درجات الإيمان، وتبعاً لاختلاف الأرواح اختلف الناس وتباينوا، ولكن كثيراً من الناس تتفق درجات إيمانهم فيتفقون، ولما كانت الروح أقدر على التمييز والإدراك من الحواس الظاهرة فإنها تتعارف مع من يشبهها وتتنافر مع من يخالفها، وعلى حسب الاتفاق الاختلاف بين الأرواح يكون الاتفاق والاختلاف في الظاهر، وترى ذلك جلياً وتستشعره عندما تلقى رجلاً لا تعرفه فتشعر تجاهه بألفة واستئناس كأنك تعرفه منذ أمد بعيد، وآخر تشعر تجاهه بنفور واشمئزاز وضيق رغم أنه لم يتكلم معك منهما أحد، فاعلم أن من استراحت له نفسك يقاربك في محتوى قلبك من الإيمان، ومن نفرت منه نفسك فهو يغايرك فيما استقر في قلبك من الإيمان إما بالزيادة أو النقص، ويُظهِر ذلك ،ويؤكده ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: **(الأرواح جُنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر اختلف)** (١) .

---

(١) رواه البخاري برقم ٣١٥٨ .

قال ابن حجر: قوله (الأرواح جنود مجندة . . .إلخ) قال الخطابي : يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخَيِّر من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت) (١) .

وقال النووي: قال العلماء معناه جُموع مجتمعة، أو أنواع مختلفة، وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه، وقيل أنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها وتناسبها في شيمها (٢) .

وقال صاحب عمدة القاري:

لما نزل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكوفة قال : يا أهل الكوفة قد علمنا خيِّركم من شرِيركم، فقالوا : لم ذلك ؟ قال : كان معنا ناس من الأخيار فنزلوا عند ناس فعلمنا أنهم من الأخيار، وكان معنا ناس من الأشرار فنزلوا عند ناس فعلمنا أنهم من الأشرار، وكان كما قال الشاعر :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي (٣)

وقال المناوي: والتعارف هو التشاكل المعنوي الموجب لاتحاد الذوق الذي يدرك ذوق صاحبه فذلك علة الائتلاف كما أن التناكر ضده ولذلك قيل فيه :

ولا يصحب الإنسان إلا نظيره ... وإن لم يكونوا من قبيل ولا بلد

وقيل : انظر من تصاحب فقلَّ من نواة طُرِحت مع حصاة إلا أشبهتها، ولهذا قال الإمام الغزالي تبعاً لبعض الحكماء : لا يتفق اثنان في عِشْرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر حتى الطير، ورأى بعضهم مرة غراباً مع حمامة فاستبعد المناسبة

(١) فتح الباري ٦ / ٤٠٠ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ١٥٢ .
(٣) انظر عمدة القاري ١٥ / ٢١٥ .

بينهما؛ ثم تأمل فوجدهما أعرجين، فإذا أردت أن تعرف من غابت عنك خلاله بموت، أو غيبة، أو عدم عشرة؛ امتحن أخلاق صاحبه وجليسه بذلك، وذلك يدل على كماله أو نقصه؛ كما يدل الدخان على النار ولهذا قيل فيه:

إذا أردت ترى فضيلة صاحب فانظر بعين البحث مَن ندمائه

فالمرء مطوى على عِلاته طى الكتاب وتحته عنوانه

وإذا صاحب الرجل غير شكله لم تدم صحبته (١).

فما اجتمعت جماعة من الناس وكانت بينهم مودة إلا لاتفاقهم في الصفات والطباع والميول والرغبات، وإنما نشأ ذلك عن قرب محتوى أرواحهم من الإيمان الذي هو الدين ولذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالل)** (٢).

قال المباركفوري: (الرجل) يعني الإنسان (على دين خليله) أي على عادة صاحبه وطريقته وسيرته (فلينظر) أي فليتأمل وليتدبر (من يخالل) من المخالة وهي المصادقة والإخاء فمن رضى دينه وخلقه خاللِهُ، ومن لا تجنبه فإن الطباع سرَّاقة والصحبة مؤثرة في إصلاح الحال وإفساده.

قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص ومجالسة الزاهد ومخاللته تزهد في الدنيا لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من حيث لا يدري صاحبه (٣).

وفي قصتنا فئتان لكل منهما وجهة وهدف الأولى يمثلها الغلام ومن آمن معه، والثانية يمثلها الملك ومن على شاكلته، وتجد هؤلاء أرواحهم نسيج واحد،

---

(١) فيض القدير ١ / ٥٥٢ .

(٢) رواه أبو داود برقم ٤٨٣٣ ، والترمذي برقم ٢٣٧٨ وقال حسن غريب، وأحمد برقم ٨٠١٥ ، وقال الأرنؤوط: جيد، والحاكم في المستدرك برقم ٧٣٢٠ وقال صحيح ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح إن شاء الله ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٥٤٥ ، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٩٢٧ .

(٣) تحفة الأحوزي ٧ / ٤٢ .

وأولئك نسيج واحد ، فئة تواطأت قلوبهم على الفداء والتضحية لإعلاء كلمة الله ، والأخرى اجتمعت قلوبهم على الضلال، فمنهم من باشر قتل الراهب وجليس الملك أبشع قتله، ومنهم من ارتقى بالغلام الجبل ليتخلص منه وما عادوا، والأعجب منهم من خاض غمار البحر ليُغرق الغلام ولم يعتبر بما حدث لمن سبقه، وأسفه منهم ذلك الملك الذي أراد أن يتخلص من الغلام برغم كل ما عاينه وعايشه من هلاك حاشيته، وأعجب من كل أولئك الذين قالوا للملك: (أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس) ليوغروا صدره على من بقي من المؤمنين، وامتثلوا أمره في التنكيل بحزب الله وأوليائه في الأرض برغم ما ظهر لهم من براهين قاطعة ودلائل ساطعة على صدق الغلام ومن تبعه، لكنها شبهات وشهوات عمَّت فأعمَت البصائر والأبصار.

فالأمر إذا اتصل بالآخرة ينقسم الناس إلى فريقين لا ثالث لهما: أهل الدنيا، وأهل الآخرة، ولابد أن تنشب بينهم المعارك والصراعات، ولابد أن تكون واحداً من تلكم الفئتين، أما أن ترضى أن تكون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا أمر مستحيل، فإن كنت كما تحب أن تقنع نفسك أنك على الحياد فانظر إلى قلبك وتفحصه جيداً ستجده ولابد يميل لإحدى الفئتين، وإلى أيهما كان ميله كنت منهم فقد ورد عن أبي موسى وابن عمر وأنس ﷺ : قيل للنبي ﷺ الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ ، قال: (**المرء مع من أحب**) [1] .

ويوضحه ما ورد عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أن رسول الله قال: « **مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول لو كان لي مثل ما لهذا عملت فيه مثل الذي يعمل** » ، قال: قال رسول الله ﷺ : « **فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه،**

(١) رواه البخاري برقم ٥٨١٨، ومسلم برقم ١٦٥ /٢٦٤٠ ، وأبو داود برقم ٥١٢٧ ،والترمذي برقم ٢٣٨٥ ، وأحمد برقم ٣٧١٨ ، وابن حبان برقم ٥٥٧ .

ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو كان لي مال مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل » قال: قال رسول الله : « **فهما في الوزر سواء** » [١] .

فوطن نفسك واعرف إلى أي الفريقين تنتمي فإن كنت من أهل الآخرة فاحمد الله واسأله الثبات، وإن كنت من أهل الدنيا فعجل بالرجوع إلى ربك فاليوم عمل بلا حساب وغداً حساب بلا عمل، وأسأل الله لي ولك الثبات على ما يحب ويرضى.

الدرس الثاني: القدوة العملية :

التبليغ عن الله والدعوة إليه تقوم على ساقين: القول والعمل، فإن فُقد أحدهما كانت دعوة عرجاء، لا تقوى على مسايرة الدعوات الباطلة فضلاً عن سبقها، فالدعوة بالقول بغير عمل كان عرجها ظاهراً أقرب للكساح، وإن كانت عملاً بغير قول فهي إلى السلامة أقرب، فإن تمت عملاً يواطئ القول وصلت إلى الكمال وأثمرت تأثيراً في الغير حتماً وإن طال الأمد.

ومن أجل ذلك كان النَّبيّ لا يأمر بأمر حتى يأتيه وواقعه يشهد لذلك ومن أوضح الأمثلة الدالة على مشاركته العمل مع أصحابه رغم أنه كان يكفيه القول مثالان:

[١] مشاركته ﷺ في بناء المسجد النبوي فكان يحمل اللبن مع صحابته الكرام وكان يبني وينشد لهم مبشراً من باب شحذ العزائم ، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه (أن النَّبيّ ﷺ بعدما ابتاع مكان المسجد من الغلامين) : ثم بناه (أي النَّبيّ ﷺ) مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن (**هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر . ويقول :اللهم إن الأجر**

---

(١) رواه أحمد برقم ١٨٠٥٣ وحسنه الأرنؤوط، وابن ماجة برقم ٤٢٢٨ ، والطبراني في الكبير برقم ٨٧٠ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٧٦١٧ ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة برقم ٣٤٠٦ .

أجر الآخرة ، فارحم الأنصار والمهاجرة ﴾ (١).

[٢] مشاركته ﷺ في حفر الخندق ينقل التراب ويحفر بالمعول يرتجز أيضاً ليُحفِّز الجميع على العمل فقد ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: كان النَّبيّ ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ، ولقد رأيته واري التراب بياض بطنه يقول ﷺ : ﴿ **لولا أنت ما اهتدينا نحن ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا إن الألى ـ وربما قال الملا ـ قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا** ﴾ . يرفع بها صوته (٢).

لذا حُقَ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تقول حينما سُئلت عن خُلق النَّبيّ ﷺ أن تقول: ﴿ **كان خُلقه القرآن** ﴾ (٣).

ولمعرفة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها لمنزلة عمل العامل في نفوس غيره أشارت على النَّبيّ ﷺ يوم الحديبية بأعظم مشورة قامت بها امرأة فقد ورد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه ﴿ **قوموا فانحروا ثم احلقوا** ﴾ . قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك ؟ ، اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيلحقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً؛ حتى كاد بعضهم يقتل غمًّا ﴾ (٤) .

فإذا فعل الداعية فعلاً يخالف قوله تسرب الشك وسوء الظن إلى نفوس

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٦٩٤ .

(٢) رواه البخاري برقم ٦٨٠٩، ومسلم برقم ١٢٥ / ١٨٠٣ ، وأحمد برقم ١٨٥٩٣ ، والدارمي برقم ٢٤٥٥ ، وابن حبان برقم ٤٥٣٥ .

(٣) رواه الإمام أحمد برقم ٢٥٣٤١ وقال الارنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٨١١ .

(٤) رواه البخاري برقم ٢٥٨١ ، وابن حبان برقم ٤٨٧٢ ، والطبراني في الكبير برقم ١٣ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٨٥٨٧ .

سامعيه، وبذا ينقسم من سمعه قسمين: الأول محب للداعية قريب منه فيستشكل عليه الأمر وقد يلتمس لذلك عذراً وإن أراد معرفة الصواب سأل عما أشكل عليه ومثال ذلك لما نهى النَّبيّ ﷺ عن صلاة ركعتين بعد العصر ثم إنه في يوم من الأيام صلى بعد العصر ركعتين فاستشكل هذا الأمر على أم سلمة رضي الله عنها، قالت أم سلمة رضي الله عنها سمعت النَّبيّ ﷺ ينهى عنها [١]، ثم رأيته يصليهما حين صلى العصر، ثم دخل وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فأرسلت إليه الجارية فقلت: قومي بجنبه قولي له: تقول لك أم سلمة: يا رسول الله سمعتك تنهى عن هاتين وأراك تصليهما؟، فإن أشار بيده فاستأخري عنه ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: (**يا بنت أبي أمية سألتِ عن الركعتين بعد العصر؛ وإنه أتاني ناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان**) [٢].

الثاني: مبغض للداعية أو بعيد عنه، وهذا قد يسيء الظن بالداعية، وله في ذلك عذر لأن النفوس مجبولة على قبول كلام من يوافق قوله فعله.

ساق الخطيب البغدادي بسنده عن الزهري قال: (لا يَرْضَيَّنَّ الناس قول عالم لا يعمل، ولا عامل لا يعلم) [٣].

وبسنده عن أبي حازم قال: (رضى الناس من العمل بالعلم ورضوا من الفعل بالقول) [٤].

فرحم الله الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أمر الناس بأمر بدأ بأهله؛ وعزم عليهم أن يفعلوه، وإن نهى عن أمر بدأ بأهله؛ وحرج عليهم أن يفعلوه؛ حتى لا يتسرب سُوء الظن إلى نفوس الرعية.

---

(١) تقصد صلاة ركعتين بعد العصر.

(٢) رواه البخاري برقم ١١٧٦، ومسلم برقم ٢٩٧ / ٨٣٤، وابو داود برقم ١٢٧٣، والدارمي برقم ١٤٣٦، وابن حبان برقم ١٥٧٦، والبيهقي في الكبرى برقم ٣٢٢٩.

(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٢٨، وحسنه الألباني موقوفاً.

(٤) اقتضاء العلم العمل ص ٦١.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء دخل إلى أهله أو قال جمع ، فقال : إني نهيت عن كذا وكذا والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا وإن هبتم هابوا وإني والله لا أوتي برجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر) (١).

إن الذي يخالف قوله فعله يصد عن سبيل الله وهو لا يدري يقول ابن القيم: علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق(٢).

وساق الخطيب البغدادي بسنده عن مالك قال :قرأت في التوراة: (إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته عن القلوب كما يَزِلُّ القطر عن الصفا) (٣).

وقال المناوى: مثل المرشد من المسترشد كمثل العود من الظل فمتى يستوي الظل والعود أعوج ؟ (٤).

وقال أبو الأسود الدؤلي :

إبدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويُقتدى ... بالرأى منك وينفع التعليم
لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم (٥)

---

(١) مصنف عبد الرزاق برقم ٢٠٧١٣ ، ومصنف بن أبي شيبة ٣٠٦٤٣ .
(٢) الفوائد ص ٨٤ .
(٣) اقتضاء العلم العمل ص ٦٢ .
(٤) فيض القدير ١ / ٧٨ .
(٥) نقلاً من الموافقات ٤ / ٢١٢ .

قال علي رضي الله عنه : (تعلموا العلم تُعرفوا به،واعملوا به تكونوا من أهله)[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا) [٢].

وكتب سلمان إلى أبي الدرداء : إنما العلم كالينابيع فينفع به الله من شاء، ومثل حكمة لا يُتكلم بها كجسد لا روح له، ومثل علم لا يُعْمَل به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل العالم كمثل رجل أضاء له مصباح في طريق فجعل الناس يستضيئون به وكل يدعو له بالخير [٣] .

لذا عاب ربنا على أناس يأمرون غيرهم بالبر ولا يعملون به فقال تعالى:﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (٤٤) ﴾ [البقرة:٤٤] .

وأوضح جل شأنه أنه يمقت من يقول ولا يفعل فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** (٢) **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** (٣) ﴾ .

[الصف :٢-٣] .

وحذر النَّبيّ من يأمر بالمعروف ولا يأتيه، فيخالف بقوله فعله فوعده بعذاب لا يطاق في نار جهنم يوم القيامة حيث تخرج أمعاؤه من جوفه ويدور حولها كما يدور الحمار حول الرحى فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال : « **يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أي فلاناً ما شأنك ؟ ، أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ ، قال :كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه** » [٤] .

---

(١) سُنن الدارمي برقم ٢٥٩ .

(٢) سُنن الدارمي ١ / ١١٥ برقم ٣٦٦ ، ومصنف ابن أبي شيبة ٧ / ١٠٥ برقم ٣٤٥٤٧ .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٧ / ١٢١ برقم ٣٤٦٦٦ ، وسنن الدارمي ١ / ١٤٨ برقم ٥٥٧ .

(٤) رواه البخاري برقم ٣٠٩٤ ، ومسلم برقم ٥١ / ٢٩٨٩ ، وأحمد برقم ٢١٨٣٢ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٩٩٩٦ .

يقول المناوي: فحق الواعظ أن يتعظ بما يعظ ويُبْصِر ثم يُبَصِّر، ويهتدي ثم يهدى، ولا يكون دفتراً يفيد ولا يستفيد ومِسَنًّا يشحذ ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر، ويجب أن لا يجرح مقاله بفعله ولا يُكَذِّب لسانه بحاله فيكون ممن وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ، فالواعظ ما لم يكن مع مقاله فِعَال لم يُنْتَفع به، إذ عمله مُدرك بالبصر، وعلمه مُدرك بالبصيرة، وأكثر الناس أهل أبصار لا بصائر، فيجب كون عنايته بإظهار ما يدركه جماعتهم أكثر، ومنزلة الواعظ من الموعوظ كالمداوِي من المداوَى، فكما أن الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا كذا فإنه سم ثم رأوه يأكله عُد سُخرية وهزوا؛ كذا الواعظ إذا أمر بما لم يعمله، ومن ثَم قيل يا طبيب طبب نفسك، فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطابع من المطبوع، فكما يستحيل انطباع الطين من الطابع بما ليس منتقشاً فيه، فمحال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس في نفس الواعظ . وقيل من وعظ بقوله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه. وقيل: عمل رجل في ألف رجل، أبلغ من قول ألف رجل في رجل [١].

وحتى ينتظم لك الأمر وتثمر دعوتك فعليك بما قاله الحسن البصرى: إذا كنت آمراً بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت، وإذا كنت ممن ينهى عن المنكر فكن من أنكر الناس له وإلا هلكت) [٢] .

وانظر إلى الغلام كيف كانت أفعاله مطابقة لدعوته، فكان قدوة عملية لتابعيه فلما جاد بنفسه ـ ومن قبله الراهب وجليس الملك ـ ما كان من تابعيه إلا أن تساقطوا في النار كأنهم جنادب وفراشات مطمئنة بذلك نفوسهم قريري الأعين فكانت عليهم برداً وسلاماً.

---

(١) فيض القدير ١ / ٧٨ .
(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٢١٠ .

استـــــدراك :

طرح الشيخ فضل إلهي سؤال: هل للمقصر ترك الدعوة إلى الله تعالى؟ [١].

ثم شـرع في الإجـابة قـائلاً: يردد كـثـيـر من إخـواننا المسـلمين: (لا نقـوم بالدعوة لأننا مـقصرون) . ويحتجون لترك القيام بالدعوة بالنصوص التي ورد فيها ذم من خالف فعله قوله، ويبررون موقفهم كذلك بأن قيامهم بالدعوة سيسئ إلى سمعة الإسلام بسبب سوء تصرفاتهم، ويزعمون كذلك أن دعوتهم لن يستجيب الناس لها بسبب وجود الخلل والنقص فيهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ثم قال في بيان الموقف الصحيح: هناك واجبان:

الأول : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: فعل المعروف وترك المنكر.

إن النصوص التي احتج بها هؤلاء الإخوة ليس فيها ذم بسبب القيام بالواجب الأول، بل فيها ذم بسبب ترك القيام بالواجب الثاني، لم يُنْكَر فيها بسبب أمر الناس بالبر ونهيهم عن المنكر، والتلفظ بالقول الطيب، بل إنما أُنكر فيها بسبب نسيان الأنفس، وترك المعروف، وارتكاب المنكر، وعدم الفعل وفق القول الطيب.

فعلى سبيل المثال هناك طالب نجح في مادة «التفسير» ، ورسب في مادة الحديث هل يُعقل توجيه اللوم بسبب النجاح في مادة التفسير ؟ بل، إنما يلام بسبب رسوبه في مادة الحديث.

هذا، وقد صرح كثير من المفسرين رحمهم الله تعالى أن التوبيخ في تلك النصوص بسبب ترك المعروف وليس بسبب الأمر بالمعروف،وفيما يلي أذكر أقوال بعضهم:

[١] قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة :٤٤] : اعلم وفقك الله

---

(١) انظر السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى ص ١٩٦ وما بعدها.

تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها (١).

[٢] وقال الحافظ بن كثير : وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم (٢).

[٣] وقال البيضاوى: (والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوء صنيعه وخبث نفسه وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمته والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوَّم فيقيم غيره لا منع الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر) (٣).

[٤] وقال العلامة الشوكاني في تفسيره : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله :﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (٤)(٥).

[٥] قال العلامة السعدي كلاماً نفيساً في تفسيره : وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أُمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها ، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله ،

---

(١) تفسير القرطبي ١ / ٢٤٩ .
(٢) عمدة التفسير ١ / ١٠٠ .
(٣) تفسير البيضاوي ١ / ٣١٥ .
(٤) فتح القدير ١ / ١٢٢ .
(٥) السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى ص ١٩٦ -١٩٨ بتصرف يسير.

فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة [١].

يقول الشيخ الحمد: ليس من شروط القدوة العصمة؛ فالعصمة إنما هي للأنبياء ــ عليهم السلام ــ فيما يبلغون عن ربهم. ولا يضيرك تقصيرك ما دمت مخلصاً في نصحك، حريصاً على تكميل نفسك وغيرك؛ فالسعي في التكميل كمال، ومن الذي يخلو من النقائص ؟ فأي الرجال المهذب ؟

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تُعد معايبه [٢]

ولو ترك الناس النصح بحجة التقصير لما بقي ناصح على وجه الأرض، ولو كان شرط القدوة العصمة لما بقي للناس قدوة بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ .

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: (فرضٌ على الناس تعلُّمُ الخير والعمل به؛ فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معاً، ومن عَلِمَهُ ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً) [٣].

وقال: (ولو لم يَنْهَ عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه ـ لما نهى أحدٌ عن شر، ولا أمر بخير بعد النَّبيّ ﷺ ـ وحسبك بمن أدَّى رأيه إلى هذا فساداً، وسوءَ طبعٍ، وذمَّ حال) [٤].

وقال: (وقد صح عن الحسن أنه سمع إنساناً يقول: لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله. فقال الحسن: ودَّ إبليس لو ظفر منا بهذه؛ حتى لا ينهى أحد عن منكر، ولا يأمر بمعروف) [٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤ .
(٢) ديوان بشار بن برد ص ٤٥ ، نقلاً من مع المعلمين ص ٢١ .
(٣) الأخلاق والسير ص ٩٢ نقلاً من السابق ص ٢١ .
(٤) الأخلاق والسير ص ٩٢ نقلاً من السابق ص ٢١ .
(٥) الأخلاق والسير ص ٩٣ نقلاً من السابق ص ٢١ .

وخلاصة القول أن الناس في الدعوة إلى الله على أربعة أحوال:

الأول: يقول الحق ويفعل ما يوافقه وهذا أكمل الناس وبه يُقتدي ولدعوته صدى في النفوس وتأثير في الخلق عجيب.

الثاني: يفعل الحق ولا يتكلم فهذا دون الأول ولكنه يؤجر على فعله ويلام على تقصيره إن كان قادراً على البلاغ.

الثالث: يقول ولا يفعل وهذا منه صنفان:

[١] لم يفعل تكاسلاً أو تشاغلاً أو متعللاً بغير علة فهذا يلحقه الذم والتوبيخ على تقصيره في العمل ويمدح على بلاغه وإن كان في الدرجة أقل من سابقيه.

[٢] لم يفعل لعذر ألم به وهذا مأجور ومثله: أن عبد الله بن عبد الله بن عمر أخبر أنه: كان يرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يتربع في الصلاة إذا جلس ففعلته وأنا يومئذ حديث السن فنهاني عبد الله بن عمر وقال: إنما سُنَّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى، فقلت إنك تفعل ذلك؟ فقال إن رجلي لا تحملاني) [(١)] .

فقد أمر عبد الله بن عمر بالجلسة الصحيحة للصلاة برغم أنه يجلس بخلافها فلما عوتب في ذلك اعتذر بأن رجله لا تحمله، وهو في ذلك مأجور معذور.

الرابع: لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا يفعل من ذلك شيء فهذا شأنه والبهيمة سواء وهو مقصر موزور على كل حال حتى ينتقل إلى إحدى الثلاث السالف ذكرها.

---

(١) رواه البخاري برقم ٧٩٣، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٦٠٥.

الدرس الثالث: الشجرة لا تثمر إلا بعد أن تتآكل بذرتها في الأرض و لا يبقى لها أثر:

في الفترة الأخيرة وبعد أن استُضعفت الأمة، وتداعت عليها الأمم من كل حدب وصوب؛ تستبيح بيضتها، وتبيد خضراءها، وتسعى لاستئصال شأفتها، نبتت بين طياتها نابتة تدعو إلى الرجوع لدين الله حتى يُمَكَّن لهذه الأمة في الأرض، وتعود كسابق عهدها إلى قيادة العالم لتعبيد الناس لرب الناس، ولكن انقسمت هذه النابتة إلى فريقين:

الأول قال: إن التمكين مِنَّة من الله ولا يجوز السعي إليه.

والثاني قال: إن السعي للتمكين واجب على الأمة، فسلك كل السبل إلى التمكين، واستعان بكل الوسائل مشروعة وغير مشروعة.

فأي الفريقين على صواب ؟:

وللإجابة على هذا السؤال نطرح عدة أسئلة ومن خلال الإجابة عنها بإذن الله يبين الحق.

السؤال الأول: ما حكم السعي للتمكين ؟ .

إن السعي للتمكين وإقامة دولة الإسلام فرض كفاية بالنسبة للأقطار التي يقوم الدعاة فيها بواجب الدعوة، فإن كل قطر أو إقليم يحتاج إلى تمكين أهل الحق فيه، فالتمكين فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ذلك الواجب وصار في حق الباقين سنة مؤكدة، وإذا لم يقم أهل الإقليم أو القطر المعين بالسعي للتمكين على التمام صار الإثم عاماً وصار الواجب على الجميع وعلى كل إنسان أن يسعى بحسب طاقته وإمكاناته، وهذا يعني أنه فرض عين على بعض الأفراد الذين ثبت في حقهم القيام بحمل أمانة هذا الدين، وفرض كفاية على الأمة، فعلى كل فرد أن يسعى وسعيه فرض كفاية فإن لم يقم بعض الأفراد بالسعي للتمكين أثمت الأمة جميعها على تفريطها في السعي لإقامة دولة

الإسلام، ومن ثم يتضح فساد من قال : إن التمكين منَّة من الله فلا يجوز السعى إليه، وهؤلاء متكاسلون متخاذلون متواكلون، ما فطنوا إلى أن الأسباب مفضية إلى غاياتها، والغايات مترتبة على أسبابها، فللوصول إلى غاية ما يجب الأخذ بأسبابها المشروعة، والتماس التوفيق من الله ، كما يتضح أن من قال بوجوب السعي للتمكين معهم بعض الحق.

السؤال الثاني : كيف نسعى للتمكين ؟ .

ظن البعض أن المقصود بالسعي للتمكين هو السعي في الوصول إلى السلطة، فإن وصلوا إلى السلطة فقد تم التمكين للأمة، وهذا كلام باطل لأن السعي للتمكين على ضربين: سعي وسائل، وسعي طلب.

والأول : محمود مندوب إلى فعله، والثاني : مذموم منهي عنه.

أولاً : سعي الأسباب وأقصد به السعي للتمكين عن طريق سلوك الأسباب المؤدية إليه وهو مطلوب من الأمة كلها فعليها أن تأخذ بأسباب التمكين الشرعية بأن تكون أهلاً للتمكين وفي هذه الحالة قد يمن الله بالتمكين للأمة وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٥٥) ﴾ [النور :٥٥] .

فإنما الوعد بالاستخلاف والتمكين لمن آمن وعمل صالحاً ولم يشرك بربه أحداً.

قال القرطبي بعد أن ساق جملة من الأقوال على أن هذه الآية خاصة في النَّبيّ ﷺ وصحابته : وقال قوم : هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام كما قال : (**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**

وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها) ، واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كالذي جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب، قال ابن العربي : قلنا لهم هذا وعد عام في النبوة والخلافة وإقامة الدعوة وعموم الشريعة فنفذ الوعد في كل أحد بقدره وعلى حاله... ثم قال (أي القرطبي) : فصح أن الآية عامة لأمة محمد غير مخصوصة إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم [١] .

قال السعدي: هذا من وعوده الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها المتصرفين في تدبيرها، وأن يمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعه الظاهرة في أنفسهم وغيرهم ... ثم قال: ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ويُديلُهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح ﴿ **وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين ﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عزة وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك) [٢] .

يقول العفاني: إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله ، وحكمت هذا النهج في الحياة وارتضته في كل أمورها إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ١٩٦، ١٩٧ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٢٣ .

والأمن ، وما من مرة خالفت هذا النهج إلا تخلّفت في ذيل القافلة، وذُلت، وطُردت من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء.

ألا إن وعد الله قائم، ألا وإن شرط الله معروف، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط، ومن أوفي بعهده من الله ؟ (١) .

ومن ثم فالتمكين لدين الله لا ينحصر في زمان معين أو مكان معين أو أشخاص بعينهم ولكن أي فئة استجمعت شروط التمكين في أي مكان أو أي زمان لابد وأن يمن الله لها بالتمكين في الأرض وهذا من وعود الله التي لا تتخلف فمن أحسن الظن وأيقن بوعد الله وأخذ بالأسباب الشرعية المؤدية إليه أعطاه الله فوق ما يريد فإنه كثير العطاء وافر النعم.

شبهة : يقول البعض إذا كان هذا الوعد حق فلماذا يوجد في بعض الأوقات أناس تتوافر فيهم شروط التمكين ولا يمكّن الله لهم ؟ .

الرد: قال ابن القيم: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم في كل موطن وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبير بصير (٢) .

وقال أيضاً: أن حكمة الله وسُنَّته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدالوا مرة ويُدال عليهم أخرى؛ لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتُصِر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة (٣) .

(١) تثبيت قلوب المؤمنين ص ٤١ .
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢ / ١٣٩ .
(٣) زاد المعاد ٢ / ١٣٨ .

ثانياً: سعي الطلب، وأقصد به السعي طلباً للسلطة حتى يتسنى لمن حصل على الإمارة أن يقيم دين الله بزعمه فيمن تحته من الرعية وهذا سعي مذموم منهي عنه وذلك لما ورد من صريح النهي عن طلب الإمارة أو حتى مجرد الحرص عليه في أكثر من حديث للنَّبيّ ﷺ والتي منها:

عن أبي موسى قال: دخلت على النَّبيّ ﷺ أنا ورجلان من بني عمي فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمِّرنا على بعض ما ولاك الله، وقال الآخر مثل ذلك فقال: **(إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه)**[١].

وعنه أيضاً قال: أقبلت إلى النَّبيّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يستاك فكلاهما سأل فقال: (يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس). قال قلت والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل فكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قلصت فقال: **(لن – أو – لا نستعمل على عملنا من أراده ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس إلى اليمن)** [٢].

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي ﷺ: **(يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِّلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير)** [٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟، قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: **(يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة**

---

(١) رواه مسلم برقم ١٤ / ١٧٣٣، وابن حبان برقم ٤٤٨١، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٠٠٣٥.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٥٢٥، ومسلم برقم ١٥ / ١٧٣٣، وأبو داود برقم ٤٣٥٤، والنسائي برقم ٤، وأحمد برقم ١٩٦٨١، والطبراني في الكبير برقم ٦٥.

(٣) رواه البخاري برقم ٦٢٤٨، ومسلم برقم ٣ / ١٦٥٢، وأبو داود برقم ٢٩٢٩، وابن حبان برقم ٤٤٨٠، وأحمد برقم ٢٠٦٤٧.

خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) (١).

وعنه أيضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أن رسول الله قال ﷺ : **(يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرنَّ على اثنين و لا تولين مال يتيم)** (٢).

فبرغم ما ورد من النهى المؤكد عن النَّبيِّ ﷺ عن أكثر من صحابي مما يدل على أن النهى قد تكرر مما يجعله نهياً مؤكداً لا نقاش فيه، لكن بعض من لم يفقه كلام رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ وإنما يفهمه بحسب هواه وما يتمناه، يلوي أعناق النصوص متخذاً من الدين تكأة يتكئ عليها في الوصول إلى مطامعه من حب الرياسة وتقلد الزعامة.

فهؤلاء فئة من النفوس الشرهة الوثابة التي تأخذ الدين مطية للوصول إلى مطامع دنية دنيوية يصدق فيهم ما ورد عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: **(إنكم ستحرصون على الإمارة ،وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة)** (٣) :

شبهة سبق الـــرد عليها :

وهي تعلق البعض بقول سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ** ﴾ وزعموا زوراً وبهتاناً أنه طلب الإمارة ولهم فيه أسوة، فراجع ردها في الوقفة الأولى الدرس الثاني .

ومنه يُعلم أن سعى الطلب مذموم إن كان طالبه من أهل التقى وبفرض أنه يسعى بوسائل شرعية، فما بالك بمن يسعى للسلطة والتمكين من خلالها، ولم يستوف بعض شروط التمكين، وغير ذلك أنه سلك كل مسلك فاسد من الدخول

(١) رواه مسلم ١٦ / ١٨٢٥ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٩٩٩٩ .

(٢) رواه مسلم برقم ١٧ / ١٨٢٦ ، وأبو داود برقم ٢٨٦٨ ،والنسائي برقم ٣٦٦٧ ، وابن حبان برقم ٥٥٦٤، والحاكم في المستدرك برقم ٧٠١٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٤٥٤ .

(٣) رواه البخاري برقم ٦٧٢٩ ، والنسائي برقم ٤٢١١ ، وابن حبان برقم ٤٤٨٢ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٥١٢٧ .

في تنظيمات، ومجالس نيابية، وتشريعية، وتنازلات عن ثوابت الدين بدعوى إقامة الدين ! شعارهم في ذلك هل تسمح لي أن أهدم الدين باسم الدين ؟! .

ألا يرعوى هؤلاء ويسعون سعي وسائل ويصغون لقائلهم وإمامهم: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم.

السؤال الثالث: هل المقصود بالتمكين تمكين الأفراد أم تمكينَ الدين ؟ :

إن الله ما بعث رسله وأنزل كتبه إلا لتسيير الدنيا وفق ما يحب ويرضى، ولن يكون ذلك إلا بإقامة أمة ترتضي ما أنزل الله وتجعله منهاج حياة يظل ما قر للدنيا قرار، يبقى أبد الآباد وعلى مر الدهور وكر العصور، وليس المقصود تمكين أناس في فترة من الزمن ثم يموت ما يعتقدون بموتهم ودقق النظر جيداً فيما طلبه الخباب رضي الله عنه من النَّبيّ ﷺ وبما رد عليه.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ قال : (**كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه . ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليَتمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**) [١] .

فقد طلب الخباب رضي الله عنه ومن معه النصرة والتمكين لأنفسهم كأفراد فقال: قلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ ، ولكن النَّبيّ ﷺ وعده بالنصر والتمكين ولكن ليس لأفرادهم ولكن لهذا الدين ، فقال ﷺ : «**والله ليُتمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب**

(١) رواه البخاري برقم ٣٤١٦، ٦٥٤٤ ، وأحمد برقم ٢١١١٠ ، وابن حبان برقم ٦٦٩٨ ، والطبراني في الكبير برقم ٣٦٣٨ .

على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

وبذا يتضح أنه من استجمع شروط التمكين إما أن يمن الله بالتمكين في حياته أو بتمكين منهجه بعد موته، فالنَّبيّ مُكِّن له في حياته، والغلام مُكِّن لمنهاجه بعد موته وفي كلتا الحالتين صدق الله وعده ووفي عهده بالتمكين لمن آمن وعمل صالحاً.

وأقول لأولئك المتعجلين : اعملوا جاهدين لكي تكونوا محلاً للتمكين ولا تتعجلوا، فإن الشجرة لا تثمر إلا بعد أن تتآكل بذرتها في الأرض ولا يبقى لها أثر، فأين ما زرعتم ؟ فأني لجانٍ أن يجنِي بغير غرس ؟ فمن طلب جَنْياً بغير غرس فقد نسب نفسه إلى الحماقة ! وانتهزوا الفرصة فالعمل في أيام الاستضعاف أعظم أجراً من العمل في حال التمكين، فهل يستوي أجر من يجد على الخير أعواناً بمن لا يجد على الخير أعواناً ؟! .

وخلاصة القول:

أن التمكين مِنَّة من الله يمن به على من استكمل شروطه ولا يُشترط أن يكون ذلك في حياته لأن التمكين الحق هو تمكين الدين لا تمكين الأفراد.



الوقفة العشرون

[فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدت، وأضرِم فيها النيران، وقال : " من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها " أو قيل له اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : " يا أمه اصبري فإنك على الحق] :

وفيها درسان :

الدرس الأول: العنف حجة من لا حجة له :

هذا سلوك كل عاجز عن إقامة الحجة، فالعنف أعظم وسيلة لمن فقد الحجة وعجز عن إقناع غيره، فإطالة اليد أكبر دليل على عجز اللسان فها هو فرعون لما عجز عن مواجهة حجة موسى بحجة مثلها لجأ إلى العنف وحاول التخلص منه ومن معه، ولما انهارت حجج المشركين أمام برهان النَّبيّ قاطعوه، وعذبوا أصحابه، وخططوا لقتله لولا أن نجاه الله منهم، وفي قصتنا لما عجز الملك عن إقناع جليسه بصحة ما يدعيه عذبه حتى قتله، وثنى بالراهب ففعل به مثلما فعل بجليسه، ثم انثنى على الغلام فحاول أن يتخلص منه في بادىء الأمر ثم أرداه قتيلاً شهيداً في سبيل الله ، ورغم البراهين التي ظهرت له حال تنفيذه لذلك إلا أنه أصر على الضلال، وختم بكل من خالفه من أهل مملكته وأوردهم نار الدنيا فكانت برداً وسلاماً على كل من أُلقي فيها بإذن الله .

يقول الشيخ سعيد عبد العظيم : فاللجوء إلى العنف والبطش هو أسلوب

الطغاة والجبابرة في كل زمان ومكان، فلا حجة لديهم ولا إقناع عندهم، وكيف يكون عندهم حجة أو إقناع ؟ والباطل لجلج وعليه ظلمة وهو مخالف للعقل والفطرة والكتب المنزلة والرسل المرسلة وقد قال الله تعالى لإبليس: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر :٤٢] .أي لا حجة له في إغواء العباد، ومن طالع قصة فرعون علم أن البطش والعنف هو سلاح الضعيف العاجز السفيه، فقد شرع يقتل الصبيان ويستحى الإناث لرؤيا تفيد أن إهلاكه سيكون على يد غلام من بني إسرائيل، وسواء كانت الرؤيا حقة أو باطلة فلا يحل له صنيعه هذا، إذ لو كانت حقة فسيهلك حتماً وبالتالي فلا داعي لقتل الصبيان، وإن كانت باطلة فلا داعي لقتلهم وإتلاف الأنفس البريئة، ويدل على سفهه أيضاً أنه واجه نبي الله موسى بجيش من السحرة رغبهم في الملك والمال وهو الذي يدَّعي الربوبية والألوهية مع الله ، ثم لما آمنوا وأسلموا لله رب العالمين، تهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ **فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [طه: ٧١] .

فهذا هو منطق الطغيان، وانظر في قول الكفار لشعيب وهو خطيب الأنبياء: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١)**﴾ [هود : ٩١] ، فأين حجتهم في مواجهته، وقال تعالى عن قوم لوط ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)**﴾ [النمل:٥٦] ، فهل يكون جزاء العفاف والطهر الطرد والإبعاد؟! وقد شهد ببراءة يوسف كل شيء الشاهد والملك والمرأة والنسوة وعلى الرغم من ذلك أدخلوه السجن ليدفع البريء ثمن تهتك امرأة العزيز: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)**﴾ [يوسف:٣٥]. وقُتل صاحب يس، فأين الحجة والبرهان والبصيرة في تصرفات الطغاة والطواغيت ؟! [(١)].

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ / سعيد عبد العظيم ص ١٨٤- ١٨٧ باختصار وتصرف.

وفي تعذيب الملك لأبطال قصتنا يقول الشيخ ياسر برهامي: نرى الأسلوب القديم الجديد من أهل الباطل والكفر في مواجهة الحق فلا نقاش ولا حجة ولا دليل ولا حوار وإنما هو البطش والتنكيل فهل ترون يا عباد الله ما بقي من ملك ذلك الملك وبطشه ؟،وهل ترون من ملك فرعون وبطشه؟،ولماذا نذهب بعيداً فما بقي من ملك من تسمى « بشاهنشاه أي ملك الملوك » في زماننا (١) وما يبقى من مُلك كل طاغية جبار ؟ الإجابة واحدة: لم يبق من ذلك كله إلا الأحاديث ، فصدق الله إذ قال: ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون :٤٤] .

وعن قريب يزول ملك طغاتكم أيها المعذبون وترحلون أنتم وهم إلى دار لا ظلم فيها ولا بخس ولا عدوان وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢).

والمُقلب لأوراق التاريخ يجد أن خفاف العقول من أهل الباطل ـ على مر العصور والدهور وفي كل الأمم ـ يلجأون إلى العنف والقوة عندما تعجز حججهم أمام أهل الحق، ومن أنصع الأمثلة التي يجب أن تنقش على القلوب بماء الذهب قصة سعيد بن جبير مع الحجاج بن يوسف الثقفي والتي صاغها د/ رأفت الباشا بقلمه الرشيق فقال: بلغ الجند بالإمام الحبر العابد الزاهد؛ التقى النقي الورع مدينة « واسط » وأدخلوه على الحجاج.

فلما صار عنده نظر إليه في حقد وقال ما اسمك ؟.

■ قال: سعيد بن جبير.

● فقال : بل شقي بن كسير.

■ فقال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

● فقال: ما تقول في محمد ؟

(١) هذا لقب شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي الذي مات بمصر مريضاً بالسرطان طريداً مهيناً.

(٢) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٥٢ .

■ قال : تعني محمد بن عبد الله .

● فقال : نعم.

■ قال: سيد ولد آدم، النَّبيّ المصطفي ﷺ، خير من بقى من البشر، وخير من مضى ، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله ، ولكتابه، ولعامة المسلمين وخاصتهم .

● قال : فما تقول في أبي بكر ؟.

■ قال : هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ ، ذهب حميداً ، وعاش سعيداً ، ومضى على منهاج النَّبيّ ﷺ لم يغير ولم يبدل.

● قال: ما تقول في عمر ؟.

■ قال : هو الفاروق رضي الله عنه الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، وخيرة الله وخيرة رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبيه، فعاش حميداً وقتل شهيداً.

● قال : فما تقول في عثمان ؟.

■ قال: هو المجهز لجيش العسرة، الحافر بئر رومة، المشتري بيتاً لنفسه في الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولقد زوجه النَّبيّ ﷺ بوحي من السماء، وهو المقتول ظلماً.

● قال: فما تقول في عليّ ؟.

■ قال : ابن عم رسول الله ﷺ وأول من أسلم من الفتيان، وهو زوج فاطمة البتول رضي الله عنها، وأبو الحسن والحسين رضي الله عنهما سيدَى شباب أهل الجنة.

● قال: فأي خلفاء بني أمية أعجب إليك ؟.

■ قال: أرضاهم لخالقه.

● قال: فأيهم أرضى لخالقه ؟.

■ قال: عِلْمُ ذلك عند الذي يعلم سِرَّهم ونجواهم.

● قال: فما تقول فيَّ ؟.

■ قال: أنت أعلم بنفسك.

● قال: بل أريد علمك أنت.

■ قال: إذن يسوءك ولا يسرك.

● قال: لابد من أن أسمع منك.

■ قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تُقْدِم على أمور تريد به الهيبة، وهي تقحمك في الهلكة، وتدفعك إلى النار دفعاً.

● قال: أما والله لأقتلنك.

■ قال: إذن تفسد عليَّ دنيايَ، وأفسد عليك آخرتك.

● قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت.

■ قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

● قال: أفتريد أن أعفو عنك ؟.

■ قال: إن كان عفو من الله تعالى، أما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

● فاغتاظ الحجاج وقال: السيف والنطع يا غلام.

■ فتبسم سعيد، فقال الحجاج: وما تبسمك ؟.

■ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك.

● فقال: اقتله يا غلام.

■ فاستقبل القبلة وقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩] .

● قال: احرفوا وجهه عن القبلة.

■ فقال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

- فقال: كبوه على الأرض.
- فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].
- فقال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أدعى منه لآيات القرآن.
- فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي (١).

الدرس الثاني: أما لكم في النساء أسوة ؟!

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟**» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن تطرحه؟! ، فقال رسول الله: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**» (٢).

تأمل حال تلك المرأة التي فقدت وليدها في الحرب ومدى حدبها عليه وانشغالها بالتماسه وهي في ضيق السبي الذي ما شغلها عن التماس ابنها حتى وجدته، ثم تأمل سؤال النّبيّ ﷺ لصحابته رضي الله عنهم: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟، وهو سؤال يدل على غلبة الظن أنه أمر مستحيل، وتأمل رد الصحابة بالنفي المؤكد بالقسم المتبوع بسؤالهم: وهي تقدر على أن تطرحه؟ ، الدال على شدة العجب وتأكيد استحالة وقوع هذا الأمر من تلكم المرأة.

تأمل حال هذه المرأة والمرأة التي في قصتنا فقد هان الأمر عندها فطرحت وليدها في النار رغم استحالة وقوع ذلك من امرأة، وأعظم من ذلك أنها جادت بنفسها معه، لا لشيء إلا لأنها رغبت فيما عند الله فعملت ما قطع باستحالته الرجال.

---

(١) صور من حياة التابعين ص ٢٢٣ / ٢٢٦.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٦٥٣ ومسلم برقم ٢٢ / ٢٥٧٤ والطبراني في الصغير برقم ٢٧٢، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧١٣٢.

ولو كان النساء كمثل هذى لفُضِّلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخر للهلال

رجالنا ؛ أما لكم في النساء أسوة ؟!! :

في هذا الزمان بعض الرجال قد تأنث عزمه، وهمته، وفعاله، وإن بقى له ظاهر الذكورة، برغم أنهم نشأوا وترعرعوا بين جنبات هذه الأمة المباركة، فهم مسوخ في صور بشر، ومسلكهم يدل على أنهم تركوا الرجولة وراءهم ظهرياً، فإلى أولئك أتوجه، رجالنا أما لكم في النساء أسوة ؟.

إلى من يضحى من أجل السيجارة، والكأس، والشمة، والتعميرة، بماله وصحته، هلا ضحيت لله بعشر معشار ما تضحى به من أجل سيجارة، أو كأس أو شمة، أو تعميرة، وحفظت صحتك ومالك.

إلى من يضحي بعمره لاهثاً آناء الله وأطراف النهار بين فضائحيات لمشاهدة ساقطين وساقطات، مفضوحين ومفضوحات، ولاعبين ولاعبات، لاهين ولاهيات، هلا ضحيت ببعض وقتك لتصُفّ قدميك في جوف الليل بين يدي ربك.

إلى من ضحى بعمره يقلب الورق والشطرنج والطاولة، هلا ضحيت بوقتك لتقلب صفحات كتاب الله ، أو أي كتاب يدل على الله .

نساءنا ؛ أمَ لكم في النساء أسوة ؟ :

لقد تأسيتن بسواقط النساء في المأكل والمشرب والملبس والمشية حتى في طريقة الكلام، وتحسبن أنكن تحسن صنعاً، فأين من تأست بخديجة أو عائشة أو فاطمة رضي الله عنهن ؟ .

إلى كل هؤلاء وغيرهم من الرجال والنساء أسألهم أما لكم في النساء أسوة إن كان التأسي بالرجال في نظركم عزيزاً ؟.

فأين المضحون لإعلاء كلمة الله ـ عز وجل ـ ؟ ، لو قلبت ناظريك وتصفحت

بهما كل الوجوه التي تلقاك ما وجدت بينهم من يريد أن يضحى لإعلاء لا إله الا الله خفاقة في السماء إلا النذر اليسير وكان الله خاطب بهذه الآية غيرنا فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة: ١١١] .

فأين هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله في سوق الرقيق، وما رضوا أن يكونوا عبيداً لغيره ؟ أين هؤلاء ؟ .

إننا أبينا إلا أن نبيع أنفسنا، ولكن ما بعناها لخير سيد، ورضينا بالرق والاستعباد لغيره من أعراض الدنيا؛ فلازمتنا التعاسة بحقها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضي وإن لم يعط لم يرض**) (١) .

فلما كان هذا حالنا صدق فينا قول ربنا: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فلكي نخرج من سخطه فلابد أن نولِّي وجوهنا شطره ، نرضى بما يُرضيه وإن كان ظاهره خلاف ما يُرضينا، ونبغض ما يبغضه وإن كان ظاهره خلاف ما نبغض.



(١) رواه البخاري برقم ٦٠٧١ ، وابن ماجة برقم ٤١٣٥ ، وابن حبان برقم ٤٢١٨ .



وأُسدل الستار

وأسدل الستار

وأُسدل الستار على قصة هذا الغلام الذي عاش لله ومات في سبيله، بعدما كان يُعَدُّ ليعيش ويموت في سبيل الشيطان، وأصبح أثراً بعد عين، ولكن علا ذكره وبقى أثره بفضل ربه ، وسيظل إن شاء الله أبد الآباد إلى أن يقبض الله إليه البلاد والعباد، وفي الآخرة يُعلى الله له ذكره، ويشكر له صنيعه على رؤوس الأشهاد.

وبعد أن أسدل الستار بقى سؤال مهم ألا وهو:

هـــل أنـــتَ الغـــلام ؟

فقد تكون أنت، أو أحد ذويه: أبيه، أمه، أخيه، صديقه وصاحبه.

فإن كنت أحد ذويه فقم بدورك معه فإن الإنسان بمن حوله، فإن كنتَ أباه فوجهه الوجهة الصحيحة التي تؤدي به إلى سبيل الرشاد، وإن كنتِ أمه فربِّه على منهاج النبوة عسى أن يكون لبنة في بناء صحيح، وإن كنت أخاه فأعنه، فالأخ إن لم يكن عوناً لأخيه في الوصول إلى الجنة فلا خير فيه، وإن كنت صاحبه، فاعلم أن الصاحب ساحب، فلا تكن عوناً للشيطان عليه، ولكن أعنه على نفسه وهواه وشيطانه، ولا تسحبه إلى طرق الضلال والغواية.

وإن كنت أنت الغلام، فقم من رقدتك، وانفض الغبار عن كاهليك، واجعل وجهتك ربك، فإن الأمر جد خطير.

انتبه، أي أننا كلنا الغلام :

فيا أيها الغلام اسمع وأصغ وانتبه إلى وصية خير البشر إلى خير الغلمان في

زمنه، فعن ابن عباس ﭬ أن النَّبيّ ﷺ قال له: «**يا غُلامُ! إني أُعَلِّمُكَ كَلمات: احْفَظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظ اللَّهَ تَجدْهُ تُجاهَكَ، إذَا سَألْتَ فاسأل اللَّهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعنْ باللَّه؛ وَاعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ على أنْ يَنْفعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإن اجْتَمَعُوا على أنْ يَضُرُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُوكَ إلا بشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفعَت الأقْلامُ وَجَفَّت الصُّحُفُ**»(١).

فاصدع بالحق وافعل ما تؤمر من قِبَلِ ربك ونبيك، ولا تخشى في الله لومة لائم، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن الأمور تجري بمقادير، يجريها الذي قدَّرها، فلن يصل إليك نفعٌ لم يُرِد الله وصوله، ولن يصيبك مكروه لم يكتبه الله عليك، ولا تهرب عند أول مواجهة مع أهل الباطل، وسل نفسك قبل الهرب، أأهرب من شيء قُدِّر أم من شيء لم يُقدَّر؟ ثم ذكِّر نفسك وقل لها: إن كان قُدِّر فأين المهرب؟ وإن كان لم يُقدَّر فلم الهرب؟ فسترد عليك قائلة: إذن أقبل لأنه لا مفر.

واعلم أن من عاش حياته اعتقاداً فقد عاش، ومن عاشها نصوصاً فقد مات حياً، فشتان بين أن تحفظ نصاً عن ظهر قلب ولا تعمل به، وبين أن تعتقد صحة هذا النص وتجعله منهاج حياة، فجميل أن تموت لأجل دينك، والأجمل منه أن تعيش وتموت لدينك.

ولا تغتر بالقوى المادية فإن مرجعها إلى الله - عز وجل - وهو الذي أودع في كل مادة صفاتها، وهو القادر على أن يسلبها تلك الصفات في أي لحظة، ويخرق لك العادات إن شاء، فسبحان من نجى إبراهيم ﵇ من نار تلظى فكانت عليه برداً وسلاماً، ونجى يونس ﵇ في بطن حوت، ونجى موسى ﵇ في تابوت.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذى برقم ٢٦٣٥ وقال حسن صحيح، وزيادة الجامع الصغير برقم ٤٢١٧، ورياض الصالحين برقم ٦٢، وكنز العمال برقم ٥٦٩١، وصححه الألبانى فى سنن الترمذى برقم ٢٥١٦، وفى صحيح الجامع الصغير برقم ٧٩٥٧، وفى مشكاة المصابيح برقم ٨ / ٥٣٠٢.

وختامًا :

رسالة لكل داعية ولكل طاغية، قال تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)** ﴾ [البروج] .

فإلى كل داعية : تذكَّر قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)** ﴾ واعلم أن الله ـ عز وجل ـ ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)** ﴾ ولك في الغلام أسوة وقدوة حسنة.

إلى كل طاغية تذكَّر قوله تعالى﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)** ﴾واعلم ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ ولك في الملك وأعوانه وفرعون وثمود عبرة وعظة.

وإلى كل فرد على هذه البسيطة اعلم أنه قد ورد عن تميم الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**ليبلُغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يُعز الله به الإسلام وذلاً يُذل الله به الكفر**) ، وكان تميم الداري يقول قد

عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية (١) .

وله الحمد أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً على ما مَنَّ ويسَّر وهدى ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، عدد خلقه ، ورضا نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته، . . آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبــــه

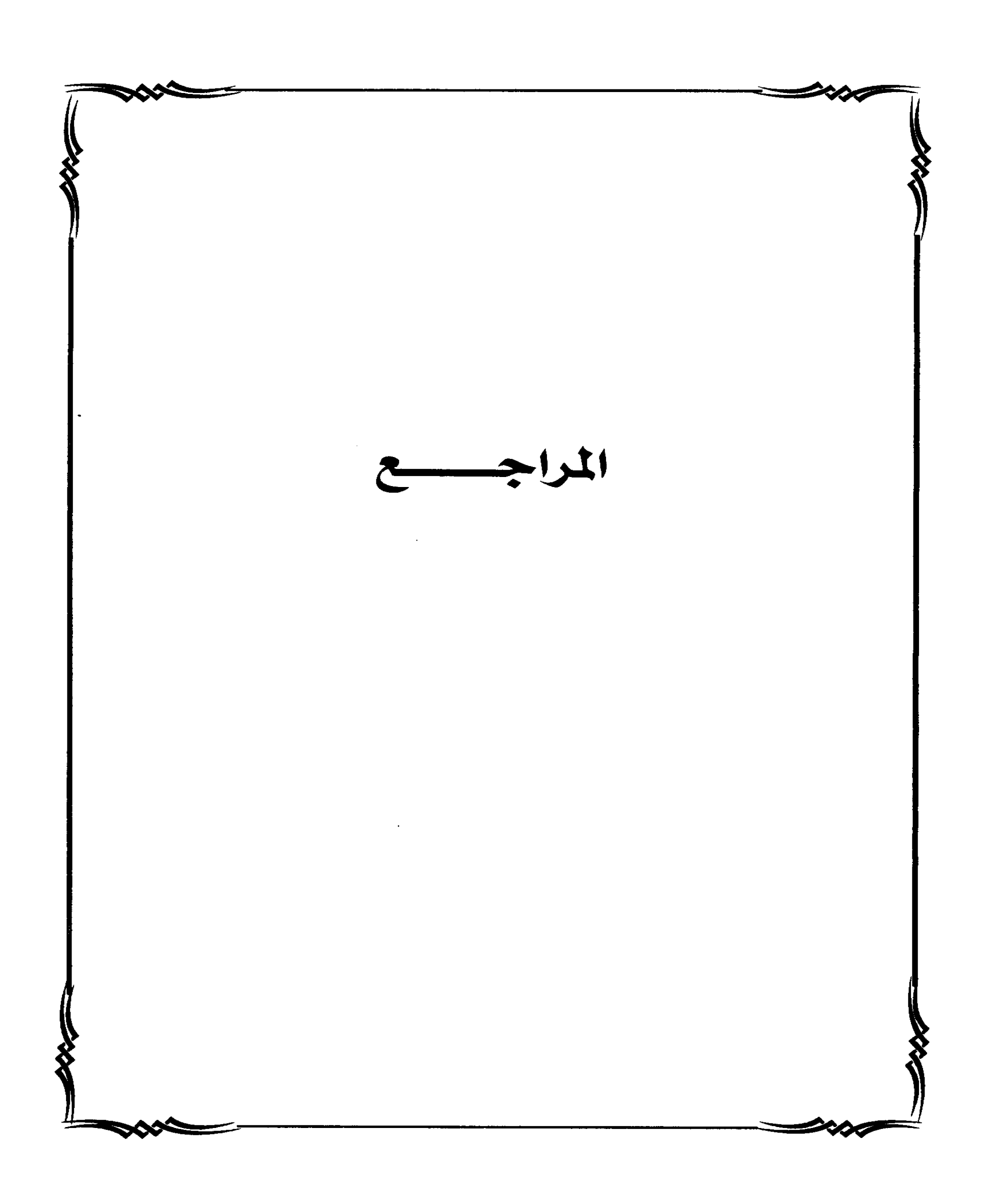
سعد سعيد أحمد عبده

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

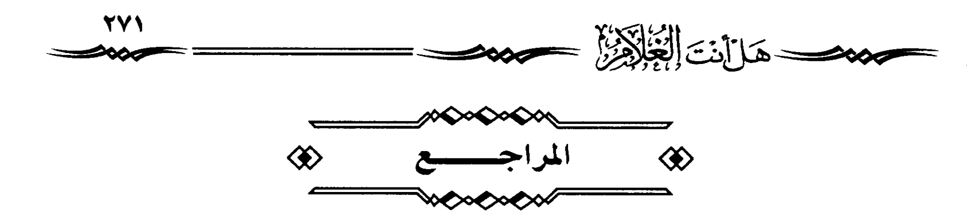
E.Mail: SaadSaeid@yhoo.com



(١) رواه أحمد برقم ١٦٩٩٨ وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم ٣ .



المراجـــع



المراجــــع

[١] اقتضاء العلم العمل ، للإمام/ الخطيب البغدادي ، تحقيق العلامة/ محمد ناصر الدين الألباني ، طبعة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

[٢] الأذكار، للإمام / يحيى بن شرف النووي ، أشرف على تحقيقه الشيخ / مصطفي العدوى، خرج أحاديثه/ أسامة بن عبد العليم آل عطوة، طبعة دار ابن رجب، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

[٣] التعاريف للشيخ/ محمد عبد الرؤوف المناوى، تحقيق د/ محمد رضوان الداية، طبعة دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

[٤] التعريفات، للشيخ/ عليّ بن محمد الجرجانى، تحقيق/ إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب العربي بيروت .

[٥] التوضيحات الحسان على رسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية، للشيخ/ ياسر برهامى، طبعة دار الخلفاء الراشدين، الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

[٦] الرحيق المختوم، للشيخ/ صفي الرحمن المباركفورى، طبعة مكتبة الإيمان، المنصورة مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

[٧] الروح، للإمام / ابن قيم الجوزية، تحقيق / صلاح محمد محمد عويضه، طبعة دار العقيدة، القاهرة، الطبعة الأولى.

[٨] الزهد، للإمام/ ابن المبارك .

[٩] الزهد، للإمام/ أحمد بن حنبل، بحواشي/ محمد عبد السلام شاهين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

[١٠] السلوك وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، للأستاذ الدكتور/ فضل إلهي طبعة دار ابن حزم، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

[١١] السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، للإمام/محمد على الشوكاني ، تحقيق/ محمود إبراهيم زايد، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ .

[١٢] الصمت وآداب اللسان، للإمام ابن أبي الدنيا، تحقيق/ أبو إسحاق الحوينى، طبعة دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

[١٣] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للإمام/ ابن قيم الجوزية، تحقيق د/ عليّ بن محمد الدخيل الله ، طبعة دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

[١٤] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، للإمام/ ابن قيم الجوزية، تحقيق/ محمد جميل غازى، مطبعة المدنى، القاهرة.

[١٥] الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام/ ابن حزم الظاهرى، طبعة مكتبة الخانجى، القاهرة.

[١٦] الفوائد، للإمام / ابن قيم الجوزية، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

[١٧] المستطرف في كل فن مستظرف، للإمام / شهاب الدين الأبشيهى، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

[١٨] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعى، للشيخ / أحمد بن محمد الفيومى، المكتبة العلمية، بيروت.

[١٩] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر ، طبعة مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

[٢٠] المفردات في غريب القرآن، للإمام / الراغب الأصفهانى، طبعة مكتبة نزار مصطفي الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

[٢١] الموافقات في أصول الشريعة، للإمام / أبو اسحاق الشاطبى، تخريج / أحمد السيد سيد أحمد على، شرح وتعليق الشيخ / عبد الله دراز، طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة.

[٢٢] النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام / ابن الأثير، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحى، طبعة المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

[٢٣] الوسائل المعينة على حفظ القرآن الكريم، قسم التحقيق بدار الحرمين / إبراهيم إسماعيل القاضي ، السيد عزت المرسى، إشراف / محمد عوض المنقوش، طبعة دار الحرمين للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

[٢٤] أصحاب الأخدود، للأستاذ / رفاعي سرور، طبعة دار الفرقان، الإسكندرية.

[٢٥] أضواء البيان، للعلامة / محمد الأمين الشنقيطى، ضبط الشيخ / محمد عبد العزيز الخالدى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ.

[٢٦] إحياء علوم الدين، للإمام / أبو حامد الغزالى، دار المعرفة، بيروت.

[٢٧] إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب، للشيخ / سعيد عبد العظيم، دار الإيمان ، الإسكندرية .

[٢٨] إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام / ابن قيم الجوزية، باعتناء صدقي محمد جميل العطار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

[٢٩] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام / ابن قيم الجوزية، تحقيق / مجدي فتحي السيد، طبعة دار الحديث، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

[٣٠] بدائع الفوائد، للإمام / ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق / سيد عمران، عامر صلاح، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

[٣١] تأملات إيمانية في سورة يوسف، للشيخ / ياسر برهامي، دار الإيمان، الإسكندرية.

[٣٢] تثبيت أفئدة المؤمنين بذكر مبشرات النصر والتمكين، للدكتور/ سيد ابن حسين العفاني، تقديم الشيخ/ أبو بكر جابر الجزائرى، والشيخ / محمد صفوت نور الدين، طبعة مكتبة معاذ بن جبل، ودار العفانى، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

[٣٣] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذى، للشيخ / محمد بن عبد الرحمن المباركفورى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

[٣٤] تحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء، جمع وترتيب/ أحمد بن سليمان، أم صفية بنت محمد صفوت نور الدين، تقديم الشيخ / محمد صفوت نور الدين، مطبعة دار الإيمان، ودار القمة، الإسكندرية.

[٣٥] تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل (، للإمام / عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق / مجدي فتحي السيد، ياسر سليمان أبو شادي، طبعة المكتبة التوفيقية، مصر.

[٣٦] تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن (للإمام / ابن جرير الطبرى.

[٣٧] تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، للإمام القرطبى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، ودار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

[٣٨] تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، للإمام / عبد الله بن أحمد النسفي، ضبطه وخرج أحاديثه وآياته الشيخ / زكريا عميرات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

[٣٩] تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) للشيخ / محمد بن محمد العمادي أبو السعود، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

[٤٠] تلبيس إبليس، للإمام / ابن الجوزي البغدادي ، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

[٤١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للعلامة / عبد الرحمن بن ناصر السعدى، تقديم الشيخ / عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، والشيخ / محمد بن صالح العثيمين، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

[٤٢] جامع العلوم والحكم، للإمام ابن رجب الحنبلى، تحقيق / عبد الله

المنشاوى، طبعة مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

[٤٣] جامع بيان العلم وفضله، للإمام الحافظ / ابن عبد البر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

[٤٤] حياة الصحابة، للعلامة / محمد يوسف الكندهلوى، تحقيق وتعليق / لجنة من العلماء والباحثين، طبعة المجموعة المتحدة للنشر والتوزيع، القاهرة.

[٤٥] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للإمام / أبو نعيم الأصفهانى، طبعة دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ .

[٤٦] رهبان الليل، للدكتور / سيد بن حسين العفانى، بتقديم كل من: الشيخ / أبو بكر جابر الجزائرى، والشيخ / محمد صفوت نور الدين، والشيخ / محمد بن إسماعيل المقدم، والشيخ / أبو إسحاق الحوينى، والشيخ / عائض عبد الله القرنى، والشيخ / محمد القاضى، طبعة مكتبة معاذ بن جبل، بني سويف، مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

[٤٧] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للشيخ / محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

[٤٨] زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن قيم الجوزية، طبعة دار البيان العربى، القاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م.

[٤٩] زهر البساتين ، للدكتور / سيد بن حسين العفانى، بتقديم طبعة دار العفانى، كل من: الشيخ / أبو بكر جابر الجزائرى، والشيخ / محمد

صفوت نور الدين، والشيخ / أبو إسحاق الحوينى، والشيخ / محمد القاضى، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

[٥٠] سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبى، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

[٥١] شرح العقيدة الطحاوية، للشيخ / ابن أبي العز الحنفي، بتحقيق جماعة من العلماء، تخريج / محمد ناصر الدين الألبانى، طبعة المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

[٥٢] صحيح مسلم بشرح النووى، بضبط ورقم / محمد فؤاد عبد الباقى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

[٥٣] صور من حياة التابعين، للدكتور / عبد الرحمن رأفت الباشا، طبعة دار الأدب الإسلامى، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

[٥٤] طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام / ابن قيم الجوزية، تحقيق / سيد إبراهيم عمران، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

[٥٥] عدة الصابرين، للإمام / ابن قيم الجوزية، تحقيق / عصام الدين الصبابطى، طبعة دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

[٥٦] علو الهمة، للشيخ / محمد بن أحمد إسماعيل المقدم، طبعة دار العقيدة للتراث، الإسكندرية، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

[٥٧] عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعلامة / بدر الدين العينى.

[٥٨] عودة الحجاب، للشيخ / محمد بن أحمد إسماعيل المقدم، طبعة دار الصفوة، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

[٥٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

[٦٠] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، بتعليق الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

[٦١] فضل العلم وآداب طلبته وطرق تحصيله وجمعه، لأبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان، طبعة مؤسسة الزهراء، كفر الشيخ، مصر.

[٦٢] فيض القدير شرح الجامع الصغير، للشيخ / عبد الرؤوف المناوى، تعليق / ماجد الحموى، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦م.

[٦٣] قاعدة في المحبة، لشخ الإسلام / ابن تيمية، تحقيق د / محمد رشاد سالم، طبعة مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة.

[٦٤] قصة أصحاب الأخدود، للشيخ / ياسر برهامى، طبعة دار العقيدة، الإسكندرية، ١٤١٤هـ

[٦٥] قصة أصحاب الأخدود، للشيخ/ سعيد عبد العظيم، طبعة دار العقيدة والتراث، الإسكندرية، الطبعة الأولى.

[٦٦] قصة أصحاب الأخدود، للشيخ / محمود المصرى، طبعة مؤسسة قرطبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

[٦٧] لا تحزن، للدكتور / عائض القرنى، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.

[٦٨] لسان العرب،لابن منظور الإفريقى، طبعة دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

[٦٩] مجلة التوحيد، تصدر عن جماعة أنصار السُّنَّة المحمدية بمصر، العدد رقم: ٤١٠ السنة الخامسة والثلاثون، شهر صفر ١٤٢٧هـ.

[٧٠] مجمع الأمثال، لأبي الفضل النيسابورى، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة، بيروت.

[٧١] مختار الصحاح، للشيخ / محمد ابن أبي بكر الرازي ، تحقيق / محمود خاطر، طبعة مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة جديدة ١٤١٥هـ / ١٩٩٨م.

[٧٢] مختصر تفسير العظيم المسمي عمدة التفاسير، اختصار وتحقيق العلامة / أحمد محمد شاكر، طبعة دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

[٧٣] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق وتعليق / أحمد فخري الرفاعى، عصام الحرستانى، طبعة دار الجيل بيروت.

[٧٤] مفتاح دار السعادة، للإمام / ابن قيم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

[٧٥] مع المعلمين، للشيخ / محمد بن إبراهيم الحمد، طبعة دار بن خزيمة، المدينة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

[٧٦] وقاية الإنسان من الجن والشيطان، للشيخ / وحيد عبد السلام بالى، بتقريظ الشيخ / أبو بكر جابر الجزائرى، طبعة دار ابن الهيثم، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٤٢٢هـ.


فهرس



فهرس

رقم الصفحة

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

حقيقة الإيمان
عند أهل السنة والجماعة

كتبه

سعد سعيد أحمد عبده

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



هاتف: ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس: ٢٤٣٣٢٤٩
محمول: ٠١٠ ١٩٠٠٠٣٨